أعظم هاشم التركستاني

(رحمه الله)

أيام دامية في بخارى وسمرقند

(العهد السوفيتي ١٣٤٩هـ - ١٩٢١م)



سلسلة الإصدارات العلمية ٥٦

أيام دامية

في بخارى وسمرقند...

عاشها شاب مسلم في عهد الحكومة السوفيتية

خلال سنة «١٣٤٩هـ – ١٩٣١م»

بقلم

أعظم هاشمي التركستاني (رحمه الله)

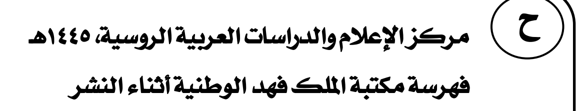
(١٣٣٣هـ – ١٣٩٣هـ)

ترجمه من الأردية

أنس شودهري

مراجعة وتصحيح وتعليق

كفاية اللّه هاشمي (حفيد المؤلف)

ح

مركز الإعلام والدراسات العربية الروسية، ١٤٤٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التركستاني، أعظم هاشمي

أيام دامية في بخارى وسمرقند/ أعظم هاشمي التركستاني؛ كفا ية الله الهاشمي، ط١ ـ الرياض، ١٤٤٥هـ

١٥٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم.

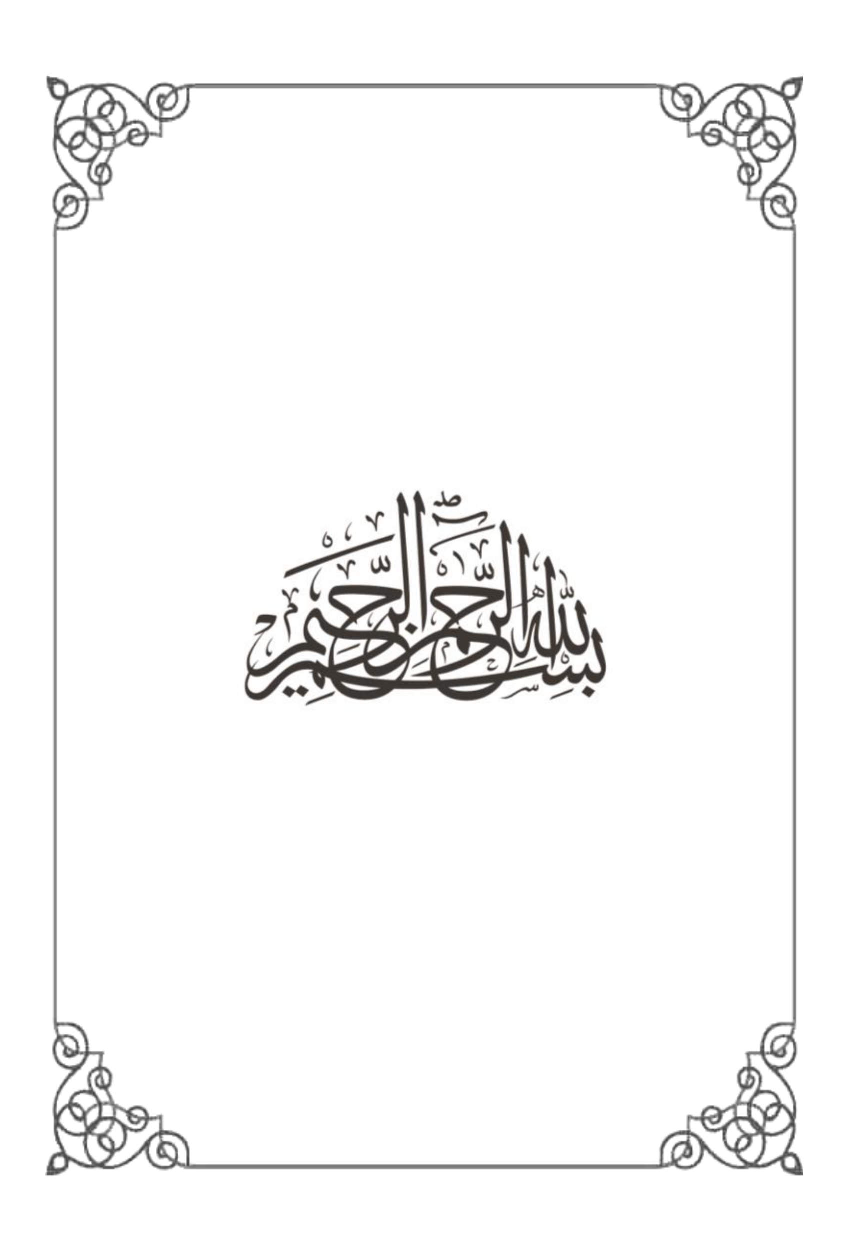
ردمك: ٥ـ٨٢٨٢ـ٠٤ـ٦٠٣ـ٩٧٨

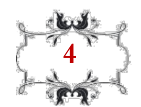
رقم الإيداع: ١٤٤٥/٥٩٧٠، ردمك: ٥-٨٢٨٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة العربية الأولى
١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م



المقر الرئيسي: موسكو - روسيا الاتحادية - الفرع الرئيسي: مدينة الرياض: ص.ب: ٢٣٠١٨٥، الرمز البريدي: ١١٣٢١، المملكة العربية السعودية
Head Office: Moscow, Russia-Main Branch: P.O Box: 230185 Riyadh: 11321, Saudi Arabia
E mail: info.russianstudies@gmail.com www.ciars.ru


بسم الله الرحمن الرحيم



محتويات الكتاب:



كلمة الناشر:

بحمد الله وتوفيقه، تساق إلينا الأرزاق العلمية، بين الفينة والأخرى أتلقى اتصالاً هاتفياً، أو رسالة بريد إلكتروني، أو مبادرة مباشرة من فضلاء قد لا تربطني بهم سابق معرفة، فإذا أنا أمام عمل علمي عظيم، يقدم إليّ لنشره ضمن سلسلة الإصدارات العلمية، بمركز الإعلام والدراسات العربية الروسية.

هذه المنح الربانية مؤشرات "ولله الحمد والمنة" على النجاح والقبول، ولعلي هنا أشير إلى جملة كتب لم يكن لنا فيها فضل السعي للوصول إليها، ولكنها سيقت إلينا، منها: (وثائق نظير تورياكولوف مبعوث الاتحاد السوفيتي في الحجاز/١٩٢٨م- سجلات ووثائق تورياكولوف، التي لدى ابنته/ آنيل- مخطوطة/ رحلة الحجاج السوفييت/ ١٩٢٦م - رحلة المرجاني)، وغيرها.

هنا تتجدد سعادتنا في المركز ، بإصدار هذا الكتاب:

أيام دامية في بخارى وسمرقند...

عاشها شاب مسلم في عهد الحكومة السوفيتية خلال سنة «١٣٤٩هـ –١٩٣١م»

لكاتبها/ أعظم هاشمي التركستاني (رحمه الله) (١٣٣٣هـ-١٣٩٣هـ)، نقلها إلي مشكوراً، الأستاذ/ كفاية الله الهاشمي "حفيد الكاتب" في رسالة بالبريد الإلكتروني، بتاريخ: (١٠ أكتوبر ٢٠٢٣م، ٢٥ ربيع أول ١٤٤٥هـ) راجياً ان أقوم على نشرها ضمن سلسلة إصدارات المركز، فتم له ذلك وهي بين أيدكم ضمن السلسلة، برقم/٥٦.

والله ولي التوفيق.

ماجد التركي - رئيس المركز





تقديم الكتاب:

هذا الكتاب **«سمرقند وبخارا كى خونيں سرگذشت»** أي: «**أيام دامية في بخارى وسمرقند**» عبارة عن مذكرات لجدي الأستاذ **أعظم هاشمي التركستاني** - رحمه الله، كتبها قبل وفاته بأربع سنوات تقريبا بعد إلحاح وإصرار شديدين من أحبائه وأصدقائه. ولعله من أهم أعماله العلمية التي قام بها؛ فقد أثّر هذا الكتاب تأثيرا قويا على توعية المجتمع الباكستاني ضد الاشتراكيين ومخططاتهم في سبعينات وثمانينيات القرن العشرين. وبالرغم أنه كتب عن رحلة هجرته مرارا منذ أن خرج من بلاده في يوميّاته، وفي بعض مقالاته، ورسائله المتبادلة بينه وبين أحبائه ومقرّبيه وأصدقائه داخل باكستان وخارجها[1]، إلا أنها لم تكن بهذه الصورة الشاملة.

نُشرت مذكراته أولا في مجلة شهرية «أردو دايجَسْت» الباكستانية (المجلة الأدبية الأردية) في خمس حلقات بين فترة ١٩٦٩-١٩٧٠م، وتناقلتها المجلات والصحف المحلية الأخرى، ثم طبعت بشكل كتاب مستقل، وتُرجم إلى سبع لغات حتى الآن.

ها أنا الآن أتشرف بتقديم هذا الكتاب التاريخي مترجما بلغة الضاد. وقام أخي الأستاذ أنس شودهري بترجمة جزء كبير منه، وقمت بترجمة البقية، وصححت ونمقت ما احتاج إلى التصحيح والتنميق، وأضفت إليه ما يلزم من تعليقات وإيضاحات، وجعلت كلامي بين القوسين المعكوفين [ ] عند أي إضافة في صلب الكتاب. كما حرصت

---

(١) لقد رأيت دفاتر يومياته الخاصة التي كُتبت بين فترة ١٩٤٠-١٩٦٠م، ووجدت فيها ذكر هذه الرحلة وبعض تفاصيلها في مواضيع عديدة مرارا وتكرارا. وكان من عادته أن يكتب يومياته بشكل مستمر، حتى إنه كان يحتفظ بنسخة عن كل رسالة يرسلها إلى محبيه وأصدقائه ومقربيه.



على تشكيل أسماء الأماكن والأشخاص، وصوّبت الأخطاء الواردة في المطبوع (الكتاب الأصل) بمراجعة الأصل (مبيضة المؤلف)، فلله الحمد، وله الشكر. وإني لأرجو الله أن أكون قد وُفقت فيما صنعت.

وإنني في هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بفائض الشكر وجزيل الامتنان إلى سعادة الدكتور **ماجد بن عبد العزيز التركي، رئيس مركز الإعلام *والدراسات* العربية الروسية بالرياض** على كريم تفضله بإصدار هذا الكتاب من مركزه، وحسن عنايته، وتواصله معي بشكل مستمر، فجزاه الله خيرا ووفقه وسدده.

كما أتقدم بالشكر الوافر للمترجم المشارك الأستاذ **أنس بن عبد الصمد شودهري** الذي بادر بالتواصل معي، واقترح علي بأن أشرف على هذا العمل. وقد كان حريصا على التواصل الدائم معي، متشوقا إلى إنجاز العمل. فشكر الله سعيه، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته.

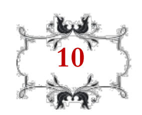
ويلزمني الوفاء أن أسجل شكري وتقديري لكل من أسدى إلي معروفاً، أو بذل معي جهدا، وساهم في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر أخي الوفي عبد الله يوسف العتيبي، ود. سامي الجار الله (من السعودية)، و سامي حسين (من ألمانيا)؛ لاهتمامهم وتشجيعهم، فأسأل الله أن يكتب أجرهم، وأن يجزيهم خير الجزاء.

أقدم هذا الكتاب إلى جميع المسلمين المعتزين بدينهم، المعظمين لرسولهم، راجيًا من الله عز وجل القبول، وهو جل وعلا من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حفيد المؤلف/ كفاية الله هاشمي

١٢ / ربيع الآخر/ ١٤٤٥هـ

٢٧/ ١٠/ ٢٠٢٣م



حكاية الكتاب:
(كما رواها الحفيد في رسالته إلينا)

سعادة الأستاذ / د. ماجد التركي وفقه الله

رئيس مركز الإعلام والدراسات العربية – الروسية

المملكة العربية السعودية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

آمل أن تكون بخير، وأسأل الله لكم مزيدا من التوفيق والسداد، وبعد:

فأود إعلامكم بأنني كفاية الله هاشمي، باكستاني الجنسية من أصول تركستانية أوزبكية، قد ترجمت كتاب جدي الشيخ أعظم هاشمي التركستاني (ت: ١٣٩٣ هـ) رحمه الله من الأردية إلى العربية بالمشاركة.

والكتاب عنوانه: "أيام دامية في بخارى وسمرقند"، وهو عبارة عن مذكراته وقصة هجرته من بلاده تركستان إلى أفغانستان سنة ١٩٣١-١٩٣٢م إبان حكم ستالين في تركستان المسلمة.

وقد طبع هذا الكتاب أولاً في خمس حلقات في إحدى المجلات الباكستانية سنة ١٩٦٩م – ١٩٧٠م، ثم طبع مفردا أيضًا مرات عديدة. ولقد كان من أكثر الكتب انتشارا في ذاك الزمان، ومن أكثر الكتب تأثيرا في تكوين وعي المجتمع الباكستاني حول مفاهيم الاشتراكية ونظريتها، ويُعد وثيقة مهمة عن تاريخ مأساوي لمسلمي الاتحاد السوفيتي وخاصة لتركستان. ويومئ عنوان الكتاب بأنه حديث عن هاتين المدينتين، والأمر ليس كذلك، وإنما وضع مؤلفه رحمه الله لشهرتهما، وقلة معرفة الناس بمنطقة تركستان وتاريخها، وموقعها الجغرافي.

ونظرا لأهميته؛ فقد تُرجم الكتاب في أكثر من ست لغات، منها: التركية، والدَرية (الأفغانية)، والفارسية (الإيرانية)، والسندية، والأزبكية (وهي لغة المصنف)، والبنغالية. وتُرجم قبل فترة (في سنة ٢٠١٩ تحديدا) بالعربية أيضًا، واعتنى به الأخ م. منصور بخاري – وهو رجل من أهل المدينة النبوية من أصول تركستانية–، و قام بخدمة جليلة للكتاب، فجزاه الله خيرا، وتولى طباعة الكتاب بعد أن أخذ الإذن من عمي رحمه الله.

ومع ذلك لا يخلو العمل عن بعض الملاحظات الجديرة بالتوقف أمامها، منها:

١- أنه لم يطبع الكتاب مستقلا بالذات، بل انضم إليه قصصا أخرى وسماه: "تركستان – قصص الهجرة".

٢- لم يُوفّق في بعض التعليقات حيث لم يفهم السياق فهما صحيحا، وأطال أيضًا في بعضها.

٣- حذفَ المعتني بعض الأحداث المهمة، وجعل الكتاب مختصرا.

٤- وضع اسما وهميا للمترجم الأول على غلاف الكتاب.

٥- وجود ركاكة في الأسلوب وخلل في بعض مواضيع الكتاب..

٦- لم يفهم المترجم ولا المعتني بالكتاب بعض الكلمات فأُهملت، وفي جانب آخر أقحمت في نص الكتاب بعض الألفاظ التي لم تكن موجودة في المطبوع.

ولقد اتصل بي الأخ "أنس بن عبد الصمد شودهري" بنغلاديشي الجنسية – الذي ترجم الكتاب أولاً–، ورغب أن أكون مشرفا على العمل، فوافقت على ذلك، فبدأنا العمل من جديد، وقد شاركت معه في الترجمة، وصححتها، وراجعتها كاملة، وقابلتُ النص مع المبيضة بخط المؤلف وصححت بعض الأخطاء التي وقعت في المطبوع، وعلقتُ على بعض المواضيع المهمة أيضًا.

وأود الآن أن يُنشر الكتاب بحلّة جديدة ولائقة بمكانة الكتاب لما له من أهمية بالغة في توعية المسلمين عن تاريخ تركستان المسلمة.

ولا أريد من ذلك ربحا ماديا أبدا، فإنما الهدف هو إعلام المسلمين اليوم عما جرى في تركستان وأهلها في تلك الحقبة، والله المستعان.

والكتاب يقع في نحو (١٠٠) صفحة على مقاس (A4)، وأرسلكم الآن نموذجا منه للاطلاع عليه، وإبداء الرأي فيه.

ولي استفسار آخر بخصوص أحد إصداراتكم بعنوان: "نظير توريا كولوف – صانع تاريخ تركستان"، فلعلكم تفيدني في كيفية الحصول عليه، فإني أريد أن أطلع على أحواله. وقد مرّ علي ذكر هذا الرجل في مذكرات جدي (غير المنشورة) لما كان مقيماً في الهند، ونظير تورياكولوف كان سفيراً لدى المملكة العربية السعودية آنذاك.

أشكركم مقدما على اهتمامكم وتعاونكم، وأنتظر ردكم، وجزاكم الله خيرا.

المخلص

كفاية الله الهاشمي



الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني – رمز الكفاح والثبات

بلاد تُركِستان (بلاد الأتراك) هي اسم لتلك الأرض التي تمتدّ من بحر قزوين (أو بحر جرجان) في الغرب إلى جبال اَلْتاي في الشرق، ومن خراسان وصحراء قَرَه قُوم في الجنوب الغربي إلى جبال أُورال و سَيبيريا في الشمال والشمال الشرقي. وتقع وسط قارة آسيا، وتحدّها شمالا سيبيريا ومنغوليا، وجنوبا أفغانستان وكشمير والتبت، وشرقا الصين، وغربا إيران وبحر قزوين. وتنقسم إلى قسمين: التركستان الشرقية (أو الصينية)، والتركستان الغربية (أو الروسية، والسوفيتية). ومن أهم مدنها: بخارى، وسمرقند، وتِرمِذ، والشاش، وأوش، وخُجَنْدَة، وخوقَند، وخِيوة، وكاشْغَر، وخُتَن.

وبلاد التركستان الغربية هي التي أطلق عليها المؤرخون العرب المسلمون اسم: «بلاد ما وراء النهر»، أي: ما وراء نهر جَيحون (آمو دَرْيا)، وهي الأراضي الممتدة بين نهري جَيْحون وسَيْحون (وكان بعضهم يطلقونه على بلاد تركستان كلها). بينما أطلق اسم «بلاد ما دون النهر» على ولاية خراسان.

ومن أقاليم تركستان الغربية المشهورة: إقليم «وادي فرغانة»، وكانت مدينة «أنديجان» عاصمته، وهي مدينة قديمة مشهورة تاريخية، تقع في الضفة اليسرى لنهر سَيحون الأعلى (سَير دَرْيا). وهي الآن عاصمة المقاطعة التي باسمها في جمهورية أوزبكستان.

وفي إحدى قرى مدينة «أنديجان» العريقة ولد مؤلف هذا الكتاب الأستاذ «أعظم خان»، الذي اشتهر بـ«أعظم هاشمي التركستاني» عام ١٩١٥م، وهاجر منها في ريع شبابه متخفيا وهاربا بدينه، مهاجراً إلى ربه، متوجّهاً إلى أفغانستان عام ١٩٣١م. فأقام مدة يسيرة هناك، ثم توجّه إلى شبه القارة الهندية عام ١٩٣٢م (وكانت تحت الاستعمار

البريطاني آنذاك)، وأقام بمدينة دهلي، والتحق أولا ببعض الجامعات الشرعية، وأكمل بها دراسته النظامية. وأتقن اللغة الأردية أيضا في تلك الفترة.

وكان في الهند البريطاني كثير من أبناء وطنه الذين هاجروا من بلادهم، فمنهم من كان يدرس ويدرّس في بعض الجامعات الدينية، ومنهم من كان مشغولا بأعمال التجارة، ومنهم من كان مقيما مؤقتا عازماً على قصد الحجاز أو بلدان أخرى. لم تكن هناك أي علاقة ترابط بينهم. ولقد شعر بذلك الأستاذ هاشمي وبعض زملائه؛ فاجتمعوا في مدينة دهلي، وكوّنوا جمعية أطلقوا عليها اسم «أنجمن مُظهر الإسلام» (جمعية مُظهر الإسلام) رغبةً في محاولة حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تواجه المهاجرون، إلا أن الجمعية كانت ذات النطاق المحدود، والتأثير المحدود. ففي عام ١٩٣٤م اجتمع كبار القوم، واتفقوا على وضع الخطة المتكاملة والأهداف المعينة المرجو بلوغها، وتمّ تأسيس جمعية جديدة باسم ««**بخارا وتركستان مهاجر لر برليگى مركزى**» (الجمعية المركزية لمهاجري بخارى وتركستان) لإبراز قضية تركستان، وإخبار العالم بما يجري في بلادهم، وما يلاقي المسلمون بأنواع من العذاب هناك. واتُخذت مدينة دهلي مقرا لهذه الجمعية، وافتتحت فروعا لها في مدن الهند الكبيرة.

قامت هذه الجمعية المركزية بالأعمال الخيرية والاجتماعية لرفع مستوى المهاجرين ثقافيا واجتماعيا، كما قامت بإنشاء مدرسة لتعليم الأطفال مجانًا، و فتح ملجأ للمهاجرين، واستضافة القادمين إلى الهند والقادمين منها إلى بلدان أخرى، وإنشاء مطبعة خاصة لنشر إصدارات الجمعية والكتب والنشرات المهمة، وبتدريب المهاجرين على مجموعة من المهن المختلفة. بينما تولى بعض أركانها بكتابة المقالات في الجرائد والصحف المحلية، وفي الصحف والمجلات التي كانت تصدرها جمعيات تركستانية خارج الهند مثلا

في فرنسا، وألمانيا، واليابان، وتركيا. كما قام أعضاؤها بالتواصل مع زعماء المسلمين الهنود وتوعيتهم بقضايا المهاجرين، وبيان مناقضة الشيوعية للإسلام، وجرائم الشيوعيين بحق المسلمين.

أقام الأستاذ هاشمي في مدينة بومباي (مومباي الآن) في تلك الفترة حيث عُين مسؤولا لفرع الجمعية هناك. ثم عاد إلى مدينة دهلي لما انتخب السكرتير العام للجمعية المركزية عام ١٩٣٨م، فبادر بإصدار مجلة علمية شهرية باسم «تَرجُمان»، مقسمة إلى ثلاثة أقسام (قسم باللغة الأردية، وقسم بالتركستانية، وقسم بالفارسية). وكانت هذه المجلة تهتم بإبراز قضية تركستان المسلمة، وأحوال المهاجرين التركستانيين بالهند. وقد ساهمت كثيرا في توعية المجتمع الهندي، وقدّمت عملا مهما في فترة محدودة. استمرت هذه المجلة إلى عام ١٩٤٠م، ثم توقفت بسبب أحداث الحرب العالمية الثانية.

وطيلة هذه الفترة لم يتوقف الأستاذ هاشمي بكتابة مقالات وأبحاث بالأردية وتراجم نصوص تركستانية في المجلات الهندية المحلية رغم الصعوبات العديدة. فلقد كتب عن تاريخ تركستان، وأوضاع المسلمين فيها، كما أنه كتب عن أسس النظام الاشتراكي وقام بنقدها نقدا علميا، وشؤون المهاجرين التركستانيين في مختلف البلدان الإسلامية وأسباب هجرتهم من بلادهم، وأحوال بلاد تركستان بعد الغزو الاشتراكي السوفيتي.

وفي عام ١٩٤١م تشكلت جميعة جديدة لمهاجري التركستان باسم **«تركستان ترك مهاجر لر بِرليگي»** (جمعية المهاجرين التركستانيين)، وانتخب الأستاذ هاشمي أمينا عاما لها مرة أخرى، فطاف بلاد الهند، والتقى بالمهاجرين الساكنين في مناطق مختلفة، واطلع على أحوالهم، وحاول جمع شتاتهم، ولمّ شعثهم، وتوحيد قبائلهم وكلمتهم، وانضمامهم تحت لواء واحد حول قضية واحدة.

ثم انقسمت بلاد الهند وتحررت من الا ستعمار البريطاني عام ١٩٤٧م، وانفصلت دولة باكستان عنها على أساس ديني، فوقعت اضطرابات محلية بين المسلمين والهندوس مما أدى إلى نشوب صراعات دموية ومذابح وتهجير بين الطرفين. وفي ذلك الوقت هاجر الأستاذ هاشمي مرة أخرى إلى دولة جديدة باكستان الإسلامية مع أسرته المكونة آنذاك من ٣ أفراد، واستقر بمدينة كراتشي الباكستانية. كان متزوجًا من سيدة فاضلة عام ١٩٤٤م بالهند، وأنجب منها ذكورا وإناثا.

استأنف جهوده السابقة بكراتشي بنشاط جديد وهمة قعساء، فاجتمع مع زعماء المهاجرين المقيمين هناك، وتشكّلت "**تركستان ترك مهاجر لر بِرليگي**" (جمعية المهاجرين التركستانيين) عام ١٩٤٨م بمدينة كراتشي لتنظيم صفوف المهاجرين مجددا. تقلد الأستاذ هاشمي منصب الأمين العام للجمعية، وأعلى شأنها بهمته وعزيمته الماضية. وكانت هذه الجمعية بمثابة ضابط اتصال بجميع المهاجرين وحل قضاياهم، وقضاء حوائجهم حسب الإمكانيات المتاحة لديها، ومدّ يد العون والمساعدة للأرامل والأيتام والمحتاجين منهم، وإيواء بعضهم في ملجأ الجمعية. ولشهرة الأستاذ هاشمي وحسن إدارته انتخب رئيسا لها في أواخر حياته.

وفي مطلع عام ١٩٥١م أسس مجلة علمية شهرية «تَرجُمان» بقسمي الأردية والتركستانية، لكنها توقفت عن الصدور في آخر العام. وفي عام ١٩٥٢م أصدر مجلة علمية أخرى باسم «ترجمانِ أفكار» (ترجمانُ الأفكار) باللغة التركستانية. ثم أصدر قِسماً مستقلا باللغة الأردية للقراء الباكستانيين عام ١٩٥٤م. وكان جلّ اهتمام المجلة بالقضية التركستانية، وشؤون المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ونشر الأخبار المهاجرين وأنشطتهم إلى جانب اهتمامها بشؤون اللاجئين في باكستان، والأبحاث السياسية العامة

والاجتماعية، والثقافية والدينية والتاريخية. لقد أدّت المجلة دوراً فاعلاً في الأوساط الثقافية في فترة الخمسينات، ونجحت بسرعة نجاحًا باهرا في تحقيق أهدافها، وتوسيع نطاق شهرتها بين التركستانيين. كان يكتب فيها كبار الكتّاب والمثقفين التركستانيين من السعودية، وتركيا، وألمانيا، ومصر آنذاك، ولاقت حال صدورها رواجًا وطنيا بين التركستانيين داخل باكستان وخارجها، ولاقت اهتمامًا في الأوساط الأجنبية التي أُرسلت إليها. استمرت هذه المجلة من عام ١٩٥٢م إلى عام ١٩٥٩م.

علاوة على ذلك، فقد أسس معها مكتبة «نشريات ترجمان أفكار» (دار ترجمان الأفكار للنشر) لطباعة الكتب الدينية، والعلمية، والتاريخية، والتربوية للجالية التركستانية في أنحاء العالم الإسلامي. وقد تولى ترجمة وطباعة كتب كثيرة باللغة التركستانية، منها:

١- طباعة بعض أجزاء وسور القرآن الكريم مع ترجمتها وتفسيرها باللغة التركستانية.
٢- طباعة رياض الصالحين للإمام النووي رحمه الله في أربع مجلدات (مترجمًا بالتركستانية).
٣- طباعة كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب (مترجما بالتركستانية).
٤- طباعة مختصر الشمائل المحمدية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) للإمام الترمذي (مترجمًا بالتركستانية).
٥- طباعة متن الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة رحمه الله (مترجمًا بالتركستانية).
٦- طباعة بعض الكتب الفقهية المترجمة باللغة التركستانية.

٧- طباعة بعض كتب الشعر والأدب التركستاني.

٨- طباعة بعض الكتب التربوية والمدرسية لتعليم اللغة التركستانية.

وفي عام ١٩٥٢م التحق الأستاذ هاشمي بالعمل في قسم اللغة الفارسية بإذاعة باكستان الوطنية بصفة مقدّم البرامج، ومذيع الأخبار، وساهم أيضا في إنشاء القسم التركستاني بها، واستطاع من خلال عمله أن يوصل رسالته إلى قلوب المحيطين به وفق وصية أمه العزيزة. ويُذكر أنه كان ملتزما جدا ومنضبطا في مواعيده. وظلّ يعمل في الإذاعة حتى وفاته.

كان الأستاذ هاشمي في نشاط مستمر لخدمة الإسلام والمسلمين. فقد كان خطيبا للجمعة في مسجد قريب من بيته، وعمل مدرسا، ومعلما، ومربيا للكبار والصغار. وعمل عضوا في عدد من اللجان والجمعيات داخل باكستان وخارجها، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات، كما استضاف في مقرّه الكثير من الوفود وزعماء الأتراك وأدباءهم، ومثقفيهم، وعلمائهم. **إضافة إلى ذلك:**

- فقد كان عضوا للهيئة التنفيذية للجمعية العربية العامة في باكستان.
- عُقدت الدورة الرابعة لمؤتمر العالم الإسلامي بمدينة كراتشي في فبراير عام ١٩٥١م بدعوة من جمعية الإخاء الإسلامي الباكستانية، وحضره ممثلون عن ٤٥ دولة عربية وإسلامية. حضره الأستاذ هاشمي أيضا مع زميله بصفة الممثل لشعب تركستان الغربية من قِبل الجمعية التركستانية، وتم تعيينه ممثلا للمؤتمر في لجنته المختصة بالقضية التركستانية.
- وعمل عضوا في مجلس الشورى لمؤتمر العالم الإسلامي -فرع باكستان-.
- وعمل عضوا في لجنة الوحدة القوميّة التركستانية بألمانيا.



كتب الأستاذ هاشمي مقالات كثيرة في أربع لغات (الفارسية، والعربية، والتركستانية، والأردية) داخل باكستان وخارجها، وترجم العديد من الكتب والرسائل والأبحاث المهمة خلال أربعين عاما في المهجر. وقد جرت محاولة اغتيال المؤلف من قِبل بعض الاشتراكيين المتطرفين أثناء نشر هذا الكتاب، إلا أن الله سبحانه حماه وحفظه، وأصيب ببعض الجروح، وتحسنت صحته بعد فترة.

لقد عاش الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني حياةً حافلة بالنشاط الواسع في خدمة دينه ووطنه، مليئة بالجدّ، والعمل، والاجتهاد، والإنجازات. ولقي أجله المحتوم الذي قدّره الله تعالى، وانتقل إلى رحمة الله في غرّة شهر رجب ١٣٩٣ هـ/٣٠ يوليو ١٩٧٣م بمدينة كراتشي– باكستان، ودفن بها. رحمه الله وغفر له.

كتب عنه أصدقاؤه وزملاؤه بعد وفاته رثاء شعرا ونثرا، وأشادوا إلى بعض ما يستحق، وما خلف من مآثر حسنة، وصفات رفيعة. يقول قاسم أمين التركستاني: «كان شعلة من النشاط، وقاد الذهن، بشاش المحيا، وجميل المنظر والمخبر، عالما بعلوم الدين واللغة العربية».

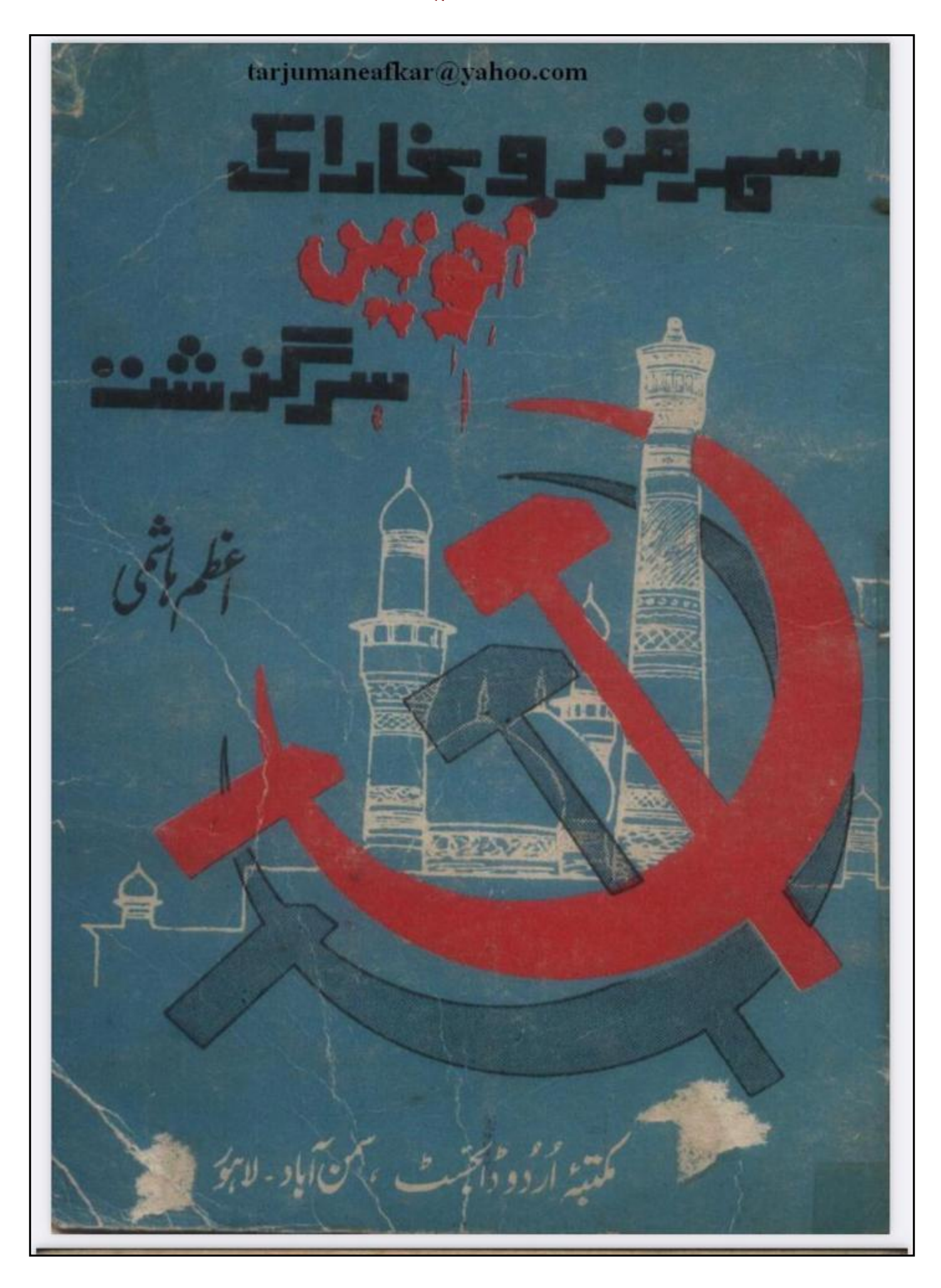
فرحم الله الأستاذ هاشمي، وأسكنه فسيح جناته، وتقبل منه كل أعماله وجهوده بقبول حسن، وبارك في ذريته، إنه سميع مجيب.

حفيد المؤلف:

كفاية الله بن جارالله بن أعظم هاشمي التركستاني



(صورة الغلاف الخارجي للكتاب الأصل)



(صورة الغلاف الداخلي للكتاب الأصل)

سمرقند و بخارا کی خونیں سرگزشت

هدية من كفايت الله الهاشمي باكستان (حفيد المؤلف) عفي عنه

هذه قصة الهجرة من تركستان للشيخ أعظم الهاشمي بالأردية

tarjumaneafkar@yahoo.com

اعظم ہاشمی

مکتبہ اُردو ڈائجسٹ، سمن آباد، لاہور



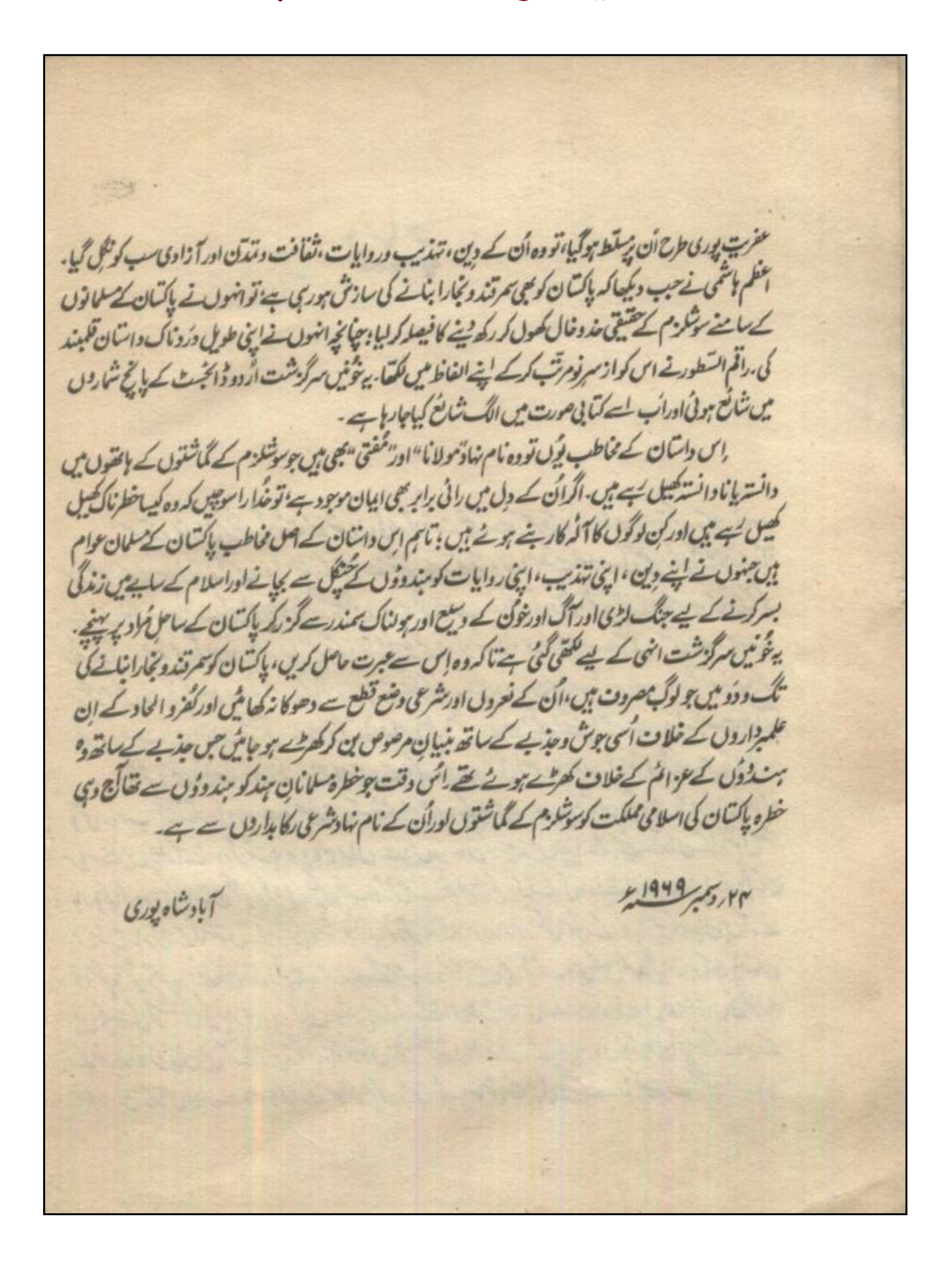
(الصفحة الأولى من مقدمة الكتاب الأصل)

دیباچہ

سمرقند و بخارا کی زیرِ نظر سرگزشت، دو شہروں کی سرگزشت نہیں ہے۔ "سمرقند و بخارا" سے مُراد ترکستان کی وہ سرزمین ہے جو اسلامی تاریخ میں ماوراء النہر کے نام سے مشہور ہے۔ "سمرقند و بخارا" ملّتِ اسلامیہ کی عظیم الشان تاریخ کا زرّیں باب ہے۔ اِس خاک سے اُمّت کی بڑی بڑی نامور شخصیتیں پیدا ہوئیں جنہوں نے اُس کی دینی، علمی، تہذیبی اور سیاسی تاریخ کو رنگ و آب دینے میں گراں قدر حصّہ لیا۔ "سمرقند و بخارا کی خونیں سرگزشت" اسی سرزمین سے تعلّق رکھتی ہے۔ جب سوشلزم اِس علاقے پر مسلّط ہوا، تو اس پر کیا گزری؟ زیرِ نظر کتاب اسی داستان کا ایک مختصر باب ہے۔ مختصر باب اِس لیے کہ یہ صرف ان واقعات پر مشتمل ہے جو ترکستانی مہاجر اعظم ہاشمی نے خود دیکھے، سُنے یا جن سے وہ براہِ راست دوچار ہوئے۔

اعظم ہاشمی اُن ہزاروں تُرک مہاجرین میں سے ایک ہیں جو تُرکی، سعودی عرب اور مغربی یُورپ میں آباد ہیں۔ ہاشمی صاحب افغانستان کی راہ سے برِّصغیر میں آئے اور پھر یہیں کے ہو رہے۔ جب پاکستان وجُود میں آیا، تو اِس اسلامی ریاست میں چلے آئے۔ وہ گزشتہ ۳۶، ۳۷ سال سے اِس داستان کو سینے میں چھپائے بیٹھے تھے! ان کے دوستوں نے بارہا کہا کہ وہ اپنی داستان قلمبند کر دیں، لیکن قلب و رُوح کے زخم کھول کر دکھانے کی وہ اپنے اندر ہمّت نہ پاتے۔ پاکستان میں سُرخ سامراج کے گماشتوں نے سوشلزم کا شور بلند کیا اور کچھ نام نہاد "مولانا" اور "مُفتی" اُن کے رکاب دار بن کر میدان میں آئے، تو اعظم ہاشمی تڑپ اُٹھے۔ اُن کے زخم جیسے تازہ ہو گئے۔ سمرقند و بخارا میں بھی ٹھیک وہی کھیل کھیلا گیا تھا جو آج پاکستان میں کھیلنے کی کوشش کی جا رہی ہے۔ وہاں سوشلزم کے گماشتے اسی طرح معاشی مساوات اور غریبوں اور مزدوروں کی غمخواری کے نعرے لگا کر میدان میں آئے اور چند نام نہاد "مُلّاؤں" اور "مُفتیوں" نے اُن کے رکابداروں کا کردار ادا کیا۔ ترکستان کے مسلمان اُن کے اِس کردار سے دھوکا کھا گئے۔ سوشلزم کو وہ محض ایک معاشی نظام کی حیثیت سے دیکھنے لگے، لیکن جب یہ

(الصفحة الثانية من مقدمة الكتاب - الأصل)



عفریت پوری طرح اُن پر مسلط ہوگیا، تو وہ اُن کے دین، تہذیب وروایات، ثقافت وتمدن اور آزادی سب کو نگل گیا۔
اعظم ہاشمی نے جب دیکھا کہ پاکستان کو بھی سمرقند وبخارا بنانے کی سازش ہو رہی ہے، تو انہوں نے پاکستان کے مسلمانوں کے سامنے سوشلزم کے حقیقی خدوخال کھول کر رکھ دینے کا فیصلہ کر لیا؛ چنانچہ انہوں نے اپنی طویل دردناک داستان قلمبند کی۔ راقم السطور نے اس کو از سرِ نو مرتب کر کے اپنے الفاظ میں لکھا۔ یہ خونیں سرگزشت اُردو ڈائجسٹ کے پانچ شماروں میں شائع ہوئی اور اب اسے کتابی صورت میں الگ شائع کیا جا رہا ہے۔

اِس داستان کے مخاطب یوں تو وہ نام نہاد "مولانا" اور "مفتی" بھی ہیں جو سوشلزم کے گماشتوں کے ہاتھوں میں دانستہ یا نادانستہ کھیل رہے ہیں۔ اگر اُن کے دِل میں رائی برابر بھی ایمان موجود ہے، تو خُدارا سوچیں کہ وہ کیسا خطرناک کھیل کھیل رہے ہیں اور کِن لوگوں کا آلۂ کار بنے ہوئے ہیں؛ تاہم اِس داستان کے اصل مخاطب پاکستان کے مسلمان عوام ہیں جنہوں نے اپنے دین، اپنی تہذیب، اپنی روایات کو ہندوؤں کے چنگل سے بچانے اور اسلام کے سایے میں زندگی بسر کرنے کے لیے جنگ لڑی اور آگ اور خون کے وسیع اور ہولناک سمندر سے گزر کر پاکستان کے ساحلِ مُراد پر پہنچے۔
یہ خونیں سرگزشت انہی کے لیے لکھی گئی ہے تاکہ وہ اِس سے عبرت حاصل کریں، پاکستان کو سمرقند وبخارا بنانے کی تگ ودو میں جو لوگ مصروف ہیں، اُن کے نعروں اور شرعی وضع قطع سے دھوکا نہ کھائیں اور کفر والحاد کے اِن علمبرداروں کے خلاف اُسی جوش وجذبے کے ساتھ بنیانِ مرصوص بن کر کھڑے ہو جائیں جس جذبے کے ساتھ وہ ہندوؤں کے عزائم کے خلاف کھڑے ہوئے تھے۔ اُس وقت جو خطرہ مسلمانانِ ہند کو ہندوؤں سے تھا آج وہی خطرہ پاکستان کی اسلامی مملکت کو سوشلزم کے گماشتوں اور اُن کے نام نہاد شرعی رکابداروں سے ہے۔

۲۴ر دسمبر ۱۹۶۹ء

آباد شاہ پوری

(الصفحة الأخيرة من الكتاب الأصل)

درختوں کا ایک جھنڈ نظر آیا، دولت آغا درختوں کے سائے میں بیٹھے تھے، ان کے ساتھ دو آدمی اور تھے۔ ایک بوڑھے ترکستانی عالم اور دوسرے ایک ترکمن نوجوان، شاید دولت آغا کا عزیز تھا۔ بزرگ بڑی شفقت سے ملے۔

کھانے سے فارغ ہو کر دولت آغا نے مجھ سے مخاطب ہو کر کہا: "یہ بزرگ بخاری استاذ بھی تمہارے ساتھ ہجرت کریں گے۔ آپ لوگوں کے ساتھ دو ترکمن جائیں گے۔ ایک گدھے پر بزرگ سوار ہوں گے اور دوسرے پر آپ۔ ان ترکمنوں میں سے ایک امیر ہوگا اور اُس کی رہنمائی میں سفر کرنا ہوگا، قافلہ رات گئے روانہ ہوگا، دارالاسلام پہنچ جائیں، تو اس سرائے کے حق میں دُعا کرنا۔"

وقت مقررہ پر قافلہ روانہ ہوگیا۔ نوجوان ترکمن نے سفر کی ہدایات جاری کر دیں۔ دونوں ترکمن نوجوان رائفلوں سے مسلح تھے۔ ہم لوگ ایک دوسرے سے الگ خاصے فاصلے پر سفر کرتے رہے۔ ایک ترکمن آگے آگے تھا اور دوسرا پیچھے۔ کاروانی راستے سے ذرا ہٹ کر ہم رات بھر سفر کرتے رہتے اور دن بھر جھاڑیوں میں چھپ کر پڑ رہتے۔ راستے میں دو مرتبہ رُوسی فوجی نظر آئے، لیکن اللہ نے ہمیں ان کی دستبرد سے بچائے رکھا۔ اب ہم سرحد کے بالکل قریب پہنچ چکے تھے۔ ہمارے امیر نے پھر ہدایات جاری کیں۔ ہمیں ایک ایسے مقام سے سرحد پار کرنا تھی جہاں دُور دُور تک چھوٹی چھوٹی جھاڑیاں پھیلی ہوئی تھیں اور زمین سخت ناہموار، ریتیلی اور حشرات الارض سے پٹی ہوئی تھی۔

صبحِ صادق طلوع ہو رہی تھی کہ ہم نے سرحد پار کر کے دارالاسلام افغانستان میں قدم رکھا۔ مارے خوشی کے میں تو دیوانہ ہوگیا۔ جھاڑیوں ہی میں سجدے میں گر پڑا اور زبان پر حمد و ثنا جاری ہوگئی۔ سجدۂ شکر ادا کر کے اُٹھا، تو بے اختیار پکارا: "دارالاسلام، تیری مٹی میرے لیے خاکِ شفا اور سرمۂ صفا ہے، اے ملّتِ افغان، تو خوش بخت ہے، سعادت مند ہے، تجھے اللہ کی عظیم نعمت حاصل ہے، آزادی اور اسلام کی نعمت، تجھے شاید اس کی قدر و قیمت معلوم نہ ہو، اس نعمت کی قدر تو ہم جانتے ہیں، اللہ تجھے تا قیامت اس نعمتِ عظمیٰ سے محروم نہ کرے۔"

سمرقند و بخارا کی خُونیں سرگزشت یہاں ختم ہو جاتی ہے۔ آگے میری اپنی داستانِ حیات چلتی ہے۔ اندخوئی (سرحدی شہر) کے کمشنر نے مجھے واپس بھیجنا چاہا، مگر شہر کے مسلمان میری حمایت میں اُٹھ کھڑے ہوئے اور اسے اپنا فیصلہ منسوخ کرنا پڑا۔ اندخوئی سے گوناگوں مشکلات سے گزرتا ہوا ہرات پہنچا، وہاں مولانا جامی کے مزار پر حاضری دی، والدہ ماجدہ کی نصیحت کے مطابق قرآن مجید کی جلد پھاڑنے کی کوشش کی، مگر وہ بڑی سخت تھی، آخر ایک طالب علم سے تیشہ لے کر آیا اور جب اس سے جلد کے ٹکڑے کیے تو ششدر رہ گیا، پوری جلد میں امی جان نے اشرفیاں بھر دی تھیں! ان اشرفیوں سے غریب الوطنی میں بڑے کام نکلے اور برِصغیر پاکستان و ہند پہنچ کر انہی کے سہارے دینی تعلیم پوری کی۔ ■■

(إليكم الرواية، بلا عناوين: سردية حياة[(١)])

إن نسيت لا أنسى تلك الليلة، مضى عليها ثمانية وثلاثون عاماً[(٢)]، إلا أنني أتذكر تماماً تفاصيلها، فلم ينقص مرّ الأيام والليالي من ذكرياتها شيئاً. وفي بعض الأحيان أشعر كأن أمي واقفة لدى الباب تودعني قائلة: بني.. حفظك الله وسلمك.. لا تنسَ ما نصحتك به، وإلا لن أرضى عنك!

هذه ذكرى عام ١٩٣١م، وكان اليوم من أواخر أيام فبراير أو أوائل شهر مارس. كنت نائماً على سريري في غرفتي حتى جاءت أمي وأيقظتني في هدوء؛ فاستيقظت وجلست على السرير وقد أدركت القضية كلها!

قالت أمي: «بُني...قُم وتوضأ!».

ثم بدأت تملأ الكوز بالماء، فتوضأت بعد قضاء الحاجة، وتوضأت أمي أيضًا، فقمنا إلى الصلاة وأدينا ركعتين. لقد حانت تلك اللحظة التي كنا نتشاور أنا وأمي فيها منذ أيام.

قرأت أمي أورادها، وقرأتُ الرقى ونفخت على جسدي، وهي ذهبت إلى المطبخ. بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين دخلتْ تحمل السفرة وفي يدها الأخرى الكباب المشوي، فأطعمتني بيدها واحدة حتى فرغت من تناول طعامي، ثم قالت لي: «قطعة قلبي.. قم وانظر للمرة الأخيرة إلى إخوتك وأخواتك الصغار الأبرياء وهم أحياء».

---

(١) وضعت هذه العبارة في مطلع الرواية لإيضاح طبيعتها للقارئ الكريم ـ ماجد التركي.

(٢) كُتبت هذه المذكرات في سنة ١٩٦٩م باللغة الأردية.



فاقتربت من أسرتهم مقبلاً عليهم، هؤلاء صغار السن المعصومين نائمين، بعيدين عن العالم وأحداثه، ودماء العصمة والعفة تسير في وجوههم، فوضعت يدي على نواصيهم، ودعوت الله لهم بالخير والسلامة.

كان ذلك الموقف موقف صبر شديد، والحنان يدفعني نحوهم، وتهزني الشفقة بشدة. راودتني فكرة ألا أتمكن من رؤيتهم مرة أخرى فسالت عيناي بالدموع، وحاولت منعها فلم أقدر.

كانت أمي في الخامسة والستين من عمرها، إلا أنها كانت أشد عزيمة وإرادة من الشباب. نظرت إلي أمي بطرف عينيها برهة من الزمن، ثم قالت: «تعال يا ولدي». وكان في صوتها اضطراب، كأنها تحاول إسكان عواطفها ومشاعرها. ثم أخذت بيدها فراشاً صغيراً بسيطاً، وبدأت تمشي فاتبعتها حتى وصلنا فناء البيت، ثم توجهنا نحو الحديقة، وفتحنا بابها ودخلنا. كنا واقفين تحت السماء الزرقاء والأشجار الخضراء المتنوعة، فقبلتني على جبهتي، وقالت: «إنك القائم على أموري في آخر عمري الضعيف، وإنك موضع آمالي وأمنياتي، لكن كما ترى لا تستطيع القيام بخدمتي مقيماً في هذه البلاد العزيزة، وأنت على إسلامك وإيمانك!

الآن آذن لك أن تهاجر إلى بلاد حرّة من أجل الحفاظ على دينك وإيمانك، لكن بشرط! وهو أن تنشر أخبار ما أمكن عن مسلمي تركستان وضعف حالهم ومصائبهم وشدائدهم، وما يحدث هنا من إهانة دينهم وتحقير عقائدهم وتعاليمهم، وأن تبلغها بقدر الإمكان إلى جميع المسلمين في العالم، وإلى الأمم والشعوب الحرة الأخرى. اسمع يا بني.. ما أرضعتك يوماً قط إلا وتوضأت قبله. فإن نسيت وغفلت عما طلبته منك ونصحتك فلن أرضى عنك أبداً، وإن من كرامة الإنسان وشرفه أن يحافظ على قوله

وإرادته، وألا يغفل عن قراراته».

ثم أعطتني ذلك الفراش الصغير، ووزنه لا يزيد عن ثلاثة كيلو غرامات، وبدأت تقول: «حافظ عليه، واعتن بما فيه من المصحف الشريف بوجه خاص، ثم إن وصلت إلى غايتك؛ انزع جلده واجعل له جلداً قشيباً جديداً، واخلع جلده القديم بيدك، ثم احرقه وفرق. وتنبه يا ولدي.. لا يلهينّك شيء عن وطنك الذي ولدت فيه، ولا تغفل عنه أبداً، ولا تنس فضل المشفقين عليك ولا رحمتهم وكرمهم، واعلم أن الذين هم أعداء ربك واحتلوا بلادك، ليسوا أصدقاءك ولا ناصحين لك. والإنسان الضعيف الجبان لا يصل إلى غايته، وأما الموت فآت، اليوم أو غداً، والإيمان أغلى وأثمن ما يملكه المرء. والرجال لا ينزلون عن إرادتهم وعزيمتهم، والرجل القوي لا ينزل عن قراراته وإرادته، فالذي يتساهل ويتسامح في هذه الأمور تافه لا شأن له».

كانت أمي تنصحني لمدة طويلة، وكانت الساعة الثالثة أو الثالثة والربع تقريباً، وكنا أحياناً نسمع صوت الديك، وكانت أضواء القمر تضعف، وظلال الأشجار تتمدد طولاً. خرجنا من الحديقة، ومررنا على حائط الدار ووقفنا عنده، فرفعت أمي يديها تدعو الله، ثم مسحت على رأسي بيديها الطاهرتين الزكيتين، شفقة وحناناً، وقالت وهي تحرك بيدها كتفي: "امض يا ولدي، الله معك وهو ناصرك!".

نظرتُ النظرة الأخيرة إلى حديقتنا وبيتنا، تلك الحديقة .... كم غرست بيدي من صغار الأشجار، وسقيتُها دماً وعرقاً...ذلك البيت ولدت فيه، ونشأت وترعرعت في رحابه، ذلك هو البيت الذي يحمل ذكريات آبائي وأجدادي منذ قرون طويلة، وما من لبنة وحجر في هذا البيت، إلا وله علاقة بالتاريخ الماضي وأحداثه وقصصه، وله صلة عميقة بأيام طفولتي وصباي.

استنشقت الهواء البارد وسلمت على أمي وتسلقت الحائط ونزلت على الأرض من الجهة الأخرى. كان بين حديقتنا وبين الشارع مقبرة، وكانت بيئتها مخيفة ومفزعة، فلما رأيت القبور الخربة المنكسرة، ورأيت التلول بعضها مرتفع والآخر منخفض، ملك قلبي الخوف والهلع، ورغم ذلك الخوف الشديد دخلت المقبرة، وكان في يدي تلك الهدية التي أعطتني إياها أمي، ومشيت قليلاً حتى فوجئت بصوت مفزع. فوليت مدبراً ورجعت إلى حديقتنا، فوجدت أمي مغمى عليها عند الحائط.

أسرعت بنضح الماء على وجهها، ففتحت عينيها، ولما رأتني لديها قالت متعجبة: "لم رجعت؟ لا تدنس غايتك النبيلة، إن الله يحفظنا ويحمينا، الله هو القادر القوي، والإيمان به يعد من أغلى الأشياء لدى كل ذي عالم به". خرجت مرة أخرى من الحديقة، وتوجهت نحو منزل وغاية مجهولة.

۞۞۞

لماذا تركتُ بيتي وخرجت من دراي في ظلمة الليل الحالكة خفية كما يخرج السارق؟ أين تجولت وبأي بلاد طفت؟ وما هي المصائب والبلايا التي حلت بي؟ قبل الإجابة على هذه الأسئلة، على أن أعود إلى الماضي قليلاً.

في «وادي فرغانة» (الذي يقال له «أوزبكستان» حالياً) محافظة تسمى: «أنديجان»، و«قايقي» قرية صغيرة تابعة لها. ولدت فيها عام ١٩١٥م. والدي هو «خوجة خان داملا» (وكلمة داملا تعني في اللغة التركستانية: فضيلة الشيخ أو العلّامة). وكان اسم جدي «الشيخ عزّت الله»، وجدي لأمي هو الشيخ «غياث الدين إيشان النَمَنْكاني». وكانوا يعدون من طلائع علماء عصرهم، فأما جدي لأمي فكان يلقب بـ«أستاذ العالم»، وكان تلاميذه قد انتشروا في أنحاء البلاد. وكان في سلسلة نسب والدي رجال علم ومعرفة،

وكان فيهم متصوّفة على الطريقة النقشبندية منذ أربع أجيال.

وأما سلسلة نسبي من جهة الأم فتتصل بسيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ، فأجدادي كانوا قد قدموا بلاد تركستان مع القائد الإسلامي «قتيبة بن مسلم الباهلي»[1] تبليغاً للدين ونشراً للإسلام وتعاليمه، ثم استوطنوا هذه البلاد.

ومنذ ذلك الزمان ولد في هذه الأسرة عدد كبير من العلماء والمشايخ الأفاضل. وكانت قبورهم باقية إلى الأيام التي هاجرت فيها. ولما أغارت الإمبراطورية الروسية «تَسار»[2] على تركستان وهجمتْ عليها[3]، كان جدي لأمي الشيخ «غياث الدين إيشان»، وخال أمي «باطور توره نمنكاني» في الصف الأول ممن دافع عن البلاد وقاتل الأعداء. ومن أجل هذه "الجريمة" كان جدي لأمي الشيخ غياث الدين تحت الإقامة الجبرية، وعلى هذه الحالة انتقل إلى رحمة الله تعالى.

(١) **قُتيبة بن مسلم الباهلي** (٤٩-٩٦هـ): أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء. ولي بلاد خراسان في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، وفتح بلاد ما وراء النهر، وفرغانة. ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٤١٠).

(٢) لقب لملوك روسيا، ومعناه «القيصر» بلغتهم.

(٣) استولت قوات الإمبراطورية الروسية على وادي فرغانة سنة ١٨٧٦م، واكتملت استيلاء روسيا على بلاد تركستان بوصول قوّاتها إلى هضبة بامير سنة ١٩٠٠م (١٣١٨هـ)، ومنذ ذلك الحين وُضعت بلاد تركستان تحت إدارة عسكرية روسية بينما احتُفظت إمارة بخارى وخانية خيوة باستقلال ذاتي تحت الحماية الروسية. **ينظر للمزيد**: التركستان: مساهمات وكفاح للدكتور محمد علي البار (صـ ١٥٥).

كان لي ثلاثة أخوال: «عبد الحميد خان توره»، و«محيي الدين خان توره»، و«عبد الرشيد خان توره». كانوا من الأتقياء، وأصحاب ورع وزهد، وكانوا مرجعاً للخواص والعوام من الناس. ومن الجدير بالذكر أن كلمة «خان» تطلق في بلاد تركستان إما على الأشراف أو على الملوك والسلاطين.

كانت أسرتنا كبيرة، وهي تتكون من أحد عشر أخاً وأختاً، وكنت أصغر من إخوتي الخمسة وأختين، وأسرتنا أسرة علمية، حتى إن نساءنا كن يجدن اللغة العربية والفارسية، وكانت أمي وأخواتها الأربع يعددن من العالمات البارعات في وقتهن. وكان معاشنا قائماً على الزراعة والتجارة، ولنا من الأراضي ١٢٤ فدّان[1]، نصفها في البر والنصف الآخر في النهر، حيث كانت فيها الحدائق والأشجار والأراضي الزراعية، كنا في رغد من العيش ونقضي أيامنا في هناء وسرور.

لا يمكن لأحد أن يغالط في فهم النظام الزراعي في بلاد تركستان، ففي الأغلب يكون المزارعون هم أصحاب الأراضي الزراعية على النقيض كما هي الحال في روسيا، حيث يعمل المزارعون الفقراء في الأراضي المملوكة للأغنياء وأصحاب الأموال. نعم كان هناك قليل من الكساد في الزراعة، إلا أن المزارعين لم يكونوا يُحرمون من حقوقهم، بل كانوا يحصلون على أجورهم كاملة. وأما الذين لا يمتلكون الأراضي الزراعية فنسبتهم قليلة جداً. فلم يكن في ديارنا إقطاعيون كبار كما في بلاد الهند وباكستان.

كانت أيام طفولتي في فترة الثورة، وقد استشهد خلالها أكثر رجال أسرتنا. وكانت أمي تجيد اللغة العربية والفارسية، فبدأت بتعليمي وتدريسي تحت إشرافها، وتلقيت

(١) وهي تساوي أكثر من ٥٠٠٠٠٠ متر مربع.



التعليم الابتدائي في منطقتنا. وأما الدراسة الثانوية فقد أتممتها في مدينة "**نَمَنْگان**" و"**خُوقَنْد**" و"**سَمَرْقَنْد**" و"**شَهْرِسَبْز**" حيث تحصلت عليها خفية. وذلك لأنه لما استولى الاشتراكيون على تركستان أصدروا قراراً بمنع تلقي الدروس الدينية وتدريسها.

وأما تبليغ رسالة الإسلام وتعاليم الدين فكانت من أشنع الجرائم لديهم، فإقبالك على تعلم العلوم الشرعية وتحصيلها كان يعني في ذلك الوقت جلب المصائب والشدائد على نفسك، وجرها إليك تطوعاً.

لم يكن في ديارنا قبل الثورة الروسية نظام قوي لدراسة العلوم الحديثة والعصرية بالفعل.. إنما كان ما كان بالاسم فقط. وأسباب ذلك يطول بيانه.

فالأمر الأول: أن وسائل التعليم والتدريس كانت باللغة الروسية، وهذه مشكلة.

وثانياً: معظم هذه المعاهد والمؤسسات التعليمية الحديثة يقوم عليها القساوسة الكاثوليك، وكان هؤلاء من أشد الناس تعصباً، وكانوا ضيقي النظر. والمعلمون في هذه المعاهد كان أغلبهم من النصارى، وكان اهتمامهم ينصب في تنصير أبناء المسلمين أكثر من اهتمامهم بتدريسهم!

أما المتخرجون من هذه المعاهد فهم إلى جانب كونهم غير ملتزمين بأحكام الإسلام، ونافرين من الشريعة الإسلامية، كانوا يدافعون عن الإمبراطورية الروسية؛ لذلك قاطع عامة المسلمون هذه المعاهد والمؤسسات والمدارس، كما أنهم لم يكن في قلوبهم أدنى احترام وتقدير لهؤلاء الخريجين منها.

وأما التعليم الديني، فكانت هناك آلاف المدارس والمعاهد الدينية المنتشرة في بلاد تركستان، وكان التعلم فيها بلغة الترك، لا تجد مدينة أو قرية إلا وفيها مدرسة شرعية أو حلقة تعليم ديني. وقد أوقف أصحاب الفضل والكرم الأراضي الكثيرة التي تكفي تلك

المدارس مؤونة.

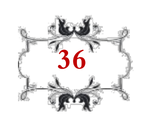
كان الطلاب يتلقون العلوم الشرعية بدون أي عوض إلا أنها لم تكن توفر للطلاب النفقة والكتب الدراسية، فكان الطلبة هم الذين يتحملون نفقة التعليم لمدة اثني عشر (١٢) عاماً أو ستة عشر (١٦) عاماً خلال دراستهم. كان بعضهم يشتغلون بالتجارة، والبعض الآخر يشغل منصب الإفتاء والقضاء في المناطق ذات الأغلبية المسلمة التي سيطر عليها الروس؛ فيفتي عامة الناس في أمورهم الدينية، ويقضي في أحكام أحوالهم الشخصية.

كانت هذه المدارس وحلقات الدروس تعيش في عالم آخر، بعيداً عن عالم السياسة، فكأنها شجرة ممنوعة في رحابها، وتركَ العلماء والمشايخ هذا المجال المهم للتيارات (اللادينية العلمانية) فالمجتمع التركستاني كان في غفلة شديدة عن العالم الإسلامي وما يحصل فيه، بل كان في انقطاع تام.

كان مجتمعنا مترفاً، يعيش في الرفاهية ورغد من العيش، غريقاً في حلم الأرنب، فكأن كل واحد منا شاعر، وكل فرد من المجتمع يحلم بالمعالي والأمنيات الرفيعة، وكانوا يقضون من العام ستة أشهر في الترحال والتنزه والصيد وصرف الأموال وتفريقها بين الناس رياء وسمعة، حيث كان ذلك من مفاخرنا وميزاتنا.

وأما العلماء فكان أغلبهم أصيب بضيق النظر والجمود، وكان أكبر اهتمامهم في المسائل الفرعية، أما "التصوف" فكان ذلك الزمان هو زمانه! فمشايخ الصوفية[1] كانوا في

(١) يقال لشيخ الطريقة: المُرشد أو المعلم، ولمتّبعه وتلميذه: المريد أو السالك، وسيتكرر ذكر هذين المصطلحين في الكتاب.



زواياهم بعيدين عن أحوال المجتمع ومشاكله وتحدّياته، وكان نقاشهم و حوارهم يدور في الأغلب حول «المراقبة» و «علمُ مكاشفة القبور» و«الخلوة والرياضة» و«وحدة الوجود» ونحوها. فكما كانوا يشغلون أنفسهم بها، كانوا يلقنونها مريديهم و سالكيهم، فإذا انتقدهم أحد على هذه التصرفات وعلى جمودهم كان جوابهم: "أي عدو يريد أن يهجم أو يغير علينا؟ وإذا حصل ذلك يوما ما، فلنخرجنّ إلى المعركة لقتالهم، بل إن الغرض من وراء هذه التربيـــة والممارسة التي تكون في الزوايا هو الاستعداد والتأهب للجهاد في سبيل الله".

هذه الأوضاع الاجتماعية التي كان مسلمو تركستان يعيشون فيها، ويقضون أيامهم ولياليهم بها حتى قامت الثورة الروسية الاشتراكية عام ١٩١٧م ضد الإمبراطورية الروسية وأسقطتها. فأقام الديمقراطيون الوطنيون في روسيا حكومة مؤقتة تحت قيادة «ألكسندر كيرنيسكي»[١]. وعلى الجانب الآخر أعلنت بلاد تركستان استقلالها عن روسيا، وأقرّت مدينة خوقند عاصمة للدولة الجديدة[٢]. فاعترفت بهذه الدولة الجديدة حكومة كيرنيسكي الروسية إلا أن هذه الدولة لم يكن لديها جيشاً نظامياً، إلا كتيبة شرطة كانت تسمى الميليشيا أي: الحرس الوطني.

---

(١) **ألكسندر كيرنيسكي** (١٨٨١-١٩٧٠م): زعيم روسي، تولى منصب رئاسة الوزراء لفترة وجيزة بعد ثورة فبراير ١٩١٧م ضد الإمبراطورية الروسية.

(٢) **دولة تركستان:** أعلن القادة التركستانيون قيام دولتهم المستقلة في نوفمبر ١٩١٧م، وتشكلت الحكومة الجديدة برئاسة الزعيم القازاقي «مصطفى شُوقائي أوغلي» (١٨٩٠-١٩٤١م)، ولكن سرعان ما سقطت في فبراير ١٩١٨م لأسباب سيذكرها المؤلف. وينظر للمزيد: المسلمون في الاتحاد السوفيتي للدكتور محمد علي البار (١/٣٢١-٣٢٢).

ورغم ذلك كله لم يقصر القادة والزعماء في الحفاظ على حريتها وتنميتها وتقويتها، ولم يألُ العلماء والمشايخ وسعاً وجهداً في إعانة الحكومة الجديدة، ودعم قادتها وزعمائها، وقد أنشئت اللجنة الدستورية، وبدأت اللجنة في إنشاء دستور الدولة بسرعة فائقة.

لكن أثناء هذه الفترة قام الشيوعيون بإسقاط نظام كيرنيسكي بقيادة (فلاديمير لينين)[1] واستولوا على روسيا كلها. وفي فبراير من عام ١٩١٨م هجمت الحكومة الشيوعية على بلاد تركستان وأغارت عليها، وسلبت حريتها واستقلالها. وفي ديسمبر من عام ١٩٢١م استولى الشيوعيون كاملا على إمارة بُخارى[2] وجمهورية خِيوة[3].

ولما استولت الشيوعية على تركستان قامت بمصادرة الأراضي الزراعية والبساتين والمتاجر والحوانيت والمصانع، وأسقطت حقوق الجنسية عن كل شخص له أدنى صلة بالدين الإسلامي، ولم تفرق في ذلك بين عالم وتاجر، وبين فلاح وأجير فقير وأصدرت الشيوعية قراراً يمنع الصلاة والصوم وعدتها جريمة، ومنعت الحجاج من السفر إلى بيت الله الحرام وأغلقت المساجد.

---

(١) **فلاديمير لينين** (١٨٧٠-١٩٢٤م): زعيم الثورة الشيوعية، ورئيس الاتحاد السوفيتي الأول.

(٢) **إمارة بخارى:** إمارة إسلامية في بلاد ما وراء النهر في آسيا الوسطى، أسست عام ١٧٨٥م، وانتهت بالفعل عام ١٩٢٠م، وكان آخر أمرائها الأمير محمد عالم خان. وكانت عاصمتها مدينة بخارى.

(٣) **خانية خِيوة:** كانت خِيوة إمارة إسلامية في بلاد خوارزم في آسيا الوسطى، وامتدّ حكمها إلى أربعة قرون (١٥١١- ١٩٢٠م)، وكان آخر أمرائها «سعيد عبد الله خان»، وعاصمتها كانت مدينة خيوة. أما الجمهورية فقد أسست بعد الثورة مِن قبل الشيوعيين لمدة يسيرة، ثم انضمت في الاتحاد السوفيتي.

وقد اتخذت لإغلاق المساجد حيلة مكر ودهاء؛ ففي البداية سلبت من المساجد والمدارس أوقافها من الأراضي والعقارات وغيرها، فواجهت ضيقاً وعسراً شديداً في تحمل مصاريفها ومؤونتها. ثم فرضت الحكومة على المساجد الضرائب، فإذا جمع المسلمون أموال الضرائب ودفعوها إلى الحكومة فرضت عليهم "ضريبة الكنز"، وأعلنت بأن الذين يدفعون ضرائب المساجد يملكون الكنوز التي أخفوها في بيوتهم عن الحكومة، وإن الحكومة ستقوم بإخراج هذه الخزائن! وهكذا فمن يجرؤ بعد ذلك على دفع ضرائب المساجد!

فإذا مضى موعد دفع ضرائب المساجد ولم تُدفع من أحد، ومر عليها أسبوع كامل، فرضت الحكومة غرامة على المسجد التي تتزايد وتتراكم قيمتها بمرور الوقت. أما الذين كانوا يأتون إلى المساجد لأداء الصلاة، ففرضت عليهم "ضريبة المصلين"، فانتهى الأمر إلى أن ترك الناس أداء الصلوات في المساجد، وبدأوا يصلون في بيوتهم، فخلت المساجد من المصلين وصارت خراباً.

ثم إذا صار المسجد خراباً خاوياً، فيجتمع فيه رهط من الشيوعيين ويتخذون قراراً بأن هذا المسجد خاو وشاغر لا يأتيه أحد لأداء الصلاة، وعليه يرفعوا إلى الحكومة أن تستخدمه في رفاهية عامة ومصالح اجتماعية. ثم تصدر الجريدة الرسمية في اليوم التالي ذلك القرار ويستولي على المسجد الشيوعيون. فإما أن يهدموه أو يجعلوه إسطبلاً للخيول والبهائم أو ملهى ليلياً ومرقصاً أو نحو ذلك.

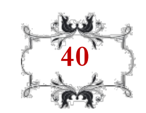
وقد فتح المكتب الشيوعي في كل أنحاء البلاد، فكان من مهماته الاستهزاء بالدين والسخرية من تعاليم الإسلام وتقاليده، والتخطيط لاستئصال جذور الدين والشريعة من المجتمع. وإذا أراد الإنسان أن يكسب معاشه كان عليه أن يحصل على الرخصة الرسمية،

وبدون هذه الرخصة لم يكن له أن يعمل مطلقاً، لا في الزراعة ولا في التجارة ولا في المصانع، حتى إنه لم يكن له أن يعمل أجيراً لغيره بدون هذه الرخصة!

وأما الذي يلتزم الشريعة الإسلامية أو له علاقة بالدين، فإن حصوله على هذه الرخصة الرسمية من المستحيلات، وإنما السبيل الوحيد إليها التبرؤ من الدين. وفي جانب آخر، كل السبل كانت مهيأة لأهل الشر والفجور والمجرمين، وكانوا يتمتعون بالحرية الكاملة، وكثيراً ما يغيرون على المتدينين ويقتلونهم بدون أية تهمة، ولم يُسمع قط بأن قاتلاً قبض عليه من الشرطة. وهكذا استشهد الآلاف من المسلمين...

وبعد عام ١٩٢٧م اشتد القتل وسفك دماء الأبرياء بصورة رهيبة، وتجاوز الاشتراكيون كل الحدود في عداوة الإسلام. كانوا يوجهون اتهامات ومثالب إلى الإسلام علناً، ويرسمون "الكاريكاتير" عن القرآن الكريم والحديث الشريف وتعاليم الإسلام والمشايخ والعلماء، ثم يعلقونها في الشوارع وجدران المساجد، وينسبون إلى النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ما لا يتصور نسبتها إلى شخصيته الطاهرة.

وكانوا يعرضون في دور السينما أفلاماً ومسرحيات تحتوي على الإساءة إلى الإسلام والتحقير من الدين وتعاليمه، حتى لو أن أحداً غض بصره عن تلك الصور والكاريكاتيرات المسيئة إلى الإسلام وعلمائه، كان ذلك جريمة لدى الشيوعية. ويمكنك أن تتصور غاية تمردهم ومدى عداوتهم للإسلام بأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يصنعون تماثيل رمزية للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم يضعونها في ملتقى الشـــوارع. فإذا مر بها أحد، قبضوا عليه وأوقفوه أمام تلك التمــــاثيل قهراً وإجباراً. ففي تلك الأوضاع الرهيبة لم يكن أمام هؤلاء الذين يحبون أن يعيشــوا متمســكين بإيمانهم وإسلامهم إلا أن يتركوا بلادهم ويهاجروا في سبيل الله.



ذات يوم... عقد الشيوعيون حفلة في أكبر مسجد في منطقتنا، وأعلنوا في المنطقة كلها بأنه يؤمر كل إنسان أن يحضر في الحفلة، وأن من يتخلف عنها سيناله العقاب الشديد. فحضر الجميع بعد هذا التهديد، ولم يكن في المسجد مكان خالٍ، فابتدأت الحفلة و كان أول إعلان من مدير الحفلة: "فليخرج الروحانيون من المسجد!".

ويُلاحظ أن «الروحاني» كلمة تطلق في بلاد تركستان على كل إنسان له علاقة بالإسلام، ومحبة وشغف بالدين. وبعد أن أعلنوا ذلك خرج العديد من الناس، ولم يبق في المسجد إلا الفساق والفجار و ضعيفو الإيمان من الرجال أو الصبيان. ثم كتب الشيوعيون في السجل أسماء الرجال الذين خرجوا من المسجد، ثم ساد الصمت لمدة من الزمن، حتى ضرب الجرس بشدة! نعم.. ضرب الجرس في المسجد، في بيت من بيوت الله.. كما يضرب في الكنائس. كان الموقف مرعباً، فزاد الجرس فيه خوفاً ورهبة. ثم أتى إلى المنصة رجل قيل عنه إنه فيلسوف إسلامي!، فأخذ الرجل يبث السموم ضد الإسلام لحوالي ساعة ونصف، وأظهر بغضه وحقده على الإسلام. ولا يستطيع قلمي أن يعبر عن هذيانه كاملاً، **لكن خلاصة ما قاله:**

«إن تصور الإله الذي تعطيه الديانات وبوجه أخص الإسلام، يهدف إلى أخذ أموال عامة الناس، فهذا التصور للإله إنما أوجده الرأسماليون والمشايخ وعلماء الدين لملء بطونهم، وإن الله والرسول واليوم الآخر والحشر والنشور والبعث والجنة والنار والملائكة والجن وغيرها من العقائد والتصورات هي في الحقيقة خديعة، وأساطير وأكاذيب اختلقها الروحانيون. وإن الحزب الشيوعي على عزم تام لإزالة هذه التصورات والأفكار والعقائد وإبطالها، وتخليص العوام والشعب الكادح من هذه الأساطير». ثم صاح الرجل المتحدث قائلاً: «هل فيكم من يريد أن يسأل شيئاً؟».

كان الدم يغلي في جسدي من أباطيل وخرافات هذا الرجل البذيء المسيء، فاقد الأدب. فتحركت وقمت بقوة وقلت غير مبالٍ بطغيان الشيوعيين وقهرهم: «لقد أخرجتم هؤلاء الذين يقدرون على الرد عليكم، وعلى خرافاتكم وأباطيلكم، فهل تطلبون الرد من أشباحهم؟» ثم قلت كلمة صريحة وجريئة. فقد كنت في اندفاع وحماس شديد، ولم أدرك بماذا تكلمت، ولا أدري ماذا قلت بعد ذلك، ولم أشعر بشيء إلا أنني رأيت المسجد قد ساده السكون المخيم والصمت الشديد. وظلّ صوتي الصارم يضج في ذلك المكان حتى سمعتُ صيحة: «خذوه ... خذوه!!».

فهجم علي وأحاط بي الشيوعيون من كل جانب، وأخذوا يضربونني بأيديهم وأرجلهم حتى تقطعت ملابسي، ثم أخرجني الشرطي من المسجد وهو يضربني بسوطه.

وصلت داري، فلما رأتني أمي وأخوتي الصغار -وأنا في تلك الحالة- تحيروا واندهشوا وحزنوا لحالي كثيراً. واضطراب أمي كان في محله؛ لأن المصائب والمحن التي لا تزال تلحق بالدين وأهله لم تكن مخفية عنها. وبالذات لم تكن أسرتنا في أمن وأمان، فقد قبضت الشرطة الشيوعية على عمي واثنين من أخوالي وزوج أختي، وابني خالتي وكذلك الكثير من الأقارب والأعزاء، وأخذوهم من بيوتهم بجريمة أنهم علماء دين وأئمة للمسلمين، ولا ندري ما هو مصيرهم وعاقبتهم حتى يومنا هذا؟ أين هم؟ أحياء أم أموات؟

سألتني أمي «ولدي! فداك نفسي! من الذي ضربك هكذا؟».

أردت أن أخفي القصة عنها، لكن أمي أصرت كثيراً، فحكيت لها القصة كلها. كانت تستمع إلي وتبكي بشدة، فلما فرغت قالت:

«نور عيني! هـؤلاء الناس جهلة وملحدون، وهذا الوقت وقتهم، والحكم بأيديهم.



وليس في قلوبهم وعقولهم من العلم والمعرفة شيء مطلقاً، والخرافات والأباطيل التي يبثونها لا تزيد أن تكون بهتاناً وافتراء على الإسلام. وأنا بحاجة إلى أن أفكر في شأنك قليلاً، والآن تعال وتناول العشاء». كنت أشعر بعدم الطمأنينة، كان قلبي مضطرباً شديدا، وكنت لا أشتهي الطعام، فأخذت أمي تطعمني. وكان قد مضى من الليل الجزء الكبير، فصليت بأمي وأختاي صلاة العشاء، ثم مضت بي أمي إلى غرفتها الخاصة، وناولتني كتاباً وقالت: «خذ يا ولدي واقرأه». فتحت الكتاب فإذا هو المجلد الأول من سيرة النبي ﷺ وكان مطبوعاً في مدينة قازان[1]، ثم انصرفت أمي. بدأت في مطالعة الكتاب حتى انقضى الليل. وقبيل طلوع الفجر دخلت على أمي وأخذتِ الكتاب من يدي، وقالت: «فؤادي.. استرح الآن قليلاً».

ثم نمت ساعة أو أقل منها، فعادت أمي وأيقظتني لصلاة الفجر، وأدينا الصلاة جماعة، ولما طلعت الشمس انشغلنا في أعمال البساتين، وقد ذهب أخواي الصغيران إلى المدرسة، ولما رجعا إلى البيت وقت الظهر أسرّا بشيء إلى أمي، فقالت أمي: «هؤلاء الناس أعداء الدين، وهكذا يهذي ويلغو الأعداء».

وكان المعلم عرض في المدرسة فيلماً درامياً وكان فيه الهجوم على الصلاة والصيام، وشعائر الإسلام الأخرى، والسخرية منها. فلما ذهب الأطفال في الغد إلى المدرسة سئلوا عن انطباعات آبائهم وأمهاتهم عن تلك الدراما!

---

(١) **قازان:** مدينة قديمة مشهورة عبر الزمان، وذات أهمية كبرى في تاريخ مسلمي روسيا وتركستان. وهي عاصمة جمهورية تتارستان التابعة لروسيا الفيدرالية حالياً.

وبعد ١٥ يوماً، سَحبتْ الحكومة جنسية أمي بدعوى أنها روحانية وعالمة. **وبهذه المناسبة قالت أمي:**

«سنُفتتن الآن في إيماننا، ونبتلى في ديننا، وهذا ما ظنناه فيهم بأنهم لا يتركون في هذه الأرض إنساناً في قلبه إيمان وشعور ديني». ثم توجهت بي أمي إلى جانب وقالت: «ولدي إنني لا أدري متى يقتلني الأعداء أو ينفونني إلى أرض بعيدة مجهولة، ولا يمكن أن يعيش المرء هنا مسلماً ومؤمناً». فآذن لك الآن أن تهاجر إلى بلاد أخرى لكي تعيش مسلما متمسكا بدينك.

ومن ذلك الوقت كانت أوقاتنا تمضي في المشاورة خفية. وكنت ورثت من والدي، وجدي، وجدي لأمي عدداً كبيراً من الكتب الثمينة القيمة والنادرة، فأشارت إلي أمّي أن أفتح فجوة في جدار سميك ثخنه حوالي ستة أقدام في مجلس الضيوف، وأن أضع الكتب فيها، ففعلت ثم أغلقتها، لأننا كنا على يقين تام بأن الحكومة الشيوعية ستستولي على هذه الدار، وستستخدمها مكتباً حكومياً، ولن تهدمها كاملة.

وبعد ثلاثة وعشرين (٢٣) يوماً من اليوم الذي سُحبت فيه جنسية أمي، ارتحلت من بيتي وسرت في طريق الهجرة.

في اليوم التالي وصلت قريباً من «خضر آباد» بعد أن مشيت ساعات متتالية، وتقع خضر آباد على بعد ٢٤ كم من قريتنا تقريباً، وهي قرية كبيرة وتمر بها سكة حديد القطارات، وإذا أراد أحد أن يدخلها كان عليه أن يجاوز «نهر سيحون».

اقتربت من القرية؛ فإذا بفوج عسكري روسي قد أحاطوا بالقرية، ولا يقل عددهم ألف ونصف، ثم تبينت أن الشيوعيين قد قاموا بالإساءة إلى الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام، وسخروا من الدين واستهزأوا منه في «خضر آباد»، فاشتعل الناس غضبا وغيرة



وحمية، وقطعوا دابر الشيوعيين، وقلعوا السكة الحديدية، ورفعوا راية الحرية ضد طغيان الشيوعيين. فجاء الجيش الروسي هنا لكسر شوكة أهل هذه القرية. لكن أهل القرية كانوا مسلحين مستعدين لهم، وعلى انتباه تام منهم، وكانت حراستهم حول قريتهم محكمة جداً، ولم يكن أحد من الروسيين لينجو منهم لو دخل القرية.

وقعت في حرج شـــديد، فلا يمكنني الآن أن أتراجـــع ولا أن أفر إلى مكان آخر، كما لم يكن هناك مكان أستتر فيه. وفي ذلك اليوم لقد كنت رأيت الموت يُرفرف فوق رأسي.

ولما نظرت إلى الجيش ترددت وتحيرت من أمري لمدة يسيرة، فجرى على لساني كلمتي «الإيمان المجمل»[1] و«الإيمان المفصل»[2] بدون شعور مني، وطرأت علي حالة غريبة وشعور لا أقدر أن أصفه، فرفعت قدمي وبدأت أمشى نحو القرية. ولما عاد إلي وعيي رأيت أنني تجاوزت الجيش، وتركتهم خلفي على بعد كبير، والحق أنها كانت تجربة محيرة، ولم أدرك حتى اليوم كيف نجوت ومررت بالطريق التي كان يحرس كل شبر منها الجيش الروسي!

وفي مساء ذلك اليوم وصلت «أُوَيجي» وكان يسكن فيها صديق والدي رحمه الله، وكان من العلماء العاملين البارعين. وكانت شخصيته مرموقة، وقد سيطرت عليها مخالب الشيوعية، فكان هذا العالم الجليل أول ضحيتها، فقالوا لي: «لقد قتله الشيوعيون

---

(١) **وهي:** «آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والبعث بعد الموت». مأخوذة من حديث جبريل عليه السلام، ويحفظها مسلمو دول آسيا في الصغر.

(٢) **وهي:** "آمنت بالله كما هو بأسمائه وصفاته، وقبلت جميع أحكامه".

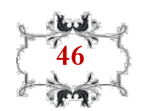
البارحة». ثم دلني أهل الحي على الطريق التي توصل إلى «نمنگان» وودعوني، فوصلتُ «نمنگان» في اليوم التالي.

وهذه مدينة أخوالي، وكانت فيها عقارات ومبان لأمي التي ورثتها عن أبيها. وأوضاع «نمنگان» كانت أحسن بالنسبة إلى المدن الأخرى. فأقمت بها أياماً، ثم وصلت إلى «خوقند»[1] بالقطار. تُعد «خوقند» من المدن التاريخية في تركستان، وهي مدينة واسعة وكبيرة. ولما سقطت الإمبراطورية الروسية، وتشكلت في تركستان حكومة مستقلة، وكانت «خوقند» مقر تلك الحكومة، وهي تقع على بعد ١٥٢ كم من قرية «قائقي». وكانت الشيوعية قد جربت كل أنواع التعذيب على أهل خوقند، وتجاوزت الحدود في المظالم والضغوط. وحينئذ أنشأ المسلمون في «خوقند» حركة سرية، فإذا ما أساء شيوعي إلى الإسلام وطعن وشتم في الله تعالى ورسوله عليه السلام، أو أذى عالماً؛ قام بعض أعضاء تلك الحركة وقتلوه، وأوصلوا رأسه المقطوع إلى مقر الشرطة ووضعوا معه رقعة كتبوا عليها بعض العبارات مثل:

«إنكم ما زلتم تبثون الأكاذيب ضد الإسلام، وتنشرون الأباطيل والهذيان عن الدين، وأما إذا قام علماءنا ليردوا على خرافاتكم فلا تتيحوا لهم المجال، وإنكم تجعلون أطفالنا وأبناءنا يسيئون الظن بالإسلام، وإننا الآن نردّ عليكم ونأخذ ثأرنا منكم بهذه الطريقة».

---

(١) يقال لها أيضًا: «قوقند».



لقد استبد الخوف والجزع في قلوب الشيوعيين، وملك عليهم الرعب والحيرة من ردة فعل المسلمين، فلم يكن شيوعي يأمن على نفسه. وإذا أظلم الليل استتروا واختفوا في بيوتهم. ثم أعلنوا في المساجد والأسواق بأنه لا يجبر أحد على إدخاله في الحزب الشيوعي، وأي إنسان يرغب في الالتحاق بالحزب فهذا مفوض إلى رأيه واختياره. وأعلنوا أيضًا: «أن الروحانيين سيحصلون على البطاقة التموينية».

وإن كان هذا الإعلان في الحقيقة حيلة من الشيوعيين، إلا أنني اطمأننت، واطمأن الكثير من أمثالي، وعزمت على أن أقيم بها، وأطلب العلوم الشرعية من علمائها.

كان الشيخ «محمد جان» المعروف بـ«باي وُجَّهْ داملا» من طلائع علماء «خوقند»، وكان من طلبة جدّي لأمي، ومن زملاء والدي رحمه الله. وكان يقيم في بيته تحت الإقامة الجبرية من الشيوعيين، وبعد هذا الإعلان المذكور ذهبت إليه وعرّفته بنفسي وقلت له: «أردت أن أقيم هنا، وأطلب العلم». سكت الشيخ برهة من الزمن ثم قال:

«بُني لقد حظرت الشيوعية على تحصيل العلم الشرعي، وليس لدي إلا حيلة واحدة، وهي أن تعمل في المدينة نهاراً أو إلى نصفه كأجير، وبهذا القدر يمكنك أن تقيم لدي». وافقت على فكرة الشيخ، وكنت أعمل طوال النهار، ثم أطلب العلم في الليل عند الشيخ.

وكان للشيخ محمد جان داملا تعمقٌ في نظرية الإلحاد عند الشيوعيين، فكان يركز عليها كثيراً، وخلال دروسه كان يذكر دعاوى الشيوعيين وأباطيلهم عن الإسلام، ويرد عليها، ويفندها بدلائل ساطعة وحجج قاطعة.

كان ذلك الشهر الثالث منذ قدومي لـ«خوقند»، حتى بدأت الشيوعية من جديد فعاليات معادية ضد الإسلام، فقامت بإحصاء عدد المواطنين في «خوقند»، وسجلتْ



أسماءهم في قائمة مفهرسة على ترتيب المناطق السكنية، والأحياء، وفرضت المراقبة الشديدة على المتدينين منهم. وأدخلت في الشرطة العامة الفساق الأشرار البلطجيين من المدينة، فقاموا بتخويف أهل الصلاح والدين وتهديدهم، وقبضوا على بعضهم، وأجبروهم على الاعتراف بجرائم وجنايات هم منها براء. ففي كل يوم كان يختفي قرابة ٧٠-٨٠ شخصاً، ولا يدري أحد عن مصيرهم.

في ذلك الحين ذهبتُ إلى العلماء الذين بقوا في «خوقند» وعددهم قليل، وذكرت لهم هذه الأوضاع السيئة، وطلبت منهم النصح والإرشاد، لكن اليأس كان قد ملكهم، وفقدوا الأمل والرجاء، وكان أغلبهم يردون علي بقولهم: «يا ولد.. نحن كما ترى نعد ساعات بقاء حياتنا حتى موتنا واستشهادنا».

في ذلك الوقت، كان الشيوعيون لا يبالون بشيء، ولم يكن أمامهم أي عائق، وحتى الرهبة التي لحقت بهم من فعاليات الحركة السرية تلاشت عنهم، كانت قد قبضت على العلماء والقادة ونفوهم أو قتلوهم، فصار العامة من الناس بلا قيادة ورعاية.

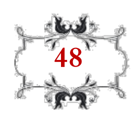
انتشر الرعب والدهشة في قلوب عامة الناس، وقصرت هممهم، وضعفت عزيمتهم، ولم يكن لديهم ما يقاومون به الشيوعيين، فكان لا يأمن أحد على نفسه وعرضه.

كان لدي مصحف، وقد تمزقت بعض صفحاته فذهبت إلى دكان للتجليد، وكان في «**تويي بازار**» الذي يقع في الجهة الشمالية الغربية من «جامع خوقند»، فبدأ عامل التجليد بإصلاحه، حتى أتى شيوعي وقال:

«هل أكملت تجليد كتابي؟».

«بقي بعض العمل سأكمله في ساعة، وأوصله إلى بيتك»، أجابه العامل.

«ما هذا الذي في يدك؟» سأله الشيوعي.



«هذا ... هذا ... (تحير العامل وقال) هذا مصحف شريف، فقد بقي دقائق ثم أتمم عملك». قاله بصوت فيه انكسار وخضوع.

اشتعل الشيوعي غضباً، واحمرت عيناه، وانتزع المصحف الشريف من يده وقال صائحاً:

«لأجل هذه الخرافات والأساطير (معاذ الله.. معاذ الله) أوقفت عملي!؟» ثم رمى بالمصحف الشريف على الأرض خارج الدكان.. آه.. يا ربّ!! إن الدماء قد غلت في جسدي كله لكني لم أتمكن من التحرك. تمالكت نفسي، حتى قمت والتقطت المصحف الشريف من الأرض، وقبّلته مراراً، وخطر بقلبي بأن قصر همتنا وضعف إيماننا إلى درجة أن الأعداء ينتهكون حرمة كتاب الله تعالى علنًا.

كان قسم الشرطة على مسافة قليلة قريبة منا، فلما اقترب من القسم أمسكتُ بيده وجذبته وذهبت به إلى الداخل، ثم بينت لضابط الشرطة ما حدث، ونددت بفعلته الشنيعة وقلت:

«إن هذا الرجل خالف قوانين الحكومة ونقضها لأن الحكومة أعلنت أنه لا يجوز لشيوعي أن يقوم بعمل فيه إساءة إلى الدين أو توهين الإسلام، كما لا يشرع أن يجبر إنسان مسلم على الإلحاد قهراً، وإنني أطلب معاقبته لفعله البغيض المخالف للقانون».

لم يعط ضابط الشرطة لشكواي أي اهتمام ولم يلتفت إليه، بل إنه أغلظ على القول، وبدأ يقول: «لماذا جئت إلينا؟ اذهب إلى إلهك الذي تزعم أن الموت في سبيله أسمى وأغلى شيء!».

خرجتُ من قسم الشرطة وذهبت إلى الجامع الرئيسي، هذا المسجد الشامخ باق إلى يومنا هذا، وقد حولته الحكومة إلى متحف[1]. كان المسجد في ذلك الوقت في وسط المدينة، وكانت مساحته بما فيه من الغرف وغيرها ١٨ فدّانًا تقريبًا. وكان فريدًا في روعته وحسنه، ونموذجاً بديعاً في الفن المعماري الإسلامي، ومشيداً على أعمدة عديدة، ويقع في الجانب الشمالي من المسجد الشارع الرئيسي، وكانت فيه الحوانيت والمحلات التجارية الموقوفة على الجامع، وأما الجهة الغربية فكان فيها حماماً كبيراً. وكان «أمير خوقند» يؤم الناس بنفسه في الصلاة في هذا الجامع، ثم كان «شيخ الإسلام» للإمارة يصلي بالناس فيه نيابة عن الأمير.

وفي يومنا هذا كان العلامة «تُوره خان داملا» شيخ الإسلام فيه، وكان يعظ وينصح الناس في الأسبوع مرة كعادته، ولم يبسط الشيوعيون قبضتهم الظالمة عليه بعد، وكانوا في انتظار الفرصة وبدأوا يبثون الإشاعات والأقاويل ضده، حتى كلفوا رجلاً يراقب أفعاله وحركته، ومن يفد إليه ومن يلتقي به. كان هذا الرجل الجاسوس من الأفغان، وكان ظريفاً وعذب اللسان، ويبدو عليه الصلاح والزهد والتقوى. وفي وجهه لحية طويلة، وكان أثر السجود في جبهته ظاهرا، وكانت لا تفوته الصلاة جماعة مطلقا، وكان يحضر لصلاة الفجر مبكراً، ويقوم خلف أسطوانة يصلي ركعتي الفجر ويطيل في القراءة، وأثناء ذلك يراقب المصلين الداخل منهم والخارج، وكان يلبس في المسجد الزي الأفغاني

---

(١) **جامع خوقند:** من أكبر جوامع مدينة خوقند الذي شيّد بناءه أمير خوقند آنذاك «عالِم خان» (ت: ١٨٠٩م) في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، ثم أكمل بناءه أخوه الأمير عمر خان (ت: ١٨٢٢م). أعيد هذا الجامع إلى هيئته التي كان عليها قبل الغزو الاشتراكي.
(ينظر للمزيد: https://zenodo.org/records/8051235).



التقليدي، وإذا خرج كان يجول في لباس أهل «خوقند» المعتاد.

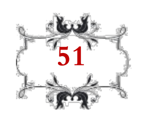
را بتني أفعال هذا الرجل وأحواله، فأمعنت النظر في حركاته، وبدأت مراقبته، فتبينت أن الرجل مكلف من الشيوعيين بالتجسس على الشيخ «توره خان دا ملا»، بل كان عليه أن يراقب من يزوره، ومن يهاجر إلى أفغانستان من الأسر.

انتقلت للسكن في حي «آسْپره گزري»، وهو حي من أحياء «خوقند»، ومسجد الحي كان من أجمل المساجد، وكانت غرفها فاخرة جداً، وكانت قد تيسرت لي غرفة منها للإقامة فيها، إلا أنني كنت أصلي في أغلب الأوقات في الجامع.

وذات يوم أتى عدد من الرجال زائرين مدرسة الشيخ «توره خان داملا»، وذلك بعد صلاة الجمعة، وكان فيهم ذلك العميل الأفغاني، ومشيت وراءهم وحضرت مجلس الشيخ. ولما تبين أنني سبط أستاذه العلامة «غياث الدين إيشان» وابن زميله الشيخ «خوجة خان»، استقبلني استقبالاً حاراً وألان لي جنبه، وقبّل جبهتي، ثم سألني عن أحوال أسرتي لمدة طويلة. ثم ذكر عدداً من علماء «نمنگان» المشهورين وسألني أحوالهم؟ وماذا يفعلون في هذه الأيام؟ فلما قصصت عليه أخبارهم، وأن منهم من قتله الشيوعيون واستشهدوا، ومنهم من نفوه من «نمنگان»، غشي المجلس صمت طويل، وشعر الجميع فيه بالألم والحزن والأسى. استأذنت من الشيخ، فسألني: «أين تقيم حالياً؟» قلت: «استأجرت غرفة في مدرسة مير عالم[1]، وأقيم فيها». كتمت عنواني الصحيح لأجل ذلك الأفغاني.

---

(١) لعل هذه إشارة إلى تلك المدرسة الكبيرة التي كانت داخل جامع خوقند. ينظر للمزيد:
https://uzbek-travel.com/about-uzbekistan/monuments/jami-mosque/



كانت هذه المدرسة في زمن الحكومة الإسلامية تعد من أبرز الجامعات. وكانت لها مكانة علمية وشهرة واسعة، يفد إلى رحابها آلاف الطلبة من شتى النواحي البعيدة، ويتلقون فيها العلوم الشرعية. وكان قد أُسس بجوارها سكن كبير لإقامة الأساتذة والطلاب فيها. وفي هذه الأيام تستخدم هذه المدرسة ومسكنها الكبير لإقامة العمال الشيوعيين والمسافرين الروسيين القادمين من أرجاء المدن الأخرى.

كان الشيخ «توره خان داملا» كثيراً ما يصطحبني معه إلى بيته، وكان يشفق علي شفقة كبيرة، وكان رحيماً بي. ذات يوم ذهب بي ذلك العميل الأفغاني إلى بيته بعد إصرار كبير. والحجرات في تركستان تكون في الأغلب على جزأين، فأجلسني في القسم الأول وذهب هو إلى القسم الآخر الخلفي؛ ليغير ثيابه. وكان قد نسي أن يأخذ الأوراق الموضوعة على الطاولة، فوقع نظري على ورقة منها، فرأيت اسم الشيخ «توره خان داملا»، فأخذت الورقة؛ فإذا بها قائمة طويلة لأسماء العلماء والمشايخ، فأسرعت في وضعها بجيبي. دخل الرجل الأفغاني إلى الغرفة متحيراً، وانتزع الأوراق من فوق الطاولة انتزاعاً وغادر الغرفة، وبعد مدة قليلة رجع إلي، وأخذ يتحدث معي في انبساط وطمأنينة، وكان يحاول التقرب مني بتواضع جم.

لقد صدق ظني وتبين ما كان اشتبه علي من أمر هذا الرجل الأفغاني. قدمت الورقة إلى الشيخ «توره خان داملا»، وبعد أن ألقى نظرة فيها، دعا لي بالخير والبركة، ووضعها جانباً، وبعد يومين أو ثلاثة لم أعد أرى الأفغاني، لقد غاب عن الأنظار. وأغلب الظن أن المجاهدين قضوا عليه وقاموا باغتياله.

وذات يوم ذكرت للشيخ «توره خان داملا» أمر إكمال دراستي، وأظهرت له رغبتي بدراسة «شرح العقائد النسفية»[1] عنده، فقال الشيخ: «نحن بحاجة إلى دراسة كتب أمثال «الفقه الأكبر»[2] و«القصيدة الأمالية»[3] ونحوها، فإنه من الواجب الضروري علينا أن نعلم عامة المسلمين العقائد الأساسية ومبادئ الإسلام، كما يلزم أن ندرس المبادئ الشيوعية وأصولها وأفكارها المادية ثم نرد عليها، وأما الفلسفات اليونانية فإنها لن تنفع شيئاً في يومنا هذا، وليس من المعقول أن نضيع أوقاتنا وقدراتنا بالخوض فيها.

فقلت للشيخ: «الأمر كما تحب وترضى ولا اعتراض لي فيه». قال: «إذن، احضر في بيتي بعد صلاة العشاء». فما زلت أحضر عنده حسب أمره، وعلى هذا مضى ٢١ يوماً، علمني خلال هذه الأيام أموراً كثيراً، وأعطاني دروساً قيمة ومفيدة، ثم كلّفني بالإمامة في «مسجد توبي بازار»، وكان يسكن في هذا الحي عدد من اليهود والأرمن، كما تقع فيه مؤسسة شيوعية، وكنت أعقد في المسجد درساً بعد صلاة الصبح أعلّم فيه القرآن الكريم والعقائد الأساسية الإسلامية، فكان لهذا الدرس أثر ملموس في الحي، وهذا لم يعجب ذلك الشيوعيون بطبيعة الحال. فبإيماء منهم أثيرت في الحي قضية وهي: هل إمام المسجد بالغ أم لا؟ فإنه لم ينبت شعر لحيته ولا شاربه بعد!

---

(١) كتاب ألفه الشيخ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) على طريقة المتكلمين.

(٢) كتاب منسوب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (ت: ١٥٠هـ) في بيان أصول الدين.

(٣) قصيدة «بدء الأمالي» منظومة عقدية للشيخ علي بن عثمان الفرغاني الحنفي (ت: ٥٧٥هـ) على طريقة المتكلمين.

فذهبت إلى الشيخ توره خان داملا ، وأخبرته عن القصة ، فأشار إلي قائلاً : « قدم رجلاً من المصلين ، ليصلي بالناس ، ولا تترك الدرس أبداً».

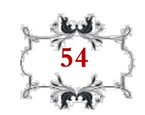
عملت على ما أشار علي ، وهكذا مضت الأيام بسكون وطمأنينة ، فبدأ أطفال الحي يحضرون الدرس ، وعلى هذا فتحت حلقة درس صغيرة في المسجد ، فأثيرت على إثرها قضية أخرى هل لدي تصريح جواز سفر وتصريح بالتنقل ، أم لا ؟

يلاحظ أن الشيوعيين لما استولوا على الحكومة ، أصدروا قانوناً بمنع التنقل من مدينة إلى أخرى داخل الوطن إلا بتصريح. لكن هذه المشكلة تم حلها من قبل رجل من الشيوعيين أنفسهم ، وخمدت النار ، وارتحتُ.

كان الشيوعيون يبذلون غاية جهدهم في إثبات أن مبادئ الإسلام وتعاليمه فاشلة ، غير صالحة لهذا العصر ، ويخوضون في الجدال والمراء مع العلماء على هذا. كما كانوا يسخرون من الدين وتعاليمه ويجعلونه أضحوكة في مجالسهم ، ويتناقشون حول مسألة وجود الله ويهذون فيه.

في ذلك الوقت كان رئيس «مدرسة بيگ» هو الشيخ «محيي الدين مخدوم» من أبرز من قاوم الشيوعية ، وجاهدهم بكلماته وخطبه النارية ، وقد أثرت تلك الخطب الجياشة الحماسية على نفوس المسلمين تأثيرا كبيرا ، وكانت كلماته تمس قلوب المسلمين وتحركهم بشدة.

كانت تلك الفعاليات والهجمات المعادية للإسلام من الشيوعيين قد أيقظت شعور العلماء ، وجعلتهم يحسون بمسؤولياتهم ، فبدأت خطة جديدة للدعوة والتبليغ ونشر رسالة الإسلام من جديد ، ولم يلقوا بالاً لأي خطر أو تكاليف أو إزعاج من استمرار هذه الأعمال ، فخططوا برامج ومناهج دعوية ، لم يكن الشيوعيون ليتحملوها منهم ،



فسخطوا عليهم وأسرعوا في القبض على الناشطين فأصبح اختفاء العلماء من بيوتهم يحصل في كل ليلة.

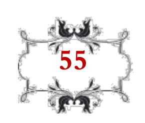
كان الباب يطرق في منتصف الليل، وعندما يفتح الباب، تدخل الشرطة السرية وتقبض على الرجل المطلوب وتجلسه في عربة مغلقة، وتذهب به بعيداً.

وكانوا يقولوا لأسرته: إنه سيرجع بعد ٣-٤ أيام! فإذا مضى أسبوع أو أسبوعان، كان يُعلم بأن الرجل قد بعث إلى منفاه، وكان هذا يعني أنه نفي! ..... إلى زمهرير مجاهل «سيبيريا»!.

كان الدرس الذي كنت أقيمه في «مسجد توبي بازار» يسير على نشاطه كاملاً، ولأجل ذلك قرر المكتب الشيوعي في إحدى جلساته أن يتم اختطافي، وقد أخبرني بذلك شاب في الساعة الثالثة ليلاً. هذا الشاب كان من أركان "كُمْسمول" (اتحاد منظمات الشباب السوفيتي)[1]. كان ذلك الشاب في ظاهره شيوعياً متصلباً، لكنه في الحقيقة كان حزيناً على أوضاع الوطن المؤسـفة، وكان قد أصبح من أصدقائي، وبوا سطته كانت قضية جواز السفر قد حلت، كما مر سابقاً. وبناءً على هذا القرار، بدأ الشيوعيون يراقبونني، حتى لا أفر من أيديهم.

وكان لهذا الشاب عمّ اسمه «ميرأيوب» وكان أعمى، قدم إلى غرفتي في الصباح الباكر، ثم أخذ يناقشني في مسائل فقهية، وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً، جاءني ذلك الشاب مسرعاً، وطرق الباب بخفة، ففتحت الباب! فلما رأى عمه جالساً في غرفتي،

(١) **الكمسمول:** أسست هذه المنظمة للشباب والصغار تحت إشراف حزب الشيوعية (البلشفية) الروسية عام ١٩١٨م.



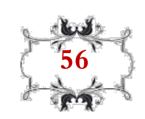
أشار إلي أن أخرج إليه، فخرجت وقال لي: «لقد عزم هؤلاء على إلقاء القبض عليك واختطافك، وهذا الرجل الذي يجلس لديك هدفه ألا تخرج من غرفتك إلى أي مكان. فلا تتأخر واخرج من هنا في أسرع وقت ممكن».

ذهب الشاب، فدخلت غرفتي، فسألني «أيوب» من هذا الذي طرق الباب؟ فأجبته: «هذا ابن شيوعي شرير خبيث من هذا الحي»! ثم أخذت فراشي الذي أعطتنيه أمي وخرجت من الغرفة مختفياً، وذهبت إلى «مدرسة خشتن»، حيث كان «عبد المالك قارئ» من طلابها، وكان من مواطني بلدة «پايتوق» التي تقع على بعد أربعة فراسخ من «أنديجان»، وكان من خلّص أصدقائي الحميمين، فعرفني على رجل حافظ للقرآن الكريم، وكان هذا الحافظ من المجاهدين الذين كانوا يقاتلون الشيوعيين في جبال «طاجكستان».

كان يعلم الصبيان القرآن الكريم نظراً وحفظاً، لكن مهمته الحقيقية كانت التربية الفكرية للشباب، وتسليحهم ضد الأفكار الشيوعية الهدامة. كان أسلوبه في الخطاب والحوار رائعاً جداً ومؤثراً.

أقمت هنا حوالي الأسبوع، وخلال هذه المدة حدثت في «خوقند» فوضى شديدة، ووقعت بها أحداث وأهوال ونُفي مئات من العلماء، واستُشهد الآلاف من المسلمين، وكان الرد على هذه العمليات قوياً جداً، فقد قتل أكثر من عشرة آلاف من الشيوعيين.

فالموت كان في تلك الأيام أرخص شيء في «خوقند»، وكان المسلمون قد قرروا إما أن يقضوا على الشيوعيين وإما أن يموتوا؛ فأصبحت دائرة الشيوعيين تضيق شيئاً فشيئاً، وتضعف قوتهم وشوكتهم. لقد عزمت أن أرحل إلى «سمرقند»، وعند الرحيل أعطاني



صديقي «عبدالمالك قارئ» ٢٥ كيلو من الأرز، وقال: «إذا وصلت إلى سمرقند بِعْهُ، وتحصل به على زادك ومؤونتك»، ثم أعطاني عنوان صديق له في «سمرقند».

حصلت على تذكرة «سمرقند» بطريقة درامية، وركبت قطار البريد في الساعة الثامنة مساءً، ووصلت في الغد إلى بلدة «خواص». كانت «خواص» ملتقى طرق للقطارات، وفيها اشترى مني ذلك الأرز صاحب مطعم، وأعطاني مقابله ٤٠ روبلاً، وكانت «خواص» تعيش قحطاً ومجاعة قسرية. فقد نهب الشيوعيون ما لدى الفلاحين من الأطعمة والمحاصيل الزراعية.

ثم ركبت القطار في المساء إلى «سمرقند»، وكان صاحب المطعم قد أشار علي أن ألبس الزي السمرقندي التقليدي، فإنه أسلم وأكثر أمناً. فاشتريت معطفاً سمرقنديًا ذا كُم طويل، فبدوت كرجل سمرقندي أُوزبكي!

ولما وصلت إلى «سمرقند» أقمت بمدرسة «تِلّا كاري»، وفي اليوم الثاني بحثت عن صديق «القارئ الألماسي»، فلما التقيت به ذهب بي وأوصلني إلى «مَيمَن قِشلاق» التي تبعد عن المدينة قرابة ٧ كيلومتر، وكان يقيم فيها عالم جليل يعرف باسم «داملا بخاري»، وكان شيخاً فطناً، ذا ذهن ثاقب، خبيراً بالشؤون، صاحب بصيرة، فكان مرجعاً للخواص والعوام من الناس، وكان قد كتب إليه صديقي «عبد المالك قارئ» رسالةً، فلما أردت أن أقدمها إليه، امتنع عن استلامها، وقال: «لقد قررت ألا آخذ رسالة ولا كتاباً من أحد، كما لا أتحدث سراً وهمساً!». ورغم ذلك فقد عاملني بلطف واهتمام شديدين، أعد لي الشاي بنفسه وقدمه إلي، ثم قلت له: «إن القارئ عثمان ألماس قرأ عليك السلام». فردّ على تحيّته لمدة طويلة «وعليه السلام.. وعليه السلام....»، ثم قال الشيخ:

«كيف حال عثمان ألماس، هل هو على ما يرام؟».

فأجبته: «نعم، هو بخير وسلامة».

فسألني مرة ثانية: «إلى أين تقصد الآن؟

أنا: «إلى بخارى أو مدينة شهرسبز؟».

الشيخ: «عند أي شخص ستمكث في شهرسبز»؟.

أنا: «يسكن فيها خالي وسأقيم عنده».

فلما ذكرت اسم خالي ظهر أن «داملا بخاري» من تلامذة خالي الأوسط «محيي الدين توره»، ففرح فرحاً شديداً، ودعا لي بالخير، ثم قال في أثناء حديثه: «لقد آن وقت امتحان المسلمين وافتتانهم، وإنه سيميز الصالح من الطالح، ويفرق بين الصادق المخلص والكاذب المنافق».

كان «داملا بخاري» يلقي درساً في الأسبوع، يعلّم فيه القرآن الكريم والأحاديث النبوية، حيث يحضر عنده عدد كبير من الطلاب ومن مسافات بعيدة، رغم المخاوف والشدائد التي قد تلحق بهم من أجل حضور الدرس. كانت «تخته قراچه» سلسلة جبال مشهورة تقع على مسافة قريبة من «مَيْمَن قَشْلاق»، وكان فيها مركزاً للمجاهدين الأبطال ينزلون فيها يومياً، فيغيرون على الشيوعيين مباغتة، حيث كان القتال يجري بينهم لمدة يسيرة، ثم ينسحبون ويغيبون بعد قتلهم وجرحهم وتقطيعهم، وكان «داملا بخاري» يرد على هذيان الشيوعيين وأكاذيبهم وشبهاتهم، كما كان يقوم بتربية المجاهدين وتعليمهم، فقد قال لي ذات يوم:

«نحن مسلمو تركستان غفلنا عن النعم بكفرانها، وبخاصة العلماء منا، كان السيل قد علا وتعاظم، وكنا مستغرقين في النوم، فلما أفقنا كان السيل قد بلغنا إلى المساجد

والمدارس والزوايا، وهزت أبنيتها بعنف وشدة. وكفارة هذه الغفلة الآن أن: يضحي العلماء بأنفسهم وأرواحهم».

سكنتُ لدى السيد البخاري أسبوعاً كاملاً، ثم رحلت إلى مدينة «بخارى»، وصلت إلى نقطة التقاء للقطارات الكبيرة «كاگان» التي تقع على بُعد ٧ أو ٨ أميال من «بخارى»، ومنها يتحرك القطار الصغير إلى «بخارى». فضّلتُ أن أذهب مشياً على الأقدام، وعندما أظلم الليل وكنت قد وصلت إلى قرية، وصلّيت في مسجدها صلاة العشاء، فلما قررت النوم في المسجد منعني الإمام. فابتدأ النقاش في هذه المسألة...كان الإمام يقول: «النوم في المسجد مكروه». وكان قولي: «المسافر لا يكره له أن يقيم في المسجد، وأن ينام فيه». وأخيراً عندما يئس من النقاش معي، قال المؤذن:

«إن هذا الحكم بات من الرفقاء».

«الرفقاء! أي رفقاء؟» سألته.

المؤذن: «يا بدوي!» قال الإمام في سخرية وغضب، ثم أردفها: «لا تدري من هم الرفقاء؟ إنه الحزب الشيوعي».

أنا: «إن الشيوعية تنكر وجود الله، فما لهم ولتنظيم المساجد!؟».

المؤذن: «من أنت يا أحمق؟ أوزبك؟ طاجيك؟ قرغيز؟ قازاق؟ أو تركمان؟».

أنا: «أوزبك».

المؤذن: «إنه لا يؤذن لك بالخصوص أن تأتي إلى هنا، فكّر في سلامتك وارتحل فوراً». قالها وهو يصرخ.

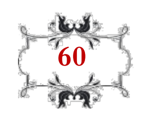
خرجت من المسجد ضيق النفس متألماً. وقضيت الليلة تحت شجرة خارج القرية، ولما ذهبت إلى المسجد لصلاة الفجر وجدته مغلقاً، فسرت إلى «بخارى».

وصلتُ المدينة قرابة الساعة الثامنة صباحاً، ولما دخلت «حي الغَجَدْواني»، رأيت فيه مسجداً جميلاً. كان منظره خلاباً؛ فدخلته فإذا عدد من النساء يغسلن الثياب، وقد اتخذته بعض العوائل مسكناً لها، ثم علمت أن هؤلاء الأسر من اليهود الشيوعيين، أسكنتهم الحكومة الشيوعية فيه! فلما خرجت من المسجد فإذا بأصوات الطبول والأبواق وألحان الفرق الموسيقية تقترب مني شيئاً فشيئاً، وظننت أنها قد يكون تجمهرا! وبعد دقائق قليلة انكشف المنظر أمامي كاملاً!

إنه الجيـش.. يزحفون بخطـوات وفق ضربات الطبول والآلاف من الشيوعيين يمشون وراءهم في صفوف للرجال وأخرى للنساء. يرفعون أعلامهم بأيديهم، حتى اجتمعوا حول بِركة مياه كبيرة في وسط المدينة يقال لها: «حوض دِيوان بيگي»(١). واتضح أن الشيوعيين كانوا يحتفلون في ذلك اليوم بذكرى «يوم نزع الحجاب»! حيث كانوا قد نزعوا قبل سنوات في مثل هذا اليوم النقاب والبراقع والحجاب والعباءات من وجوه السيدات المسلمات وأجسـادهن، ثم أحرقوها، وذلك بمساندة مباشرة من الجيش الأحمر. وأما السيدات اللاتي امتنعن عن نزع البراقع، فقد تعرض أهاليهن لأنواع التعذيب والإيذاء، حتى اضطررن لخلعـه؛ تخليصاً لأسرتهن وأقربائهن. ومن ذلك الوقت أصبحـوا يحتفلون في كل عام بيوم نزع الحجاب. وعند انتهاء التّجمهر عقدوا حفلة انتقدوا فيها شعائر الإسلام، وطعنـوا وشـتموا وقالوا ما شاءوا، واتخذوا فيها قراراً بعد اتفاقهـم عليه جميعاً بأن ينصب تمثال «لينين» في جميع مساجد «بخارى» الكبيرة.

---

(١) هذ الحوض موجود إلى يومنا هذا، وحوله آثار قديمة أخرى.



أقمتُ في «بخارى» ثلاثة أيام إلا أن هذه الأيام كانت شاقة علي كثيراً تعادل ثلاث سنوات، كانت أوضاعها في غاية الاضطراب والفوضى!

لا شك أن بلاد تركستان بأسرها كانت تعاني الشدائد والبلايا والعنف والعذاب، لكنها لم تكن توازي عشر المصائب والمحن التي حلت بالمسلمين في «بخارى». فقد وصلت الأكاذيب والدعايـات والنشاطات المعادية للإسلام وأهله إلى ذروتها، وكان القانون السائد هو الكلام الذي يتكلم به الشيوعيـون، وما يرضى به الحزب الشيوعي! فظلت الحقـوق الإنسانيـة والوطنيـة تداس وتوطأ تحت الأقدام. وأما من أظهر عـلاقته بالعقائد الدينية، وصلته بشعائر الإسلام، فكان يعني أنه جرّ على نفسه أشد أنواع العذاب.

كان عدد المدارس الدينية في بخارى ثمان مئة (٨٠٠) مدرسة، لكنها الآن حرمت من أصوات "قال الله وقال الرسول"! فمنها ما حول إلى إسطبل، ومنها ما اتخذ مستودعاً أو مخزناً، ومنها ما انقلب إلى ملاه ونوادٍ ليلية، تسمع منها أصوات اللهو والمرح والرقص. وأما المساجد فكان أكثرها مغلقة، ويسكن في بعضها أسر يهودية وغير المسلمين من أتباع الأديان الأخرى!

وقد فشت بين الناس الشبهة والريبة، فكان الرجل يشك في صاحبه! والعلماء والأئمة الذين هم قادة المجتمع، إما استشهدوا وإما أرسلوا إلى المنفى والسجون، وكانت السجون مليئة بالمتدينين من أهل الصلاح. ولم يزل الضعف واليأس مستبدَين على العوام، فصاروا يفقدون الوعي الديني.

كان المسلمون في وادي «فرغانة» و«سمرقند» يدافعون عن أنفسهم بقدر ما لديهم من الطاقة والوسع، لكن ههنا في أرض تيمور[1] أرى الناس قد فقدوا حماستهم الدينية، ونزعت الغيرة والحمية من قلوبهم. تألم قلبي بشدة، وجعلت أفكر كثيراً هل يلزمني الآن الهجرة من وطني؟

كان ذلك اليوم الثاني من قدومي إلى مدينة «بخارى»، وقد ازددت اضطراباً وحيرة، فذهبت إلى مسجد «مَغاك» الذي بُني تحت الأرض، واختفيتُ فيه، ثم خطر ببالي.. لماذا لا أستخير الله تعالى! عسى أن يهديني سبيل الرشاد. فتوضأت وصليت ركعتين، ودعوت الله عز وجل وقرأت دعاء الاستخارة ونمت. عند الفجر، جاء المؤذن أولاً، ثم جاء رجلان فصلينا نحن الأربعة فقط صلاة الفجر، ثم علمت من كلام هؤلاء المصلين، أنه قامت قيامة في المدينة!

والذي حدث أن الشيوعيين تجمهروا في ذلك اليوم مرة ثانية، وأكثروا فيها الإساءة إلى الله عز وجل ورسوله، وتجاوزا الحدود في السب والشتم والطعن في الإسلام، كما سخروا من شعائر الدين واستهزؤا منها، فاستفز بعض الشباب من تلك الأفعال الشنيعة وقاموا غيرة وحماساً. وقتلوا اثنين أو ثلاثة من مُنظّري الشيوعية الكبار ثأراً وانتقاماً. فغضب الشيوعيون وطغاة الجيش الأحمر من ردة فعلهم، وانتشروا بأنحاء المدينة، وبدؤوا بإهلاك الناس عن بكرة أبيهم. حتى جاس الجيش خلال البيوت، وأخرجوا أهلها وأطلقوا عليهم الرصاصات. وفي الصباح كانت شوارع وأحياء «بخارى» مليئة بالأشلاء والدم!

---

(١) إشارة إلى القائد التركي ومؤسس الدولة التيمورية في بلاد ما وراء النهر تيمورلَنك (ت: ٨٠٧ هـ)، وكانت "شهرسبز" (المدينة الخضراء) مسقط رأسه.



مكثت في «مسجد مَغاك» إلى وقت الضحى، وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً خرجت من المسجد وأتيت «حوض ديوان بيگي»، كانت في يدي حقيبة صُنعت بحبال غليظة، وكانت فيها أدوات مهنة الإسكافي[1]، فمشيت يمنة ويسرة لمدة يسيرة، ثم جلست تحت شجرة متكئاً عليها، ولم يمض وقت طويل، حتى جاء شاب من أقراني وسألني بدون تكلف وتصنع:

«متى جئتَ هنا؟». حيرتني هذه البساطة منه، وأمسكت على نفسي بدلاً من الإجابة عليه، ووجهت إليه أسئلة: «منذ متى تقيم هنا؟».

«منذ شهرين». أجاب الشاب.

أنا: «من أين أنت؟» سألته ثانية.

الشاب: «من حي كُلتيبه من محافظة أنديجان».

ثم سألني: «ومن أين أنت؟».

أنا: «من قايقي».

الشاب: «لأي غرض جئتَ هنا؟».

أنا: «بحثاً عن المعاش».

الشاب: «ماذا تعمل؟».

أنا: «إسكافي».

الشاب: «طيب. هل أنت خبير في عملك؟».

أنا: «في الحقيقة أنا أصنع الخِفاف».

---

(١) **الإسكافي:** مهنة صناعة الأحذية.



الشاب: «تعال معي نذهب إلى بيتي ونتكلم هناك. وأنا أريد تصليح خفافي أيضًا».

بدأت أسير معه، وشعرت من حركاته و سكناته بأ نه يعرفني من قبل. وعلى سبيل الحيطة كان يمشي قُدّامي بخطوات مسرعة. كانت أحياء و شوارع مدينة بخارى ضيّقة، وكانت توجد في كلا الجانبين عمائر شامخة. وكنا نمشي عبر الممرات الضيقة داخل الأحياء. فلما دخلت في إحدى ممراتها ونظرت إلى الشاب فلم أجده، وكان قد اختفى. وكنت واقفا على التقاطع ولم أكن أعرف الوِجهة، فقلقتُ غاية القلق، ولم أستطع أيضًا السؤال من أحد! فقررت الرجوع إلى «حوض ديوان بيگي» ...[1] ووصلت هناك وقت غروب الشمس. وصارت الشوارع خاوية تماما، وكنت أفكر في نفسي: أين سأبيت الليلة؟ فإذا بالمصادفة رأيت أمامي نفس الشاب الذي التقيت به وقت الظهر. وملامح القلق كانت محفورة في وجهه. فلما رآني قدم إلي مسرعًا وأخذ كيسي ومشى بدون أي كلام، فمشيت خلفه أيضًا. ثم قال لي في الطريق:

«كدتُ أيأس من أن أراك مرة أخرى! لقد طفتُ حول المكان قرابة عشر مرات. ماذا حصل يا تُرى؟».

أنا: «كنتُ نسيت الطريق فاشتبهت علي حتى خرجت إلى طرف آخر من المدينة، ثم رجعت منه الآن».

الشاب: «أين كنت تقصد الآن؟».

أنا: «إلى مسجد مغاك!

---

(١) حكى المؤلف هنا حادثة وقعت له مع شخص غريب الأطوار، ولم يذكر تفاصيلها، وأفاد بأنها غير متعلقة بما هو في صدده من بيان وقائع الهجرة، ولذا حذفناها كاملة.



ظهرت آثار الحزن في وجهه وبدأت خيوط الأسى والألم على جبهته، فبدأ يقول:

«يا للأسف! إن هؤلاء قتلوا خطيب مسجد مغاك، وقد استشهد في بيته. كان عالماً جريئاً، وكان يجهر بكلمة الحق. إن تجمهر الأمس الذي خرج به الشيوعيون بثوا فيه الأباطيل والأكاذيب عن الإسلام، وقاموا بالعبث والهذيان في ذات الباري عز وجل ورسوله الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام، وسخروا من القرآن الكريم والقيامة، حتى أعلنوا بأننا أخرجنا الإله من «بخارى» (والعياذ بالله). فليس لروحاني الآن أن يأكل أموال العوام، ولا أن يخدعهم، وإن الله والرسول وما إلى ذلك كلها حيل وتدابير للروحانيين التي أحدثوها واخترعوها لأغراض وغايات، ومن تلك الحيل وصيّة «بهاء الدين»[1] التي قال فيها: «إن الكفار لن يضعوا أقدامهم على هذه الأرض ما بقيت لبنة واحدة في قبري»، ولقد فضحنا هذه الحيلة وبيّنّا حقيقتها ودمرنا قبره! فلم يتمكن ذلك الخطيب أن يتمالك نفسه ويصبر على تلك الافتراءات، فقام مشتعلاً وألقى خطبة نارية، كذّب فيها الشيوعيين في اتهاماتهم، وأثبت بالدلائل أن هذه الوصية التي ذكرها الشيوعيون ونسبوها إلى الشيخ «بهاء الدين **النَقْشَبَنْد**» وصية كاذبة، وأنها من وضع الشيوعيين، والإسلام بريء تماماً من أمثال هذه الخرافات والأباطيل. وخلال هذه المدة اليسيرة، وصلت كتيبة من الجيش الأحمر، فانتشر الناس وتفرقوا، فجاس الجيش خلال بيوت المدينة، وبدلالة من الشيوعيين المحليين أخرجوا العلماء والمتدينين من الناس وأطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوا الآلاف من المسلمين، وكان الخطيب من بين هؤلاء الضحايا».

---

(١) **بهاء الدين محمد بن أحمد البخاري** (ت: ٧٩١هـ): أحد المتصوفة المشهورين من بلاد بخارى.

وصلنا إلى منزل الشاب في وقت سريع، وكان هذا الشاب ترجماناً لمستشار أفغاني، وكان يقيم في مسكنه. كان الشاب بالنسبة لي في ذلك الوقت كالملك من السماء، فقد صنع لي بطاقة تعريف شخصية التي أفادتني فيما بعد كثيراً. فلما ذهبت إلى «كاگان» (بخارى الجديدة) و«قرشي» و«شهرِسبز»، استخدمت هذه البطاقة كتصريح تنقل في القطارات.

قال لي صاحبي: «إن هذا المستشار الأفغاني رجل صالح ومتدين، وإن له صلة قوية بعالم هندي يقيم في كابل، ويعد حالياً من أبرز زعماء حركة الاستقلال في الهند (علمتُ فيما بعد أن هذا العالم الهندي هو الشيخ منصور أنصاري[1]. إلا أن الذين يلتقون به ويتحدثون إليه أكثرهم من أعضاء الحزب الشيوعي أو لهم صلة بالحزب! كما أن له علاقة قوية بكبار العلماء في بخارى وقرشي وشهرِسبز، وقد يذهب إليهم ويزورهم أحياناً. وفي أثناء ذلك، دخل علينا السيد المستشار بنفسه، وسأل:

«هذا هو ابن أخيك الذي تبحث عنه منذ الصباح؟».

الشاب: «نعم يا أستاذ».

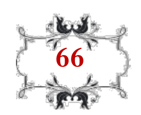
المستشار: «أين يقصد الآن؟».

الشاب: «لقد قدم هنا أمس، ويفكر الآن في ماذا يفعل!».

المستشار: «هل يعرف الفارسية؟».

الشاب: «نعم، لقد قرأ العربية والفارسية».

(١) **محمد منصور أنصاري** (١٨٨٤–١٩٤٦م): ناشط سياسي في حركة الاستقلال الهندية، وأحد قادتها النشطين ضد الاستعمار البريطاني. عاش حياة طويلة في المنفى بأفغانستان وتوفي هناك.



فتوجه إلي السيد المستشار مخاطباً، وأنشد بعض الأبيات العربية والفارسية، وسألني عن معناها ومفهومها، وأشكر الله تعالى أنني نجحت في ذلك الامتحان. فجلس السيد المستشار قريباً مني، وأخذ يقول:

«إن العلماء والمشايخ كانوا قد حرّفوا في الدين ومسخوه، وقد ظهرت حقيقة عقائد المسلمين وانكشفت أباطيلهم!».

أنا: «أية عقيدة تقصد؟».

المستشار: «اكتشف الحزب الشيوعي وصية للشيخ بهاء الدين، وكشف النقاب عنها!».

أنا: «لا يا سيدي! لقد قام عالم جليل بالردّ على افتراءات الحزب عن الوصية وفندها، وبهذه "الجريمة" أطلقوا عليه الرصاص وقتلوه!!».

«حسناً.. حسناً، هذا ما وقع إذاً!».

فغيّر السيد المستشار فورا موضوع الحديث وسألني: «أين تريد أن تذهب؟».

أنا: «سأذهب عبر طريق "قَرشي" و"غُزار" إلى "شهرسبز"».

فخاطب المستشار ترجمانه قائلاً: «اكتب مني رسالة إلى الشيخ جلال الدين إيشان أنني أرسلت هذا الطالب إلى حضرته ليتعلّم ويتربى لديه. وسأصنع له شيئاً لدى مفوّض المدينة غدا».

ثم نظر إلي وقال:

«عليك أن تُعرّف نفسك بأنك من سكان قرية من قرى بخارى، ولا تقل مطلقاً إنك من فرغانة. ولا تظهر لأحد أبداً أنك من فرغانة». فلما سألته عن سبب ذلك، قال: «إن

الإفساد والبلبلة التي حدثت في الأمس، وقابلها الجيش الأحمر وصارعها كان فيها شباب أوزبك كلهم من مواطني فرغانة وسمرقند».

فقلت له: «أجل يا سيدي! وإن المسلمين في تلك المناطق أعرف بالشيوعيين وأعلم بحِيلهم ومظالمهم الشنيعة».

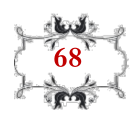
ثم قام المستشار فوضعت يده في يدي وقبّلتها حسب العادات في تركستان، وقلت: «سيدي الكريم! إن حزب لينين وماركس ليس عدوّنا فحسب، بل هو عدوّ كل مسلم، وانظر الى تاريخنا الذي مضى وإلى الحال الذي نعيش فيه تجد العبر والعظات وإنا إن شاء الله لن نترك الأعداء تفعل ما تشاء في أرضنا». وبعد أن قال لي: في أمان الله! رافقتك السلامة! توجه إلى الطابق الأعلى.

كتب لي صديقي رسالة، وذهب إلى السيد المستشار ليوقع عليها، ثم رجع بعد ساعة كاملة، وكان في يده مكتوب آخر وقد سجل فيها تلك الواقعات الدامية في الأيام الماضية، ووثقه السيد المستشار كشاهد عيان. كان صديقي فرحاً جداً، **فجعل يقول:**

«إن الرجل رجع إلى عقله وتنفر من الشيوعية وأبغضها، والحقيقة أنه مسلم صادق غيور، فقد استقر الآن منهج عملنا، وهذا الشيخ المرشد الذي كتب إليه لا يقل عدد مريديه وسالكيه عن ثلث مواطني أفغانستان، ثم هو يؤيد الغازي أمان الله خان[1]

---

(١) **الملك أمان الله خان** (١٨٩٢- ١٩٦٠م): تولى إمارة أفغانستان عام ١٩١٩م، ثم صار ملكًا بعد أن حوّل الإمارة إلى الملكية عام ١٩٢٦م، لكن تنازل عن العرش عام ١٩٢٩م بسبب الحرب الأهلية اندلعت بين القبائل الأفغانية، فغادر البلاد. ثم تولى العرش بعده الملك محمد نادر شاه (١٨٨٣-١٩٣٣م) بعد أن قضى على البغاة إلى أن اغتيل سنة ١٩٣٣م. وعاش الملك أمان الله بقية حياته في سويسرا، وتوفي بها.



ويحميه[1]، والعلاقة بين أمان الله والشيوعية علاقة سيئة جداً، بل بينهما شقاق و عداوة واضحة.

مشى صديقي معي بعيداً ليودعني، حتى وصلت إلى مسجد مغاك، فوجدت المؤذن فيه، فقد رأيته في اليوم الأول عند صلاة الصبح إلا أنني لم أجد فرصة للتحدث معه، والتعرف إليه، فأقبلت إليه وصافحته ثم قدمت إليه عملة (٥) روبلات، وقلت له: «هذه هدية مني، تفضل بقبولها!».

سرّ بها المؤذن كثيراً وسألني: «من أنت؟ وما هي مهنتك؟».

قلتُ: «أنا من سكان شهرِسبز، وأعمل إسكافياً، وكان من أمنياتي منذ زمن بعيد أن أزور بخارى، فقدمتها أمس، لكن الإفساد والبلبلة التي أقامتها الشيوعية كانت من سوء حظي، لقد أرعبتني شديدا.

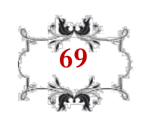
المؤذن: «أوه! إذن أنت أوزبكي، وقمت بمقاومة الشيوعيين!» قالها المؤذن بأسلوب محير.

أنا: «لا يا أخي، فإنني لما وصلت هنا كانت المدينة قد عم فيها الفوضى والإفساد، فما لي وللفوضى والإفساد؟» أظهرت براءتي على الفور.

المؤذن: «اسمع يا عزيزي! أنا أيضًا من سكان شهر سبز. إن الشيوعية واليهود والأرْمَن قد اجتمعوا بالأمس وأفسدوا وعاثوا في المدينة وأبادوا الناس بالشراكة مع الجيش

---

(١) لعل هذه إشارة إلى أنه كان من ضمن حركة «الأمانيّين» (Amanullah Loyalism) التي أُقيمت من قِبل مؤيدي الملك أمان الله خان لتوليه العرش مجددا، فحاولوا محاولات عديدة، ولكن باءت كلها بالفشل.
ينظر للمزيد: Fire in Afghanistan 1914-1929, Rhea Stewart, (p. 569-577).



الأحمر، وفتشوا عن الروحانيين والعلماء وانتقوهم ثم قتلوهم، فلم يمض أربع ساعات حتى هجم على المدينة فئة من الأوزبك فجأة، ولا ندري من أين قدموا، ثم غابوا عن المدينة بعد أن قتلوا ٦٠٠-٧٠٠ شخص من جنود الجيش الأحمر والشيوعيين!

حكى المؤذن الحادثة بتفاصيلها، فهاجت عواطفي وثارت من كلماته، وفكرت وقلت في نفسي: لا بد من الاتصال بهؤلاء المجاهدين. فسألته بصوت فيه لطف ورقة:

«السيد داملا! هل يمكنني أن أحصل على معلومات مفصلة عن هؤلاء الأوزبك؟».

المؤذن: «لماذا؟ هل لك شغف بهؤلاء؟».

أنا: «سيدي إن ما حكيت لي من عمليات الشيوعيين الدامية من القتل والإبادة والتعذيب والإهانة، وما قصصت لي من ضعف المسلمين وهزيمتهم والشدائد التي يتعرضون لها! فهل يوجد بعد ذلك مسلم لا يغلي دمه ولا يشتعل إذا سمع هذه الحكايات والواقعات؟ فسؤالي هذا مما تقتضيه الفطرة بدوافع الإيمان».

المؤذن: «أنت من الأوزبك؟».

أنا: «السيد داملا! إذاً أنت من هؤلاء المجاهدين؟». بدلاً من الرد وجهت إليه سؤالاً! فسكت المؤذن خائفاً وقال بعد مدة: «لقد حان وقت صلاة العشاء، فاجلس في هذا المكان، وأنا راجع إليك بعد زيارة أسرتي لمدة قليلة».

أنا: «بل أنا أقضي الليلة هنا في المسجد».

المؤذن: «حسناً كما تحب!» قالها المؤذن ومضى بدون أن يسلم علي بخطوات مسرعة، لقد رابتني هذه السرعة الغريبة منه.

هذا الرجل لا بد أن يكون من رجال الحزب الشيوعي، ولا شك أنه ذهب ليخبر الشرطة عني، وقد كانت تصرفاته وكلماته مشبوهة، فرفعت أمتعتي مسرعاً وخرجت من



المسجد، وسرت إلى حوض ديوان بيگى، وقضيت الليلة كيف ما اتفق. ثم استيقظت في الصباح، واتخذت طريقي إلى كاگان. فما زلت أسير حتى مررت بقصر عظيم فاخر، وفوجئت بوجود صديقي الشاب أمامه، وتبين لي أن هذا القصر مكتبه الذي يعمل فيه! فقال: «لقد ذهبت الليلة الماضية بالطعام إلى مسجد مَغاك، لكنني رأيت زحاماً من ١٠-٨ جنود حمر واقفين أمامه فرجعت من بعيد. فقلت له: «لقد صدقت شكوكي من أفعال ذلك المؤذن!» ثم تحدثت معه مدة من الزمن، وأعطاني صديقي الشاب عملة من خمس (٥) روبلات، ثم ارتحلت إلى كاگان.

۞۞۞

تقع «كاگان» على بعد ٨ أميال من «بخارى». كان يجري بين المدينتين قطار على سكة حديدية قصيرة، لكنه أوقف منذ أيام، فاضطررت إلى قطع المسافة مشياً على الأقدام. توجد في «كاگان» محطة كبيرة، وهي ملتقى طرق للقطارات، وكانت هذه القطارات تتجه إلى عدة اتجاهات: «طاشكند» و«فرغانة» و«تِرْمِذْ» و«عَشْق آباد» و«موسكو». فلما وصلت إلى المحطة علمت أن قطاراً محلياً يتجه إلى «قرشي» في الأسبوع مرة واحدة فقط، وأما القطارات الأخرى فهي مشغولة في شحن العتاد العسكري ونقل الجيوش!

كان هنالك مطعم للفُرس قريباً من المحطة، فدخلت وجلست على أحد كراسيه وطلبت الشاي الأخضر. فجاء بالشاي رجل كبير في السن. فلما وضع الشاي على الطاولة ثم نظر إلي، وأخذ يدندن (بالفارسية): «يا رب! كل شيء بتقديرك، فاحفظنا جميعا!»

نظرتُ إلى الرجل المسن محدقا، وقد وضع الشاي ثم مضى، وبعد قليل عاد إلي وسألني (بالفارسية): «يا بدوي! هل تعلم الفارسية؟».

أنا: «قليلاً».



الرجل: «ألستَ من فرغانة؟ ألا أعرفك؟».

أنا: «إن شهرسبز بما فيها من كثرة الثمار والهواء الطلق وارتفاعها عن سطح الأرض شبيهة بفرغانة، فلعلك تحسبني من فرغانة لأجل هذا السبب؟».

ذهب الرجل المسن وعاد بعد مدة بخبز روسي مزدوج، فخرج من فمي بدون وعي: «لم أعتد أن آكل خبزهم المزدوج ثم أخرجت من حقيبتي قطعة من الخبز السمرقندي» (وكان السيد داملا بخاري أعطاني عددا منه في ميمن قشلاق) فأمعن الرجل المسن النظر في هذه القطعة من الخبز، والتفت يمنة ويسرة، ثم قال بالفارسية بصوت خافت: أليست هذه القطعة مما بقي في مائدة البواسل والمقاتلين المغيرين؟».

فتجاهلت قائلاً: «عذراً يا سيدي! هذا القدر من الفارسية لا أعلمها؟ إنما أعلم بقدر ما يكفيني ويوفي بالغرض!».

فابتسم الرجل المسن وأخذ يقول: «بني! إن هذه القطعة من مائدة داملا بخاري، ألم تأت بها من هناك؟».

أنا: «داملا بخاري من هو؟ وما لي ولمائدته؟!».

الرجل: «أقصد داملا بخاري الذي يقيم في المشرق الشمالي من سمرقند في ميمن قشلاق، ألم تذهب إليه؟ ألست تذهب الآن إلى شهرسبز لدى خالك؟». قالها المسن والابتسامة تملأ وجهه. وقعتُ في دهشة وحيرة من أمري! فقلت في نفسي: هذا الرجل إما أن يكون جاسوساً شيوعياً كلفوه بمراقبتي! أو أن يكون له علاقة بجماعة المجاهدين الشجعان.

أخذ المسن بيده كوب الشاي وهو يبتسم ومضى، ثم عاد بعد ٥-٦ دقائق، وقال: «إن الحادثة التي وقعت في بخارى لا توصف، لقد قتل من المدنيين الأبرياء عدد لا يحصى!



وإنما هذه البداية، وانتظر وانظر إلى ما يؤول إليه الأمر». ثم فاجئني بسؤال:

«هل انتهيت من صلاة العشاء».

قلت له: «نعم». فقال: «يغادر الليلة قطار محلي إلى قَرشي في الساعة الثالثة، فاركب فيه».

كان كلامه كله بالنسبة لي مدهشاً محيراً، وكان ذلك أنه يعني مطلع على جميع خطواتي في السفر، فجعلت أنظر إليه ساكتاً، بدون أي رد، ثم مضى الرجل وبعد نصف ساعة تقريباً رجع إلي وقدم لي ورقة وهو يقول:

«خذ، هذه تذكرة القطار إلى قرشي!». فاطمأن قلبي الآن بأن هذا الرجل المسن على صلة بالمجاهدين الأبطال، فكرت قليلاً ثم خطر ببالي أن ترجمان الشيخ الأفغاني الذي التقيته في بخارى كان أيضًا من رجال المجاهدين، ولعله كان قد اطلع على قدومي إلى بخارى، وعرفني بعلامة خاصة بي، كما عرفني هذا الرجل بقطعة من الخبز السمرقندي، ومن ذلك أنه عندما التقى بي تحدث معي بدون أي تكلف وتصنع كأنه يعرفني منذ زمن بعيد!

ثم استغرقت في التفكير وطاف بي الخيال حتى وصلت إلى تلك الجبال التي لم يزل المجاهدون الباسلون يقاتلون فيها بالشيوعيين منذ ١١-١٢ عاماً. كان الرجل يراقبني منصتاً، وينظر إلى تقاسيم وجهي واقفاً قريباً مني. **ثم خرجت من عالم الخيال وسألته بجرأة:**

«كيف كان حال السيد داملا بخاري؟».

فضحك الرجل وقال: «القارئ الألماسي بخير وسلامة».

ثم هدأ وقال بجدية تامة: «إن الأوضاع في "قَرْشي" و"غُزار" و"كِتاب" و"شَهرِسبز" لم



تزل حسنة إلى الآن، ويوجد في "قرشي" مطعم أحمر بالقرب من المحطة، امكث فيه، فإذا قربت من اللصوص والسارقين يحصل لك طمأنينة و سكون». دفعت إليه قيمة التذكرة والشاي فتناولها مني، وقال:

«إن هذه النقود تجمع في حسابك!»، ثم ذهب بعد أن استودعني الله، و قال: «في أمان الله!»

وصلت إلى المحطة في الساعة الثالثة إلا ربعاً، كانت غرفة الانتظار مملوءة بالمسافرين، وكان أمام شباك التذاكر زحام شديد. كانت التذكرة موجودة لدي، فتقدمت إلى رصيف المحطة، وكان جندي أحمر واقفا على الباب، فأوقفني صائحاً: «التصريح.. التصريح! وأين مسافرٌ؟ ناولته تذكرتي بالتجاهل، وسلمني الله عز و جل، فلم ينظر الجندي إليها ممعناً، وظن التذكرة تصريحاً، فأذن لي بالدخول إلى الرصيف، حتى وصل القطار في الساعة الثالثة كاملة، ومكث لمدة خمس دقائق. وكانت الجنود تقف عند كل باب عربة من عربات القطار حاملة البنادق، و كان النظام في بلادنا أن يكتب رقم العربة على التذكرة، لكن لم يكن في تذكرتي أي رقم!

ذهبت إلى كل العربات ولم يؤذن لي بالدخول، وفي تلك الحالة الحرجة بين التردد إلى الأمام والخلف، تحرك القطار وبدأ في السير، وبدأت أبواب العربات تغلق، فطلبت من جندي أن يرأف بحالي ويعطف علي، فدفعته الرحمة والشفقة، وترك لي فسحة من الباب أدخل منها إلى إحدى عربات القطار.

ركبت القطار ثم ركب من بعدي ستة من اللصوص الروسيين، فتعلقوا بعروة الباب، فلما ازدادت سرعة القطار دخلوا إلى العربة. كان في العربة ثلاثة رجال من الأوزبك، وكانوا من شرقي بخارى، ذوي وجوه وقورة وطوال القامة، وكانت رؤوسهم



كالقِرب، وأصابعهم عظيمة مثل كفّي، وعليهم جبة طويلة، وعلى رؤوسهم عمامة كبيرة ضخمة.

وفوجئت بأن هجم علي الروسيون الستة السفهاء، وأخذوا ينزعون مني ما لدي من الأمتعة، وأرادوا رميها إلى خارج القطار. فاستغثت صارخاً، لكن هؤلاء الأوزبك لم يتحركوا مطلقاً. فما زال الروسيون يضربونني بشدة وعنف، و صرت أصيح ألماً ووجعاً. وكان الخبثاء كلهم أقوياء، بنيتهم صلبة متماسكة، حتى وكزني أحدهم على عنقي بشدة، فدار رأسي وأظلمت عيني و صحتُ قائلاً بدون وعي: «أغثني يا ربّ! فما إن خرج من فمي اسم الباري عز وجل، حتى جُن الروسيون اللئام وتغيظوا، وسبني أحدهم بأمي، وصاح يقول: «الكلب الروحاني !؟».

ثم بدأوا بالوكز والركل والضرب، وما زالوا يسبونني ويشتمونني: «على دينك، ...... على خالقك، ...... على قرآنك».

دافعتهم مدة قليلة، لكنهم كانوا ستة رجال وكنت وحيداً، فأسقطوني على الأرض وأمسكوا بساعدي وساقي، وحاولوا أن يلقوني من النافذة. وفجأة فتح باب العربة المجاورة وخرج منه مفتش التذاكر حاملاً مصباحه. فلما رأوه أسرع الروسيون العابثون وغادروا العربة، وفروا إلى العربة الأخرى من الناحية الأخرى. قصصت لمفتش التذاكر ما حدث لي، فنقلني إلى العربة المجاورة وأقعدني فيها.

كان كل جزء من بدني يتألم، وقد انتفخ وجهي من الوكز والصفع، سألني الجالسون عما حدث؟ فبينتُ لهم ما حدث لي، ثم علمت منهم أن هذه العمليات الجنائية قد أصبحت عادة للصوص الروسيين اللئام، فقد شاع في القطارات الغصب والضرب والسرقة. كانوا يغصبون أموال من شاءوا ويأخذونها ظلماً، وصاروا يلقون من أرادوا من

القطار، فلا عدل هنا ولا إنصاف ولا نصرة!

وبالعكس قد يجعل المظلوم المستغيث مجرماً آثماً! ولم يكن أحد ليقوم فيذكر عليهم ويمنعهم من الظلم والعدوان. فكان لا يسمع إلا لمن كان يكون من أعضاء الحزب الشيوعي أو من كمسومل (اتحاد منظمات الشباب الشيوعي السوفيتي)، فأشار إلي بعض المسافرين أن أظهر نفسي واحداً منهم أي من كمسومل! وإلا سوف يلقون بالتهمة عليك، فقلت: هذا لن يكون مني، لا يمكن أن أتظاهر بهذا».

ثم بعد مدة قليلة جاء اثنان من شرطة القطار، ومفتش التذاكر، وأمسكوا ثلاثة من هؤلاء العابثين السارقين، فجرى البيان والسماع، ثم أطلقوا سراح السارقين، بعد أن أثبتوا وقرروا بأني روحاني!

نزلتُ في محطة «قرْشي» في الصباح الباكر. ولما سرتُ إلى طريق المدينة، التقيت برجلين من القازاق فصحبتهما. كان هذان الرجلان من الوطنيين القازاق المنوّرين، ويعني ذلك أنهما من هؤلاء الرجال الذين قاموا بحركة في ولاية قازاقستان[1]، وقاوموا الشيوعيين فيها لتحرير أنفسهم من سلطة الشيوعيين. وكان أحدهما محامياً كبيراً ذائع الصيت. فلما سمع قصتي وعلم أحوالي؛ عاملني بلطف وشفقة، وأجلسني معه في المطعم الأحمر في المدينة.

---

(١) قسّمت حكومة الاتحاد السوفيتي الأراضي الإسلامية ببلاد تركستان إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وقازاقستان، وقرغيزيا، وتركمانستان، وطاجيكستان، وجميعها كانت محكومة بالمستعمر الروسي المتمثل في سكرتير الحزب الشيوعي في كل منطقة من هذه المناطق. ينظر للمزيد: المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ للدكتور محمد علي البار (١/ ٧٠-٧١).

وفي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، انعقد تجمع للقوات في ميدان السكة الحديدية. في الحقيقة كانت تجري هنالك محاكمة ضد عالم شهير من "قرْشي" في المحكمة العسكرية، وأعلن قبلها في المدينة وأمر الناس ليحضروا ويشاهدوا المحاكمة وكان العسكر ما بين ٨٠-٩٠ جندياً، فانعقدت جلسة القضاء في ناحية من الميدان، وكان الازدحام شديداً. ثم أحضر هذا الرجل الشجاع الناطق بكلمة الحق بين حراسة شديدة، وكان التهمة الموجهة إليه أنه يقوم بممارسة الأعمال الروحانية، وينشرها ويدعو إليها، وأنه يرد على الشيوعية وينقد أفكارها ومبادئها.

«ما ارتكبت أية جريمة إلا ما أقوم من الدعوة إلى الدين، وتبليغ أحكامه ورسالته، وهذه مسؤولية شرعية، أوجبها على الدين، ولقد بذلت جهدي في اقناع الخصم والمعترضين بدلائل وبراهين، ومهما يكن من الأمر، فإنني لا أزال أقوم بهذا الواجب الشرعي، ولا أمسك عنه طول حياتي». هكذا رد شيخ مدينة قرشي على التهم.

فقال القاضي العسكري وهو يصيح غضباً: «إن ما تقوله واجب عليك هو نقض للقانون وخروج على الحكومة! فالممارسات الدينية والفعاليات الروحانية ممنوعة قانوناً».

فقال الشيخ: «إن الدين الحق الذي أرسل الله به رسوله، والكتب السماوية المنزلة من الله، والملائكة والآخرة والقيام أمام الله لحساب الأعمال التي عملها في الدنيا، فهذه العقائد الرصينة يؤمن بها أغلب المواطنين التركستانيين، وإن الشيوعية عددهم أقل بقليل من نصف الواحد من المئة. وفيهم من يعُد من البغاة أيضًا، فيعاقَبون على جرائمهم ويؤاخذون على "جناياتهم"، كما يزعمون. إن الأغلبية من أهل هذه البلاد لن يتركوا دينهم ولن يدعوه.. ».

لم يدعوه يكمل عبارته حتى أمطروه بوابل من رصاصات بنادقهم، وجعلوا جسده



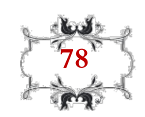
ثقوباً كالغربال.

رأيت العسكر قد أحاطوا بالناس، ولم يكن في أيدي الناس أي سلاح، لكنهم لما رأوا هذا العالم المجاهد يسبح في دمائه، احمرت أعينهم بالدماء، وضج الميدان بالنعرات والتكبيرات، فتحولت أفواه بنادق الجنود نحوهم واحدة تلو الأخرى، وبدأت تمطرهم بالرصاص. وهنا قام عدد من الرجال الشجعان واختطفوا بعض البنادق والرشاشات من أيدي العسكر الحمر، فابتدأت معركة بين الطرفين. وبعد مدة يسيرة وصلت عدة كتائب من الجيش التي كانت مرابطة عند محطة القطار ووسط المدينة ومستودعات السكة الحديدية، فساد السكوت الرهيب، وعم الصمت المرعب بعد ساعة ونصف في كامل المدينة. وكنت قد اختفيت في عربة من قطار الشحن، وكان الميدان قد خلا من الناس، فخرجت من العربة ووصلت إلى المطعم محترزاً مستتراً، وكان صاحباي ينتظرانني في المطعم، قلقين علي ويفكران في مصيري، فلما رأياني سرى الفرح والسرور في وجهيهما.

إنه من الصعب جدا أن يحصي عدد الشهداء في ذلك اليوم برصاص الجيش، لا يمكن لأحد أن يحصيهم بالضبط. وكانت الأقاويل التي يتناقلها الناس على كل حال أنهم بلغوا المئات!

أقمنا بقرشي ثلاث ليال، وفي الليلة الرابعة ارتحلنا إلى «شهر سبز»، وكان صاحبي يقول لي: «الأوضاع في شهرسبز طيبة وآمنة إلى الآن!" ولكن إلى متى يبقى هذا الأمن؟ لقد سيطروا على قرشي، وستقع نفس الدراما الدموية هنالك أيضًا!».

لم تنشر الصحف الروسية عن هذه الإبادة الجماعية حرفاً واحداً على الإطلاق، ورغم ذلك فقد انتشر الخبر المأساوي في الأقطار والنواحي، وأثار عواطف المسلمين إثارة، وحركهم بشدة. وكان الضيق الشديد مستبداً في قلوب الناس في قرشي، فلما



ارتحلت إلى «غزار» كان الجيش الأحمر مشتغلا في الحصار على «قرشي».

وصلتُ من «قرشي» إلى «غزار»، ثم منها إلى «شهر سبز»، وهذه مدينة صغيرة جميلة ومحاطة بالأسوار من أطرافها الأربعة، وتبعد عن «قرشي» ٧٢ ميلا[1]، وتقع البوابة الرئيسية للمدينة على بُعد ٧ أميال[2] من المحطة، فأقمت بمسجد ملاصق للسور. كان المسجد كأنه نُزل كبير، ويجري جدول صغير تحت صحن المسجد، ويوجد حمام على جانبه، والحديقة على جانب آخر، وكانت بطرفي الجدول المائي أشجار خضراء ومتنوعة، وبالقرب من الحديقة قاعة عظيمة تسع ٥٠٠ رجل تقريباً، ثم كان بجانبي المسجد حجرات عديدة، وبالجملة كان المسجد غاية في الروعة والجمال وبما فيه من مرافق وخدمات.

ذهبت من المحطة إلى المدينة على عربة الحصان. فلما وصلت، سألتُ بائعاً للنّاص (تبغ الغمس) عن عنوان «الشيخ الخوقندي» أي خالي الكريم، فنظر إلي بتمعن وأطال النظر، ثم دفع أجرة سائق العَربة ورفع أمتعتي وأدخلني الطابق الأعلى من دكانه، وأجلسني عنده ثم أعد لي شاي القشدة. التركستانيون يكرمون ضيوفهم الأعزاء بتقديم هذا الشاي، ويُصنع عادة من الحليب والسمن وبعض الفستق والجوز وغيرها، ثم تُلقى كمية من أوراق الشاي الأخضر في كوب من الماء المغلي، ثم يقدم إلى الضيف مع الخبز. شربت الشاي، فسألني صاحب الدكان:

«أنت من أقرباء الشيخ تُوره؟».

أنا: «كيف أدركت ذلك؟».

---

(١) حوالي ١١٥ كم.

(٢) حوالي ١١ كم.



صاحب الدكان: «من شكلك ومظهرك، ومن سلوكك وتعاملك».

أنا: «الشيخ الخوقندي خالي».

صاحب الدكان: «هل قدِمتَ إلى هنا من قبل؟».

أنا: «لا، لم آت من قبل، ولا رأيت خالي قط!».

صاحب الدكان: «جئت مباشرة؟ أم توقفت في مكان بالطريق؟».

أنا: «خرجت من داري قبل ثلاثة أشهر، وذهبت إلى خوقند وسمرقند وبخارى وكاكان، ثم مررت بقرشي وغزار حتى وصلت هنا».

صاحب الدكان: «متى خرجت من قرشي؟».

أنا: «مساء الأمس».

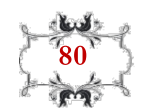
صاحب الدكان: «لعلك لم تنم من الليل، فاسترح ولا تخرج حتى أعود إليك».

«يا للمصيبة التي حلّت بي!» قلته في نفسي، ولعله أحسّ بما في قلبي من الخوف والفزع لما نظر إلى وجهي، فعاد يقول:

«ما زال العسكر الأحمر يتجول في المدينة منذ أمس، ولقد فرضوا حراسة شديدة على بوابات قلعة الشيخ الخوقندي، وأنا اسمي تيميربك، خُويدم للشيخ الخوقندي».

أنا: «لكن لماذا تحدث هذه الإجراءات؟».

تيمير بك: «لقد وقعت كوارث في بخارى، وأطلق الجيش الأحمر الرصاص على عالم جليل من قرشي، وهو المفتي خالمُراد داملا وقتلوه، وأخذوا يفتشون في كل بيت من بيوت المسلمين، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وأعراضهم، ولم يتخلص من سيطرة الجيش وعدوانه إلا من كان يسكن في الصحراء أو البادية.... وللعلم يقيم هنا عالم ومرشد صوفي أفغاني: السيد جلال الدين».



أنا: «هل أنت تعرفه؟».

تيمير بك: «نعم! هو يقيم في غزار، وله علاقة طيبة بالشيخ الخوقندي، ويزوره عادة في كل أسبوع مع ٢٥-٣٠ من مريديه، طوال القامة، عظام الأبدان، ويقيم لدى الشيخ الخوقندي إلى يومين أو ثلاثة أيام، ويتمتعون بحسن ضيافته وكرمه! لكن ... هو رجل ...» إلى هنا توقف صاحب الدكان وسكت.

أنا سألته «كيف هذا الرجل؟» فتمعر وجهه، وكأني سألته سؤالا مُحرجا!

تيمير بك: «يا ابن السيد الشريف! أجيبك عن سؤالك غداً، والآن أذهب إلى قلعة الشيخ، فإن وجدت فرصة مواتية أخبرك لتحضر عنده».

فلما انتهى من كلامه مضى، ونمت على السرير مستوياً. كنت متعباً جداً منذ أيام، وكان قلبي مضطرباً وفزعاً، فلما وجدت هذا المكان الهادئ أغلقت عيني ونمت هادئاً. رجع تيمير بك في المساء، وأيقظني بلطف، وقال:

«لقد وُضع الشيخ الخوقندي تحت الإقامة الجبرية في قلعته، ومن ذلك لم يذهب مسلم إلى عمله لا في المدينة ولا في القرى المجاورة، والحوانيت والمحلات مغلقة، وأما الجيش الأحمر فهم يتجولون في أنحاء الأسواق كالكلب العقور، وظلوا يطلقون الرصاص في الهواء لبثّ الرعب والفزع في قلوب الناس. لهذا لا يمكن لك أن تذهب إليه الآن، وقد وجدت مسجدا كبيرا ورتبت إقامتك فيه. وإمام المسجد هو أحد زملاء الشيخ الخوقندي، لكن بقي أمر: لو سألك أحد عن سبب قدومك إلى شهر سبز فقل له: أنا عامل متولي هذا المسجد، وأقوم على عقاراته وأراضيه في "غزار"، وبقية الأمور فوّضها لي». وقد ظهر لي فيما بعد أن تيمير بك من رجال خالي المقربين، وهو مكلف من جانبه ليقوم على أمور المسجد.

في تلك الليلة انعقدت في المسجد جلسة للمشاورة، فقد أصدر الحزب الشيوعي منشوراً مُوجّها إلى كافة القائمين على أمور المساجد الكبيرة في المدينة، وجاء الحكم فيه بأن تسلم المساجد إلى الحزب في التاريخ الفلاني من بعد صلاة المغرب إلى الساعة الثامنة صباحاً، وذلك لإقامة حفلات تخص الشيوعيين، وبعد مناقشات طويلة اتفق الجميع على أن ترفع شكوى إلى مفوض الشرطة، كما صوّتوا قرارا أيضًا ضد هذا المنشور من الحزب الشيوعي. وبطبيعة الحال لم تقبل أي صحيفة محلية نشر هذا القرار، كما لم يقم مفوض الشرطة بأي عمل حسب النظام، وإنما قال بدون أية مسئولية: «إن الأحكام والمراسيم التي يصدرها الحزب الشيوعي لا يحق لمواطن سوفيتي أن يرفضها، كما لا يملك المفوض أن ينقضها».

كان ذلك اليوم الرابع الذي عقد فيه الحزب الشيوعي حفلاته في المساجد الكبيرة في المدينة في وقت واحد، وأجبر أهالي الأحياء أن يحضروا الحفلات بأزواجهن وبناتهن المحجبات! فدخلت الشرطة المسلحة بقيادة جندي أحمر بيتاً بيتاً، وأخرجوا الرجال والنساء وساقوهم كالقطيع إلى الحفلات. وكان رجلان من الشيوعيين واقفين على بوابة المساجد واحد على اليمين والآخر على اليسار، أتيا من خارج المدينة. كانا ينزعان البرقع والرداء والجلباب من وجوه النساء وأجسادهن، ويلقيانها في صحن المسجد، فصارت كومة عظيمة، وفي الساعة العاشرة مساء أوقدوا النار فيها أمام مشهد الجميع.

ثم بدأت الخطب واحدة تلو الأخرى، يتحدثون فيها ضد الحجاب والجلباب، ويلقون خطباً نارية بحجج فارغة. ثم قدموا يهودياً باشكيريّا بالألفاظ التالية:

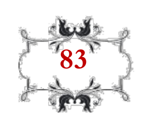
«هذا السيد من أعضاء الحزب الشيوعي العظيم في باشقوردستان[1]، وقد زار قرشي قبل أسبوع ثم تشرف بزيارة شهرسبز!».

فأخذ هذا اليهودي يقول أثناء خطابه:

«إن الحجاب سمة ظلم الرجال على النساء، والآن تحررت النساء، ويحق لهن أن يعملن في المكاتب، ولقد أدرك هذه الحقيقة أهل فرغانة، فأصبحت نسائهم يتمتعن بنعمة الحرية وسعادتها، ولقد زالت صعوبات النكاح والطلاق ومشكلاتها، فظل النساء يعشن في أمن وطمأنينة وسعادة، بعيدة عن سيطرة الرجال وعدوانهم وظلمهم. آه.. لو وجد هنا رجل اطلع على أحوال فرغانة أو سمرقند أو بخارى لصدقني فيما بينته. إن هذا الدين والرب والرسول والقرآن والقيامة والحساب والكتاب والملائكة والجنة والنار، كلها حيل ودجل وافتراءات. إنما اخترعها الروحانيون وأعان عليهم الإقطاعيون والرأسماليون. لقد كشف القائد لينين وستالين هذه الأكاذيب وأزالا النقاب عن هذا المكر والخداع، وإن الحزب قد عقد هذه الجلسة لإبلاغ رسالتهما إليكم ولإرشادكم إلى طريق السعادة والمنهج».

كان هذا الهذيان مما لا يتحمل، لكن شيوعياً آخر قام فتجاوز الحدود كلها، فلما صعد المنبر نسي كل شيء، فقال ما شاءت نفسه، وأثناء كلامه بصق على المنبر وألقى فيه من نخامته، ثم وقع نظره على مصحف شريف في أحد الرفوف، فوثب وثبة القردة، وأخذ المصحف الشريف وعبث به، ثم ذهب به إلى صحن المسجد وألقاه في رماد الحجب

(١) **باشكيريا** ويقال لها قديما "باشقُرد ستان": أكبر جمهورية إسلامية ذات حكم ذاتي ضمن الروسيا الفيدرالية الآن، وسكانها الباشكيريون يعتبرون من شعوب تركيّة وأكثرهم مسلمون.



والأغطية الملتهبة، وصاح بكل قوته قائلاً:

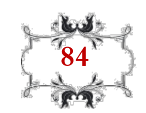
«إننا شيوعيو شهرسبز، نأخذ العهد على أننا لن نترك الخرافيين، ولن ندعهم يعيشوا رغداً في مساجدهم وزواياهم، وكما قبضنا على مراكز الروحانيين في بخارى وسمرقند وفرغانة، وفتحناها حتى قام أهل تلك الديار وعارضوا الروحانيين، كذلك سنفعل في شهرسبز».

عجزت أن أتمالك نفسي، فهممت بالقيام لأرد على هذيان هذا الرجل، فسبقني إليه تيمير بك فقال:

«أنتم أبناء يهود، وهذا الحي والمسجد للمسلمين، ويوجد في هذه المدينة ست من كنائسكم، فقوموا وأحرقوها أولاً حتى يتبين أنكم شيوعيون صادقون. أنتم تقولون: لقد رضي أهل فرغانة وبخارى وغيرها بالشيوعية وقبلوها علماؤهم وعامتهم، إنكم كاذبون ويشهد عليكم هذا الشاب». وأشار إلي تيمير بك، فقمتُ وقلت بصوت مرتفع:

«إن ما قاله الباشكيريّ لا تصح منه كلمة واحدة، لقد قام العلماء في فرغانة وغيرها وأجابوا على دعاوى الشيوعيين، واحتجوا عليهم وتحدوهم...»، فما أن انتهيت من كلامي حتى هجم أهل شهرسبز المسلمون الغيارى على الشيوعيين. وعلى الفور وصلت ميليشيا الجيش الأحمر وأعلنوا اختتام الجلسة، وأمروا: «ليرجع كل واحد إلى بيته».

كنا مستغربين من هذه الأوامر! كيف يأذن الجيش الأحمر بالرجوع إلى البيوت دون أن تسيل الدماء وتزهق الأرواح؟! والواقع أن الشيوعيين عبثوا وفعلوا ما فعلوا في مسجدنا، فاشتعل المسلمون غضباً وحمية. فحدث في بعض المساجد جدال شديد وصراع بينهم وبين الشيوعيين، ولما وصل العسكر الأحمر لمساعدتهم، انتزع المسلمون أسلحتهم من أيديهم فهرب العسكر هنا وهناك، عاجزين فاشلين، ولم يلبوا دعوة



الشيوعيين في مسجدنا.

وفي الساعة الثانية عشرة نهاراً، عاد الجيش الأحمر إلى معسكراتهم. وقد زالت المراقبة الشديدة على القلعة، وكان ذلك أمراً لم يتوقعه أحد، والحقيقة أن الحكومة الشيوعية أرادت أن تجرب وتطلع على مدى إلمام أهل «شهرِسبز» بالواقع المحيط بهم من باب جس النبض، فهل لديهم رؤية نفقية أم أنهم يطلعون على مجريات الأمور في البلاد؟ كما أرادت أن تعثر على شعورهم وأحاسيسهم تجاه دينهم وثقافتهم وتعاليمهم، هل يقومون بالدفاع بشدة وقوة عنها أم لا؟ كذلك أرادت أن تعرف ما هو مركز المرجعية لعامة المسلمين في الحب والولاء؟ وما هي الجوانب الضعيفة في المسلمين وعلمائهم التي يمكن استغلالها؟

ولم تزل الشيوعية تقوم بمثل هذه التجارب في المناطق كلها، واحدة تلو الأخرى، وكانت تختار رجالاً غير مشهورين وقليلي الأهمية والتأثير في الحزب، فإذا اشتعل لهذه العملية الناس سخطاً وكانت ردة فعلهم قوية أعلنت الحكومة أن هذه الواقعة لا علاقة لها بالحكومة الشيوعية في شيء، وليست هذه سوى تصرفات شخصية قام بها عدد من الرجال العشوائيين. كما أن الحكومة كانت تعدم شنقاً رجلاً أو رجلين بعد أن تثبت أنهما أعداء العامة من الناس، كي يطمئنوا على الحكومة وأفعالها بأنها تراعي النظام، وتسير وفق القوانين، وبأنها تصنع برامج ومناهج أكثر نجاحاً وعدالة!

فلما رجع الجيوش إلى معسكراتهم، عاد السكون إلى المدينة وانتشرت الطمأنينة في قلوب الناس، تكلمتُ مع تيمير بك بانبساط وتوسع، فعلمت بأنه يعمل بصفة مستشار سياسي لخالي، وكان قد سافر إلى «بخارى» و«سمرقند» و«طاشكند» عدة مرات. فلما تطرق الحديث إلى ما حدث في الليلة الماضية، قال: «سيقوم هؤلاء الأعداء بعملية أخرى

واعتداء جديد».

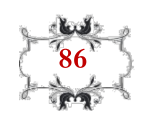
ثم ذهب إلى خالي الشيخ الخوقندي، ليطلع على أحواله وماذا حدث له، ولما رجع إلي كان وجهه يتهلل فرحاً، وأخذ يقول: «بناء على شكوى من عدد من الشباب اليهود الشيوعيين، قام الجيش الأحمر بتفتيش منزل الشيخ الخوقندي، فقد قدّم هؤلاء اليهود شكوى إلى الجيش بأن هذا الشيخ يظلم العامة من الناس، ويحرضهم ويحرشهم على الشيوعية، وحاصل ما وجدوه بعد التفتيش في غرفة الشيخ ثوبان رثان، وحذاء، وجلد كبش ملون، ولحاف كبير، وإناء شاي من الطين، وغلاية شاي من نحاس، فهذه جملة ما لدى الشيخ من أثاث في البيت!».

ثم وجدوا في دار الضيافة سجلاً، كتب فيه الإيرادات والمصاريف: كم مبلغاً دخل عليه؟ ومن أين؟ ومن جاء به؟ ومن استلمه؟ وأين أنفقه؟ وما إلى ذلك. فأصبح الضابط مندهشاً بعد أن حسبها درهماً درهماً، ثم رجع مع فريقه من حيث أتى، بدون أي اعتراض ولا قيل وقال.

وبعد أسبوع جاء إعلان من مفوض الشرطة، فكان رجل يضرب على الطبل ويعلن قائلاً:

«لقد قام بعض أعضاء الحزب الشيوعي بتصرفات من عند أنفسهم، وغير قانونية، والحكومة لا علاقة لها بشيء منها! ولقد قامت الحكومة بعقاب هؤلاء الرجال، وإن الحكومة لا تريد أن تتدخل في الشؤون الدينية والقضايا الشرعية، نعم.. إذا أحب رجل أن ينضم إلى الحزب الشيوعي وأن يكون عضواً فيه، فإنها تنقذه وتخلصه بكل تأكيد، من أيدي سيطرة العلماء والمرشدين المتعصبين».

ثم تبين أنه قد تم نشر هذا الإعلان في تلك المواطن التي قام فيها الشيوعيون بالإساءة



إلى الإسلام وأهله وعقائدهم وشعائرهم، مثلما حدث في شهرِسبز.

۞۞۞

قدّمني تيمير بك إلى خالي الكريم، فضمني إلى صدره، وكان قد ناهز الثمانين من عمره، لكنه رغم ذلك يتمتع بصحة طيبة وعافية، وكان أبيض مشرباً، أبيض الشعر واللحية، ذا وجه وقور، وتعلوه هيبة، فسألني قائلاً: كيف حال أمك؟ ومن تركته معها؟

أنا: «لما فارقتها قبل ثلاثة أشهر كانت على قيد الحياة، إلا أن حقوقها كانت قد سلبت فحُرمت منها».

خالي: «الحرمان من الحقوق وإسقاطها! ماذا تعني؟».

أنا: «الإنسان الذي يؤمن بالله ورسوله والجنة والنار واليوم الآخر والكتب السماوية والملائكة، يعلن فيه بأنه روحاني، ثم تسقط على إثرها حقوقه المدنيّة».

خالي: «هذا عقاب من الله عز وجل على كفراننا للنعم الإلهية وآلائه العظيمة!» قاله الخال الكريم ثم سكت. وبعد برهة من الزمن قال لتيمير بك: «استدعِ الحاج قوقندي».

كان اسم «الحاج قوقندي»: «يُولْداش». وكان رجلاً خبيراً، وصاحب تجارب كثيرة، وكان قد سافر إلى «البلاد العربية» و«تركيا» و«إيران» و«أفغانستان» و«الهند»، كما زار «أوروبا»، وإلى جانب ذلك كان من رفقاء الزعيم «أنور باشا»[1] المقربين، وكان يعمل

---

(١) **إسماعيل أنور باشا** (١٨٨١-١٩٢٢م): ضابط عسكري عثماني، ومن الشخصيات المثيرة للجدل في الدولة العثمانية. انضم عام١٩٢١م مع الجبهة العسكرية في تركستان لتحريرها، ثم صار قائدا لها، ووقعت عدة اشتباكات بينه وبين الشيوعيين إلى أن استشهد ببلدة بَلجوان، ببخارى عام ١٩٢٢م. ينظر للمزيد: «سيرة ذاتية» للأمير شَكيب أرسلان (صـ١٧٣ وما بعدها).

قيّماً على بساتين خالي آنذاك، ومراقباً على أراضيه، فلما قدم «حاج قوقندي» قال له خالي الكريم:

«اذهب إلى السيد جلال الدين، وائت به فورا».

فمضى الحاج ورجع بعد قليل، وأخبر بأن «السيد جلال الدين» سافر إلى مدينة «لنگرآته»، وسيعود غداً أو بعد غد.

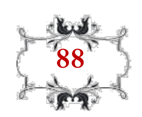
كان «الحاج قوقندي» قد رجع ذلك اليوم من «قرشي»، فحكى ما حدث فيها، وما حل بالمسلمين من العذاب والقتل والإبادة، وظهر من بيانه أن العالم الكبير الذي استشهد على يد الشيوعيين بالرصاص، كان هو المفتي المشهور في بخارى الشيخ «خالمُراد»، والخطيب في مسجد مغاك كان من تلاميذه.

وفي اليوم التالي قدم «السيد جلال الدين» فقال له خالي الكريم: «يا سيد! لقد كنت تقول: إن الشيوعيين لا يقصدون إلا إعانة الفقراء ومؤاساة المساكين ولا يهدفون إلا إلى ترويج التعليم وتعميمه، وتحديد مبلغ الإيرادات وتخلية الأراضي التي لا يحتاج إليها المرء، والحفاظ على حقوق المرأة، وما إلى ذلك! وإن الشيوعيين يدافعون عن كل الأقوام الضعيفة ويؤيدون حرية الشعوب وتحرير الأمم المهضومة!».

فقال السيد الأفغاني:

«نعم يا سيدي! لقد حصحص الحق، وانكشف الستار عن الشيوعية، وظهر الآن أن تلك الدعاوي وتصريحاتهم لم تكن إلا مكراً ودجلاً، ولقد شاهدت في «غزار» بعيناي نفس ما شاهده الحاج خوقندي في شهرسبز».

وفي ذلك الوقت قدمتُ إليه تقرير ذلك المستشار الأفغاني الذي أرسله إلى هذا الشيخ الأفغاني، فقرأه، ولما انتهى من قراءته، قال:



«لقد شاهدنا بأنفسنا في غزار، فوضحت لدينا صورة البلاد بأكملها».

لما غادر الشيخ «جلال الدين الأفغاني» كان مضطرباً ومتحيراً، وقال لخالي في آخر لقاء لهما:

«أريد أن أذهب إلى بخارى وسأقيم بها مدة، وسألتقي بكم إن بقيت حياً!».

ثم عاد بعد شهر ونصف تقريباً، وخلال هذه المدة قام برحلة طويلة ليشاهد الأوضاع الحالية في أطراف البلاد، ويبصر ما جرى لها بنفسه، فسافر من «شهر سبز» إلى «كتاب»، ثم ذهب إلى المناطق الجبلية وتجول فيها حتى بلغ «درواز» الواقعة في منبع «نهر آمو»[1]، ثم ارتحل منها إلى «حصار» فـ«بايسون» فـ«لنگراته» فـ«غزار» إلى أن وصل إلى «قرشي». وكلما مر بمنطقة سمع من أهلها حكايات وقصص جديدة عن المشاكل والمصائب التي نزلت بهم، فعلم بهم أنواع التعذيب وأشكال المظالم التي مارسها الشيوعيون في بلادهم.

ثم قصد من قرشي إلى بخارى، لكن الحكومة الشيوعية لم تأذن له بدخولها! فأرسل إلى أحد ممن يعتمد عليه في بخارى، فجاءه وقصّ عليه من أخبارها وأحداثها. ولقد فتح هذا الترحال والتجول عيني السيد الأفغاني، فإن الشيوعيين بذلوا جهوداً ليقنعوه بأن الشيوعية أو الاشتراكية ليست إلا نظاماً اقتصادياً، وليس لها أي عداوة مع الإسلام، فإنها إنما تهدف إلى إنقاذ خلق الله من الأوضاع السيئة الرائجة في النظام الاقتصادي، وإلى محو الرأسمالية، فاغتر السيد جلال الدين بافتراءاتهم وحيلهم ودجلهم. ولما كان تلاميذه يسألونه عن الاشتراكية فكان يجيبهم بأنها نظام اقتصادي إلى تحقيق المساواة والعدالة

(١) نهر آمو: من أكبر أنهار آسياء الوسطى، وهو الذي يسمى بالعربية وفي التراث الإسلامي: "**نهر جيحون**".

الاجتماعية، وليس له علاقة بالدين. فلما شاهد بنفسه مصير الإسلام والمسلمين وعاقبتهم تحت السيطرة الشيوعية، وكيف عامل الشيوعيون مع الدين وشعائره وتعاليمه وأهله، وما هي حقيقة النظرية الماركسية وموقفها من الإله والدين التي تعتبر بأن الدين أفيون الشعوب، وأن المتدينيين رجعيون متخلفون يجب القضاء عليهم، اشتعل غضباً وحزناً وتغيظ من دهاء الشيوعية ودجلها ومكرها، وتبين له أن «ليس كل ما يلمع ذهبا!».

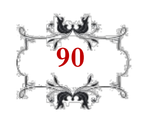
فقلق على وطنه أفغانستان وأهلها، وقرر الرجوع هناك لكي يخبرهم عن حقيقة الشيوعية، فقدم إلى خالي العزيز وحكى له ما رأى بعينيه وما سمع من الناس أثناء رحلته الطويلة بالتفصيل عن مآسي المسلمين وضعفهم وذلهم وهزيمتهم في أنحاء البلاد، وقال بصوت خيم عليه الحزن: «سيدي حضرة الشيخ! لقد فرضت الهجرة علينا! فتهيأ للسفر وامض معي. يا سيدي! كنتَ وما زلتَ تتلطف معي إلى يومنا هذا، فمن اليوم أكون خادمك».

ظل خالي العزيز ينصت للسيد الأفغاني ويستمع إليه، ولما انتهى من حديثه قال: «لقد عزم العلماء في تركستان والخواص من الناس وقرروا بأن لا يهاجروا، ولا يتركوا عوامهم ولا يذروهم، بل يكونوا معهم وبينهم، حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة».

أخذ السيد الأفغاني يد الخال الكريم، ووضعها في يده، وجعل يقول وهو يبكي: «الآن أجعل حياتي وقفاً، وأبذلها في إنذار بلاد المسلمين وتوعيتهم عن هذه الفتنة الهدامة، وسلام الله عليكم».

ارتحل الشيخ الأفغاني، فعمّ في الأرجاء الحزن والغم والأسى!

خلال هذه المدة كنت أقيم في شهر سبز لدى «تيمير بك»، وعادت الأوضاع في ظاهرها طيبة حسنة، وكان الناس قد عادوا للاشتغال بأعمالهم، وقد زالت من أذهانهم



تلك الأحداث الدامية التي وقعت قبل شهرين ونصف تقريباً، فصار يبدو على الناس أن تلك الإجراءات المعادية للإسلام وأهله لم تكن إلا حادثة مفاجئة واتفاقية محضة، ولم تكن مخططة لها من قبل، كما لم تكن وراءها أيد للحكومة.

فقامت الحكومة الشيوعية من جديد لتخدع المسلمين، ففرضت على بعض البلطجيين عقوبات شديدة، بعد أن أعلنت بأنهم مجرمون، كما أعدموا عدداً منهم شنقاً، فاغتر بها البسطاء من الناس، فصاروا يعدون الحكومة الشيوعية بريئة من كل الجرائم، وأخذوا يتناقلون: إنما كانت تلك الحادثة تصرفات من بعض اللئام والعابثين من الناس، فلو كانت وراءها يد الحكومة لم تكن لتعاقب هؤلاء المجرمين.

ثم اتخذت الحكومة حيلة وخطة جديدة؛ لتجعل العوام يثقون فيها، فقد شكلت في كل مدينة لجاناً على ترتيب الأحياء، وأسمتها بالعربية «أصحاب العدل»، أي: رجال يحبون تطبيق العدل والانصاف في المجتمع. وكانت أفعالهم في ظاهرها طيبة جداً، فكانوا يقومون بدفع الجدال والخصومات بين أهل الحي ويصلحون ذات البين، وبهذه الطريقة أخذوا يوهمون العوام البسطاء غير الفطنين بأن هؤلاء الأعضاء يحبون الخير والعدل، وأنهم رجال صالحون، ويبغضون الظلم والفتنة والإفساد، وأنهم يريدون الأمن والسلام.

وكانت غايتهم الحقيقية كسب مزيد ثقة أهالي الأحياء، وإقناعهم بأفكار الشيوعية، وتهيئة الميدان لبث سيطرة الشيوعية.

ورغم أن هيئات أعضاء هذه اللجان كانت تكفي لكشف ما يخططون له، إلا أن البسطاء الذين تبعوهم لم يكن عددهم قليلاً! فقد انخدعوا بأعمال الوساطة بين الناس، وحسبوه أمرا حسنا.

لكنهم لم يلبثوا زمناً حتى انكشف النقاب وظهرت معالم الحقيقة، وزال الظن الحسن فيهم، فأصبحوا يجتنبونهم، ويبتعدون عنهم وعن إدخالهم في قضاياهم. ووفق أحكام صدرت من الحزب قسمت كل لجنة أهل الأحياء إلى فرق مختلفة بناءً على تقاليدهم وتفكيرهم وعقلياتهم وعقائدهم، ثم حددت من الرجال والنساء من يعمل في صالح الحكومة ومن سيكون حاجزاً ومانعاً دونها، وعينت من يتنازل ويخضع أمام القوة والمال أو بالترغيب والترهيب، ومن لم يستسلم أبداً ولن يخضع للحكومة!

وكذلك اطلع الشيوعيون على العلاقات بين الناس، واطلعوا على أصدقائهم وأعداءهم، وهكذا عثروا على صديق أو عدو كل فرد، واتخذوا حيلاً وتدابير ليفرقوا بين الناس، وبثوا فيهم تفرقة كبيرة، ثم استخدموا بعضهم على بعض.

وكان من واجبات أصحاب العدل الأساسية مراقبة العلماء، وتوفير المعلومات الكافية والمطلوبة للشرطة والحزب، فقد اجتهد أصحاب العدل وقاموا بواجباتهم خير قيام! وسرعان ما اجتمع في مكتب الشرطة والحزب الشيوعي المعلومات الكاملة عن كل فرد في كل حي من جميع الأحياء في المدن.

فجعلوا لكل شخص ملفاً خاصاً به، كان يسجل فيه اسمه وأسرته ونسبه وأسماء أقربائه ومهنته وتعليمه ودراسته وتفكيره واتجاهاته حتى مزاجه وطباعه، وما يحب وما يكره! وكذا تحفظ فيه مراحل حياته المختلفة.

هكذا ظلت تظهر نتائج العمليات التي يقوم بها أصحاب العدل، وتبدو آثارها أمام الناس. وكان ينضم إلى الشيوعية صنفان من الناس: صنف هم الفاسدون والعابثون والجهلاء الذين لا يبالون بشيء، وهمهم الوحيد كيف يسيطرون على الناس ويُرعبونهم. وصنف آخر متعالمون يقال عنهم "رجال دين ومتصوفة"، معرفتهم قليلة، وإدراكهم

محدود وفهمهم سطحي، فعالياتهم وأنشطتهم ضعيفة و ضئيلة جداً، و قال لينين مرة: "ادخلوا في الشرق من بوابة الدين".

فكانوا يعملون هنا حسب إرشاداته حرفياً، لأن الشيوعيين تمكنوا من السيطرة على عدد من رجال الدين، والزهاد، وأدخلوهم في الشيوعية واستخدموهم لصالحهم، كانوا في زيهم مؤمنين صادقين قانتين، في وجوههم اللحى الكثة الطويلة، وفي جبهاتهم آثار السجود ظاهرة، فجعل هؤلاء الناس يستدلون على الشيوعية والاشتراكية من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويحتجون بحياة الصحابة، وفي جانب آخر كانوا يصنفون العلماء الربانيين المخالفين للشيوعية بأنهم عملاء الطبقة الرأسمالية والإقطاعيين!

نتيجة لذلك؛ فقد انتشرت الفُرقة والتشاحن في تلك المناطق والمجتمعات التي كانت مصونة بسبب جهود علمائها الربانيين، وانقسم فيها العوام من المسلمين إلى فريقين. وألحق الضرر العظيم بفريق العلماء الربانيين والمسلمين الغيارى الذين كانوا يدافعون عن دينهم، وعقائدهم، وتعاليمهم، وثقافتهم.

لقد اطلعتُ على حقيقة هذه اللجان وأغراضها وغاياتها من إمام مسجد في قرية «يعقوب چرخي» التي تقع على بعد ١٦ ميلاً من شهر سبز تقريباً، وأهل هذه القرية ينتسبون إلى قبيلة «كِنَاگاس» الأزبكية.

في تلك الأيام كنا نحن أربعة طلاب نتجول ونطوف بين القرى والمناطق حول شهرسبز، فلما بلغْنا قرية «يعقوب چَرْخِى» كان إمام المسجد هناك مسافرا لحضور حفلة زواج، ورجع منتصف الليل، فالتقى بنا بودّ و حرارة ورغبة شديدة. و لما علم أنني من أقرباء «الشيخ الخوقندي» زاد إلينا محبته وإجلاله، ثم حكى لنا بالتفصيل مآسيه و شدائده التي لحقته، وكان يقول:

«نحن الآن نبكي على الأوضاع دماً لا دمعاً! أنا إمام لأربعة مساجد غير هذا».

«كيف يكون ذلك؟» لم أستطع الانتظار فسألتُه.

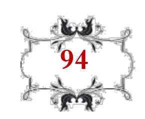
الإمام: «وذلك أن الناس لا يصلون الآن، لكن يُطلب الإمام عند عقد النكاح أو لصلاة الجنازة وغيرها من الأمور. ثم إن إمام المسجد في الماضي كان يحصل في وقت الحصاد على ما تكفي مؤنته من الحنطة وغيرها من المحاصيل الزراعية، وأما الآن منذ ٤-٥ سنوات فإن الشيوعيين قد أنقصوا من مخصصات أئمة المساجد، فمن ذلك إذا اجتمعت محاصيل خمسة مساجد وإيراداتها فإنها لا تكفي ولا تفي بالضرورة، فصارت الحياة صعبة، بين فقر وبؤس وحاجة! » هكذا شرح الإمام الأمر.

كان قد انقضى من الليل نصفه، وساد الجو من سكون وهدوء، وكان زملائي الثلاثة من سكان البادية والصحراء، وكانت دنياهم تقتصر على شهر سبز ولا تتجاوزها، ولم يروا في حياتهم صحيفة أو مجلة! ولم تكن لديهم أي رغبة في نقاش الأوضاع الحالية والأحداث السياسية المتتالية، كما لم يشاركوا في أي من حفلاتها قط، فكان حديثنا ونقاشنا مملاً لهم وفوق استيعابهم، فمالوا إلى النوم.

قال لي الإمام: «تعال نجلس في صحن المسجد ونتحدث كي لا نزعج أصحابك في أثناء نومهم».

جلسنا في صحن المسجد، وجرى الحديث التالي مع الإمام:

«قبل شهرين أو شهر ونصف، كوّنت الحكومة في المدن والقرى لجاناً على ترتيب الحي، وقد شكلت لجنة في قريتنا هنا أيضًا، ولا علم لي بالمدن الأخرى، لكن اللجنة في قريتنا انضم إليها كل العابثين والسفهاء والمشاغبين المفسدين، لا يوجد بينهم رجل عاقل، ولا يعرف أحدهم القراءة والكتابة، ومع ذلك يأتونني ويستكتبوني جميع تقاريرهم التي



يرسلونها الحزب الشيوعي، رغم أني لست من أعضاء اللجنة! وقد هددوني بأن لا تخرج كلمة منها إلى الناس، وإلا سأتجرع عقابهم الأليم».

أنا: «ماذا يعطونك؟».

الإمام: «لا شيء! سوى الأمان الشفوي بأنه لن يلحق بي من الحكومة أي عقاب وأذى، ولن يسجل اسمي في قائمة الروحانيين». كان الإمام رجلاً فطناً ومتيقظاً. فمضى يقول مِن عنده:

«لقد أدخلوا في الدين أموراً جديدة، وأضافوا إلى الشريعة أشياء غريبة ما أنزل الله بها من سلطان، والحكومة تحتفظ وتحمي هذه الأمور المحدثة، فلو أنكر رجل وأراد أن يمنع أو ينهى عنها، أعلنت الحكومة بأنه مجرم، وأنه يريد أن يقيد أذهان الناس وأفكارهم، ويسلب حرياتهم فيها، فهو مشاغب ومفسد!».

ثم ذكر مثالاً على ذلك: «إن الطواف بالقبور لم يكن أمرا مألوفا في ديارنا قط، لكن الآن صار يفعله الناس علناً صباح مساء. كيف ابتدع هذا الأمر؟ اسمع مني: رأى أحد سكان القرية في المنام أن مرشده المتوفى يأمره قائلاً: طف بقبري! فبدأ يطوف بقبره، ثم جعل شخصا آخر سادنًا للقبر، وأجبر الناس أيضًا على الطواف حول القبر، وهكذا انتشرت هذه البدعة في الناس، ومن كان ذلك الرجل يا تُرى؟ كان هذا الرجل رئيس الأشرار ورأس المفسدين، وكان عنصراً ناشطاً فعالاً في لجنة أصحاب العدل!

زَفَر الإمام زفرة، وعاد يقول:

«مضى على تشكيل هذه اللجان شهران تقريباً على الأكثر، لكن في هذه المدة القصيرة أُعدت العديد من السجلات الضخمة، وأُرسلت إلى مراكز الشرطة والحزب، ذُكرت فيها أحوال الناس فرداً فرداً، وعُرّف فيها بالعلماء والمتدينين من المسلمين وكل من

يلتقي بهم في صورة أكمل وأوسع، إضافة إلى ذلك؛ ذُكر مع العلماء أسماء مخالفيهم ومعانديهم، وكيف يمكن استغلالهم لتحقيق أهداف الشيوعيين.

في ذلك الوقت سألتُ إمام المسجد عن خالي الكريم، فقال: «أما هو وأمثاله من العلماء الكبار فيسجل عنهم: الاسم واسم الأب ومكان المولد والعنوان التفصيلي والمهنة فقط! وأصدر الحكم إلى اللجان في الأحياء بأن تراقب فعالياتهم وحركاتهم وسكناتهم. وقد قرر الحزب الشيوعي في خالك العزيز بأنه روحاني متصلب، وأرسل الحكم إلى جميع اللجان بالمراقبة على من يزوره ويتواصل معه، وأن يحذروا منهم. ثم حدثته بما جرى في فرغانة وسمرقند وبخارى وقرشي وغيرها، وحكيت له ذلك مفصلاً، وأخبرتُه بأن الشيخ الأفغاني في تيقظ وانتباه من الشيوعيين ودهائهم، وقد ذهب الآن إلى أفغانستان، فقال الإمام متحيراً:

«إنه أمر مدهش جداً، ويبدو لي ذلك أعجوبة. كان الشيخ الأفغاني يدعي بأنه ابن المُرشد للملك أمان الله خان[1]! وإلى جانب آخر لم يكن مؤيداً وحامياً للشيوعية فقط، بل كان يقول: إن نظام الاشتراكية كفيل بإسعاد البشرية كلها بحيث يصبح الإنسان وهو في هذه الدنيا كأنه في أعلى عليين في الجنة، وهذا يكون واقعا في الأيام القادمة!». وفي اليوم التالي ودّعنا الإمام بكل احترام وتقدير.

---

(١) وقع في الحيرة فيما يبدو بسبب تعامل الملك أمان الله خان مع حكومة الاتحاد السوفيتي، فكانت علاقته طيبة معهم وجيّدة طيلة فترة حكمه مقارنة بتعامله مع الحكومة البريطانية. وقد قام بزيارة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي أيضا سنة ١٩٢٨م.

ينظر للمزيد: Soviet foreign policy toward Afghanistan 1919-1988, Douglas A. Borer, (p.29-35).



وفي تلك الفترة قامت الحكومة الشيوعية بدور آخر، واتخذت خطة جديدة لزرع الفرقة بين العلماء والتحريش بينهم، وإثارة الجدل، وصرفِ اهتمامهم عن الأوضاع والقضايا السياسية، واستغلال هؤلاء العلماء الذين فقدوا الوعي واستسلموا للشيوعية وانقادوا إليها دوراً أساسياً؛ حيث أثاروا الجدل العقيم في المسائل الفرعية، والقضايا الفقهية التي لا طائل منها، وأصبحوا يبذلون في ذلك غاية جهدهم وقوتهم. لا شك أن هذه المسائل الخلافية كانت موجودة في ديارنا من قبل، وكذا كان يوجد عدد غير قليل من المتعالمين وأصحاب الأهواء وحدثاء الأسنان، وكانوا ينشغلون بهذه الاختلافات والجدال ويتيهون فيها. لكن العلماء الربانيون لم يلقوا بالهم إلى هذا المسائل ولم يكترثوا بها، ولم يتدخلوا فيها إلا لإخماد الخلاف والفتنة كي لا تتسع دائرتها وتنتشر بين العوام. لكن القضية الآن لما بدأت، لا تزال تزداد انتشاراً وتوسعاً، حتى صار يبدو كأن المشكلة الأساسية في البلاد ليس الصراع بين الإسلام والشيوعية التي لا تزال تزيد سيطرتها على المسلمين وعقائدهم وتعاليمهم، وأن قضية التخلص والنجاة من قبضتهم قضية وإنما المسألة والقضية الكبرى لأهل البلاد: هل ينبغي أن تُصلى بعد صلاة الجمعة الظهر احتياطاً أم لا؟ وهل يجوز إقامة محافل المولد النبوي أم لا؟ وهل يرفع المصلي سبابته أثناء التحية أم لا؟ وهل كان للنبي ﷺ ظل أم لم يكن له؟ وماذا يقال في والدَي النبي ﷺ، هل هما مسلمان أم لا؟ وما إلى ذلك من القضايا المتشعبة[1].

---

(١) لا شك أن الواجب على المسلمين أن يردّوا ما تنازعوا واختلفوا فيه إلى القرآن والسنة كما أمر الله تعالى في كتابه الكريم. فما حكم فيه القرآن أو السنة وجب الأخذ بحكمهما، وما خالف ذلك رُدّ على من أحدثه وعلى من قاله.



اشتعلت المعركة بين الطرفين و صارت تنعقد جلسات المناظرات والمجادلات برغبة واهتمام في مساجد التي لا تأذن الحكومة للمسلمين بالصلاة فيها! فقد نجحت خطة الشيوعيين غاية النجاح. وهكذا خاض عدد غير قليل من العلماء في هذه الخلافات، ونسوا أكبر أعدائهم، وأما العوام فإنهم اغتروا بفعاليات أصحاب العدل حيث صرفوا انتباههم وأفكارهم إلى غير الشيوعية.

ولما انفصلنا من الإمام رجع منا طالبان اثنان إلى شهرسبز، وبقي واحد معي، فبلغنا بلدة «سَري آسيا»، وهي مدفن جدّي لأمي الشيخ «غياث الدين إيشان»، وقد رأيته، ثم توجهنا حسب خطتنا إلى الجبال، فانطلقنا نقطع سلاسل الجبال الشامخات، ونمر بالأودية والعقبات الصعبة في الصعود والنزول، ومضينا على الطرق الوعرة حتى وصلنا إلى قريةٍ كان الناس فيها أقوياء البنية وطوال القامة والهيبة، والوقار ظاهر على وجوههم.

هذا المكان يبعد عن شهرسبز مسافة ثلاثة أيام لكن الفرق بينهما فرق ما بين السماء والأرض، رأيت في هذه القرية الروح الدينية الأصيلة، فكل أهلها يواظبون على الصلوات ويلتزمون بأحكام الشريعة الإسلامية، ويتأدبون بآدابها، وهم أصحاب أخلاق طيبة وكريمة، ولا يكثرون من الكلام ويبادرون بالسلام، ويوجد في مساجد القرية مكان خاص بالنساء، فيأتين المساجد ويصلين الفرائض مع الجماعة ثم يرجعن. وفي النهار لا تكاد ترى امرأة مطلقاً. وكان بجانب المسجد دار للضيافة واسعة يقيم كانت حياتهم بسيطة بعيدة عن التصنع والتكلف، ويكون في البيوت قليل من الأثاث، وإمام المسجد هو الذي يتولى أمور القرية ويكون أميرها. فيصلي بالناس في المسجد ويقوم بالتدريس والتعليم، ويذهب لعيادة المرضى، وينظم أمور علاجهم، ثم يكلف واحداً ليقوم بذلك. كانت حياتهم كلها منسقة ومنظمة، ولم يكن فيها وجود للجريمة والجناية، وتبين لي أن هذه

القرية من تلك المناطـق والقرى التي لبّت دعوة جدي لأ مي العلا مة غ ياث ا لدين ر حمه الله الدينية والإ صلاحية، فجعلتها هدفها ونصب عينيها، وحاليًا يتوا صل أ هل هــذه القريــة مع الشيـخ الخوقندي خالي الكريم للإرشاد والتوجيه الديني.

من هنا تبدأ مناطق المجاهدين الذين ظلوا يجاهدون ويقاتلون الاستعمار الشيوعي منذ ١٠-١١ عاما. لم نر لدى أ هل القرية ما يدافعون به عن أنفسهم، فتبين أ نه إذا هجم الأعـــداء عليهم يذرون بيــوتهم ويلجؤون إلى الجبال. وأ ما مركز المجاهدين الرئيسي الذي يقع في جبـــال «تختــه قراجـه» الشامخـة، فإنه كـــان على مسافة شاسعة بعيدة من هنا.

أمضينا الليلة في دار الضيافة، وفي ذلك اليوم اجتمع فيه جماعة من الشباب والمسنين، يبلغ عددهم مئة شخص تقريبًا، وكان أكبرهم سنًا لا يقل عمره عن مئة عام، فأخرج هذا الرجل بعضًا من الأوراق الخرمة البالية من جراب معه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٠].

وكذلك قرأ المعوذتين، وجهر بالشهادتين، وردد معه الجماعة رافعين أ صواتهم. ثم بدأ الشيخ المسن يقرأ من تلك الأوراق، وكانت مكتوبة باللغة التركستانية، **ولا أزال أتذكر بعض كلماتها إلى اليوم:**

«يا الله! لقد عرفناك بمعرفة نبيك محمد ﷺ، وإنه أمرنا وعلمنا ألا نعبد إلا إياك، ولا نضع رؤوسنا إلا أمامك، ولا نؤذي أحدًا، وأن نحترم من آمن بك، وأن نوقّر كبيرنا، وأن نرحم صغيرنا، وأن نحافظ على حقوق جارنا، وأن نكسب ونأكل بالحلال ونجتنب الحرام.

يا رب إننا نوالي من يوالي رسولك، ونعادي من يعادي رسولك، إننا سلّمنا أنفسنا وفوضنا أمورنا إليك...».

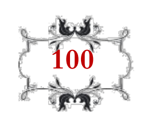
كانت الأجواء في دار الضيافة يعمها السكون، وكل واحد منا ينصت ويستمع إلى الشيخ كأن على رؤوسنا الطير، ولما انتهى الشيخ من قراءته قام الحاضرون فصافحوه ثم خرجوا.

فعلم أن هؤلاء الناس يجتمعون في بداية كل شهر ويستمعون إلى هذا الميثاق من أي مسن بينهم ثم ينتشرون، وهكذا يتعهد كل واحد في بداية الشهر على أن يعيش مسلماً صادقاً عاملاً.

من هذه القرية انفصل عني رفيقي الثالث وصحبني رفيق جديد، وأخذنا السمن والسويق زاداً لنا في الطريق كانت على تلك الجبال طرق قديمة منذ العهد الإسلامي، ثم خربت الطرق وقطعت أيام الثورة، فنبتت فيها أشجار ونباتات، وبهذا انغلقت الطرق.

كانت في الطريق عيون كثيرة بها مياه عذبة باردة، وكانت الأنهار تجري بين الجبال بأصوات الخرير والعجيج، ورأينا ذلك المنظر الخلاب الأخضر الرائع، فيها الأعشاب والنباتات الخضراء، وأشجار اللوز، والدلب العظيمة، والطيور المتنوعة التي تطير في الهواء الطلق وتغرد، والظباء المختلفة تجري وتعدو خلال الأشجار الخضراء، وبالجملة كانت قد تجلت قدرة الله عز وجل في الطبيعة من كل جانب. كنا نسير ونمشي طوال النهار، ونصطاد الطيور ونتغذى بها، ونمكث بين الأشجار في أي مكان من الغابة لنمضي الليلة.

ففي اليوم السادس بلغنا ملتقى طرق ثلاث وكان قد حان وقت العصر فرأينا طريقاً واضحة معالمه، فسرنا فيها، وبعد أن مشينا ٢٠-٢٥ دقيقة وجدنا أنفسنا في غابة عميقة



كثيفة الشجر، فبدت لنا قلعة عظيمة، فشكرنا الله عز وجل على ذلك. لم يمض وقت طويل حتى داهمنا شباب مسلحون من وسط الغابة، بعضهم راكب على فرس وبعضهم راجل!

«السلام عليكم» قالها أحد الفرسان بصوت قوي.

أنا: «وعليكم السلام».

الفارس: «من أين أتيتم؟ وإلى أين ذاهبون؟».

قلتُ: «أنا من شهرِسبز».

الفارس: «يبدو أنك لست من شهرِسبز، نعم قد يكون الشاب الآخر من أهلها!» قاله الفارس بأسلوب غريب، وكانت الابتسامة على وجهه.

أنا: «ظنك صادق، في الحقيقة أنا من سكان فرغانة، وأما صاحبي فهو من سكان قزيل ايمجك».

الفارس: «هل تعرف أحداً من «قزيل ايمجك؟».

أنا: «لا يا سيدي! لقد أقمت بها ثلاثة أيام، فلا أعرف أحداً منها، كما لا أعرف اسم أحد». قلتها بوضوح وحرارة.

الفارس: «تعرف أحداً في شهر سبز؟».

أنا: «نعم أعرف تيمير بك، وكنت ضيفاً عنده». ثم أخبرت عنوانه كاملا، فأمعن الشاب الفارس نظره إلي، وصعده وخفضه، وقال: «طيب لكن لم تجب على سؤالي بعد! لماذا أتيت؟ وإلى أين تقصد؟

أنا: «خرجت للسياحة، أسير وأشاهد قدرة الله تعالى في الكون ونعمته علينا». فسرت ابتسامة ذات دلالة على وجه الفارس، وقال:

«إذاً ذلك يعني أنك جئت لتشاهد القلعة؟».

أنا: «نعم! أحب أن أزور القلعة».

أشار الفارس لرفاقه بالانتشار إلى يمنة ويسرة، وبقي معنا فارسان وأربعة رجال. وذهب ذلك الفارس بعيداً عنا، فسألت أحد المرافقين معنا.

«من أنتم؟ وأين ذهب ذلك الفارس الشاب الذي كان يتحدث معي؟».

«لا أعرف اللغة التركستانية». أجاب الرجل بالفارسية بلطف وشفقة.

أنا سكتُّ ولم أتكلم لأظهر له أنني لا أعرف الفارسية، غير أن صاحبي سأله بالفارسية:

«من أين أنتم يا سيدي؟».

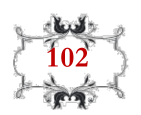
الفارس: «مِن بَلْجُوان، أقيم هنا في الغابة بعد استشهاد أنور باشا منذ ٧-٨ سنوات».

وبعد ساعة تقريباً عاد الفارس وودع صاحبي وأخذني معه وسار إلى القلعة. ولما وصلنا إلى بابها كانت الشمس قد غربت، حتى إذا بلغنا قريباً من جدارها، وضع الشاب على عنق فرسي قماشا أبيض، كان قدر ذراع، ولعله كان علامة على أني منهم، فلا يتعرض لي أحد. كان الشباب المسلحون يقيمون في الغابة الكثيفة على جانبي الطريق، وكانوا يحرسون القلعة، فلذلك دخلنا القلعة من بوابة مخفية غير معروفة، فنحن الآن أمام قاعة.

تقدم نحوي رجل كهل له لحية كثة، طويل القامة، عليه سروال واسع، وتعلوه هيبة ووقار، فصافحني، وسألني عن أحوالي، ثم سألني:

«هل بُرئ تيمير بك؟».

أنا: «نعم».



الشيخ :«ماذا حلّ به؟».

أنا : «كان يعاني من ألم في ضرسه».

«حفظ الله أمثال هذه الوجوه وحماها». قاله أميرهم.

«آمين» قلت رافعاً صوتي.

كان يقيم في القاعة ٥٠٠ مجاهد تقريباً، وكانوا مسلحين ببنادق عيار ٣٠٣ جميعهم. لكن الشيء الذي حيرني هو تنظيم هؤلاء المجاهدين الدقيق وتنسيقهم، ونظام الحصول على الأخبار والمعلومات. فقد وصلت إليهم قبل دخولي القلعة أخباري الكاملة، وكانوا مطلعين على كل ما يحدث في البلاد، كما كانوا على صلة وثيقة بالعلماء والزعماء فيها.

فكلما شدد الشيوعيون وضيقوا على المسلمين في «سمرقند» وغيرها من المناطق الجبلية ومارسوا عليهم التعذيب والتنكيل، نزل عليهم المجاهدون من الجبال كالعاصفة، وأغاروا على هؤلاء العابثين، وكان كلهم مهرة في الرماية وفرساناً فائقين حاذقين.

ثم علمت أن هذه القلعة مركز لألف مجاهد تقريباً، تبدأ حدود أفغانستان من خلف هذه الجبال الشاهقة، لكن المنطقة المتصلة بأفغانستان قد استولت عليها الشيوعية، وعلى هذا كان المجاهدون محاصرين من الأطراف، وكان أمير القلعة من خريجي مدارس بخارى، كان عالماً فاضلاً بارعاً، وقد لعب هذا العالم دوراً بارزاً حاسماً في المعارك التي قادها الشهيد أنور باشا في تحرير بلاد تركستان.

وهؤلاء المجاهدون يصنعون حوامل الأقلام النفيسة من أخشاب شجرة اللوز والدلب وغيرها، فتباع في أسواق بخارى وسمرقند وأفغانستان بأثمان مرتفعة، وكان ذلك معاشهم أيام الأمن والسلام.

قام الأمير بعد أداء صلاة الفجر، وعرّفني بالمجاهدين، وبين لهم تلك الأحوال

والأوضاع التي حكيتها له، وأثناء حديثه قال جملة لم أفهمها، قد تكون كلمة السر بينهم، فقام المجاهدون جميعاً، وحيّوني تحية عسكرية، ثم رفع الأمير صوته بالتكبير والتهليل وكرر الجميع من بعده، وتبين لي فيما بعد أن المجاهدين إذا أعادوا عهدهم بالموت في سبيل الله والشهادة فيه، رفعوا أصواتهم بكلمة التوحيد. ثم وضعت مائدة، وكان الطعام نفس ما أكلناه في الليل وهو المصنوع من السويق وحليب الخيل. أجلسني الأمير بجانبه معه، وسألني خلال الطعام: «ما هي فكرتك الآن؟ إلى أين تقصد؟».

فلم أجب، حتى فاجأني قائلاً: «هل حدث لك صراع مع الروسيين في محطة قرشي؟» فبقيت متحيراً وجعلت أطيل نظري إلى وجهه، فضحك الأمير وربت على كتفي بيده، وقال: «تُوره زاده! (يا ابن الشيخ) إن هذه المصائب والشدائد التي تراها نزلت بنا وحلت علينا، يرجع سببها إلى بَطرنا وكفراننا بالنعم». ثم قال:

«هل تحب أن تذهب وتزور غيلان؟».

فقلتُ: «سأزور وأسافر إلى كل بقعة من بقاع وطني».

ارتحلت من القلعة صباح اليوم التالي وكان أمير القلعة قد أعطاني فرسين، فسرنا طول النهار، ولما أظلمَ الليل مكثنا على سفح جبل قريباً من عين ماء، وأمضينا ليلتنا هناك. ثم أدينا صلاة الفجر وأكلنا وشربنا ما لدينا من سويق وحليب، وسرنا في طريقنا عبر جبال «تخته قراچه» الشاهقة التي تعد أطول سلسلة جبال في تلك المنطقة، وكان الجيش الأحمر يقيم ويحرس الطرقات في أطراف هذه الجبال. وذات مرة حدث أن اقتربنا اقترابا شديدا من إحدى مراكز الجيش ولم يتمكن الدليل من النفخ في صفارة التنبيه؛ لأنه من الممكن أن تكون إحدى جوالة كتائب الجيش الأحمر قريبة. وفي وقت المساء وصلنا إلى منطقة خضراء ذات بهجة، فقال الدليل: بقيت لنا مسافة ساعتين، ما رأيكم؟ هل نمضي

الليلة هنا أم نكمل مسيرنا؟ فاستقر الأمر أن الأفضل أن نكمل المسير، وكانت الليلة مقمرة، فكان كل شيء يشرق بنور البدر، وكان الحسن والروعة والبهاء قد عمّ المنطقة كلها.

وصلنا إلى غايتنا الساعة العاشرة تقريباً، نزلنا بدار الضيافة وسألنا: «هل يوجد طعام؟» فكان الجواب أن قدم لنا الخادم خبزاً وحليباً وشاياً بدون سكر، كانت لذته لا توصف مما لا أنساه أبداً!.

كان يقيم في دار الضيافة رجال آخرون عددهم فيما بين ٤٠-٥٠ رجلاً، وكان من نظام دار الضيافة أنه كلما نزل به نازل يعرّف بنفسه ويبيّن غرضه الذي أتى لأجله، فكتبنا رقعة وبعثنا بها إلى الداخل، فما لبثنا مدة حتى جاء شيخ عظيم وجيه، وسلّم علينا كأنه في معركة، فالتقى بكل رجل فرداً فرداً. ولما فرغ وانتهى من الجميع، قدم إلي فسألني عن اسمي وأحوالي وصحتي، ثم ذهب بي إلى الغرفة الداخلية، وهي غرفة الشيخ الخاصة للعبادة، وكانت مملوءة بالأسلحة الروسية، كان فيها من كل نوع من السلاح بنادق عيار ٣٠٣، وموزر ومسدسات وصناديق بارود ورماح، وسيوف، وخناجر، وغيرها. وكان على جانب الغرفة سرير خشبي عليه جلد مصبوغ ومفروش، وفيه وسادة وبطانية من صوف سميك، وكان عمر الشيخ فوق خمسين عاماً، وكان قد تخرج في العلوم الشرعية من بخارى، ويعد من طلائع العلماء البارزين آنذاك.

وفي ذلك الوقت كان يقيم عنده أحد العلماء من إحدى البلاد الإسلامية فعرفني الشيخ به، وقال: هذا الشاب ابن أخت الشيخ الخوقندي، وفي أحواله وأخباره من العبر والعظات شيء كثير. فسألني الشيخ عن أوضاع وادي فرغانة الحالية وأحوالها، فحكيت له ما رأيت وشاهدت خلال هذه الأشهر الثلاثة في سمرقند وبخارى وقرشي وشهر سبز

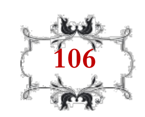
وغيرها، وحكيت بالتفصيل لهما، وكانا يستمعان إلى هذه الحكايات والأحداث بانتباه شديد. ثم قال الشيخ:

«إن هذه كلها جزاء أعمالنا، وهذه ليالي الكفر والإلحاد والظلم التي حلت بنا، وليالي المصائب والشدائد والآلام والأحزان الطويلة التي سلطت علينا، إنما هي جزاء ما اكتسبنا بأيدينا، ولا يعلم أحد سوى الله تعالى عز وجل متى يطلع فجر هذه الليالي؟ ومتى تنكشف هذه الظلمات؟ لكن على كل حال مهما يكن من شيء فعلينا أن نكفّر عن ذنوبنا وعما اقترفناه بكفراننا للنعم.

فأظهر ذلك الشيخ الضيف اليأس والقنوط والوهن وأبدى رأيه حيال ذلك، ومفاده أن يهاجر من بلاد تركستان إلى أفغانستان أو إلى أي دولة مسلمة من دول الإسلام، ويقيم فيها براحة وطمأنينة!

فقال الشيخ:

«القضية ليست قضيـة راحة نفس وسكونها، أو راحة بعض المجاهدين، إنما هي قضية الحفاظ على دين المسلمين في هـذه البلاد وإيمانهم وعقائدهم والدفاع عنها. ولقد قرر العلماء ألا نترك المسلمين وحدهم منفردين فيها في بلاد تركستان؛ فقد قام مجلس الشورى للمجاهدين بإرسال الطلب إلى كل من إيران وأفغانستان وبلاد العرب وتركيا، حتى إلى جمـــاعات ذات الهيئة والمنعة للمسلمين في الهند، ودعا فيه إلى النصرة والمساعدة. لكن مع الأسف لم نر من أي مكان أثراً عملياً للإخوة الإسلامية وإقبالاً على الإعانة والمساعدة! ثم طلبنا منهم وقلنا لهم إن جهادنا هذا الذي نقوم به هو ضد السيطرة الروسية الشيوعية واحتلالها وتسلطها على بلادنا، والتضحيات التي أداها المجاهدون في سبيل الله أبلغوا بها العالم من حولكم على أقل تقدير.



لكن هذا الطلب لم ينل كسابقه أية إجابة أو تلبية. فقل لي يا سيدي!: ما الدولة الحية الغيورة المسلمة التي بقيت لتُجيرنا ولتكون مثوى لنا؟ بل بعكس ذلك، يوجد في بعض الدول أحزاب وحركات تحررية قادتُها المستنيرون ما زالوا يثنون على الاستعمار الشيوعي الأحمر ويمجدونه. ثم إن من هاجر إلى أفغانستان من موظفي الدولة الكبار والشخصيات البارزة -ومنهم أمير بخارى[1]- هم كلهم تحت الإقامة الجبرية. ففي هذه الحالة لا ملجأ ولا مأوى إلا ربنا عز وجل، فلا يجير أحد سواه ولا نستجير إلا به جل في علاه.

سكت الشيخ بعد أن قال هذه الكلمات فعمّ الهدوء، ورأيت ذلك الشيخ الضيف تتدفق الدموع من عينيه وتسيل، وانتشر الحزن العميق في الغرفة، وظل يزداد عمقاً وألماً بالنفوس لحظة بعد أخرى.

۞۞۞

كان اليوم التالي يوم الجمعة، فأديت الصلاة مع المجاهدين الشجعان، وقد اجتمع للجمعة مع قرابة ألفي مجاهد، وحضر شيخ المجاهدين في الوقت المحدد بالضبط، كان مسلحاً بأسلحة عديدة، لقد أشرقت في عيني عند رؤيته صور قادة الجيوش الباسلين من القرون الأولى! كان في جنبه مسدس، والخنجر مسدل، وحزام الرصاص ملتفا حول صدره، وكان يحمل في يده بندقية عيار ٣٠٣، وكان التواضع والانكسار ظاهراً عليه، فتقدم إلى المنبر بخطوات هادئة متزنة، وخطب متكئاً على بندقيته، فكانت الخطبة فائقة

---

(١) **الأمير محمد عالِم خان** (١٨٨٠-١٩٤٤م): آخر أمراء إمارة بخارى. تولى الإمارة خلفا لأبيه عام ١٩١١م، واضطر إلى الهجرة بعد الهزيمة من الجيش الأحمر إلى أفغانستان عام ١٩٢٠م، فأقام هناك وتوفي بها.

موفقة وشاملة، فيها حرارة الحماس والاندفاع، والانتفاضة والعاطفة، كما كان فيها نور الهداية والإرشاد، وضوء الفكر العميق. وكان فيها ترغيب و حث على التضحية و بذل النفس في سبيل الله، كذلك كان فيها علاج اليأس والضعف و سقوط الهمة، وا متلأت القلوب بالطمأنينة، والرضاء بالقضاء والقدر.

أدينا صلاة الجمعة فزاد سرور قلبي و سكينته وكسبت الروح شعوراً جميلاً نبيلاً وحلاوة عجيبة، وهذا الشعور النبيل الذي حصل للروح الملوثة بقذارة النفس الدنيا، لم أجده قط فيما بعد.

أدينا السنة الراتبة بعد صلاة الجمعة. كان الناس جالسين في صفوفهم، فنظرت إلى خلفي منصرفاً، فرأيت صفين للمجاهدين يحملون الرشاشات واقفين في أواخر الصفوف، على انتباه واستعداد تام!

طلبت من شيخ المجاهدين وقلت له: إنني أود أن أقضي ساعات في جبهات القتال مع المجاهدين. فقبل الشيخ مني ذلك الطلب، وأعطاني منديلاً وجعل لي مرافقاً يصحبني، كنت أينما أذهب يرحب المجاهدون بي ويستقبلونني بحرارة، وكلما رأوا المنديل في يدي ألقوا علي التحية بترحاب ومودة.

عين على سقف المسجد أربعة شباب كانوا يراقبون بالمناظير الجوانب الأربعة، و قد جعلت كتيبة من المجاهدين على جبل عالٍ على استعداد دائم للإغارة على الأعداء والدفاع عن أنفسهم، وكان نظام نقل الأخبار وإيصال المعلومات فائقاً ومنضبطاً جداً، كانوا قد أقاموا لهذا الغرض العديد من المراكز والمحطات، وكانت جبال «تخته قراچه» و «لنگر اته» مركزين رئيسيين (تخته قراچه جبال عظيمة شامخة تقع فيما بين سمرقند وشهرسبز، وعبور هذه الجبال يتطلب يومين، وطريقها وعرة صعبة جداً، بيد أنها

كانت تفتح في السنة لأشهر قليلة)، وكان المجاهدون قد بنوا محطات على كل ١٦ ميلاً، فكان الرسول يبلغ الرسالة إلى المركز، ثم ينطلق إلى المركز التالي، وبذلك كانت تصل أخبار «سمرقند» وأحداثها التي وقعت في المساء خلال الصباح عبرا لمرور بهذه الجبال! وكانت تأتي أخبار «بخارى» من «لنگر آتَهْ» إلى المجاهدين من قِبل رعاة الغنم وصانعي الكِلس (الجير).

وهكذا تجولت وسرت بينهم لمدة ساعة إلا الربع، ثم لما وصلت إلى المسجد وجدت الناس منشغلين في الدعاء، وفي ذلك المجلس بيّن شيخ المجاهدين أحوال الأسبوع الماضي وما جرى فيه، ثم دعا وطلب مجلس الشورى وعرض عليهم رأي ذلك الشيخ الضيف في الليلة الماضية من أنه ينبغي لنا أن نهاجر إلى أي دولة إسلامية!

جرى الحديث والمناقشة حوله، ثم استقر الرأي في النهاية واتفقوا على الإقامة في وطنهم، والاستمرار في المقاومة والقتال لتحرير البلاد وأهلها من أيدي الشيوعية الغاشمة.

كان ذلك وقت المساء، وقد مالت الشمس إلى الغروب، وفجأة هاجت الأفراح وانتشرت المسرات في مركز المجاهدين في «غيلان» ثم تبين الأمر أن ابناً لشيخ المجاهدين واسمه «عصام الدين جُرْعة» رجع إلى المركز، وكان غائباً منذ ثلاثة أشهر تقريباً. وعصام الدين هذا كان يعد من الشعراء والأدباء البارزين الفائقين في اللغة التركستانية والفارسية، وكان عالماً جليلاً بالشريعة الإسلامية، وإضافة إلى ذلك كان قد تحصل على العلوم العصرية الحديثة في «طاشكند» بتفوق، وكان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة ويجيد كتابتها أيضًا، وكان من مرافقي «أنور باشا» ومن زمرة الشباب المقربين له، وهو الذي درّب عصام الدين تدريباً عسكرياً عالياً. وكان عصام الدين مقيماً في بخارى حين قامت فيها الشيوعية بالإبادة الجماعية والقتل العام، وكان شاهد عيان، وكذلك كان في «قرشي» لما

مارس الجيش الأحمر أنواعاً من المظالم المرعبة الرهيبة، وعاثوا فيها فساداً وإكباراً، وأطلقوا النار على عالم جليل هناك، ثم الصراع الذي وقع بين الشيوعيين ومسلمي «قرشي» والحرب التي اندلعت بينهم واشتعلت نيرانها، كان عصام الدين هو الذي قادها، ثم انطلق بعدئذ من «قرشي» إلى «بايسون» فقبضت عليه الشيوعية فيها، لكن الله نصره فنجا وهرب من أيديهم، ثم سار فيها إلى طريق أفغانستان، والآن رجع من هناك.

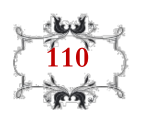
لقد لاحظ الأوضاع والأحوال السياسية في أفغانستان بنظر غائر، وقام بتحليلها، وكانت نقطته التي أراد أن نطلع عليها هي مدى استعداد أفغانستان لمساعدة المجاهدين وقدرتها على ذلك، وكم عدداً من المهاجرين يمكنهم أن يهاجروا إلى أفغانستان، وتستطيع الحكومة استقبالهم!.

فلما دخل إلى أفغانستان كان أمله كبيراً جداً، لكنه حين رجع منها، رجع خائباً يائساً. حكى عصام الدين لأبيه ما شاهده ورآه في أفغانستان، وقال:

«لقد أصدرت حكومة أفغانستان قراراً بأن أفغانستان لن تجير أحداً ولن تؤويه. وكان لوالي «مزار شريف[1]» علاقة وصلة مع الحكومة الروسية، فكانت رغبته أشد ونشاطه وولاؤه أكبر في تحقيق هذه الأحكام والقرارات، فكان يردّ المهاجرين الذين يصلون إلى الحدود بعد أن يعبروا النهر وعلى الفور. وبهذا قد رجع حتى الآن آلاف المهاجرين، وسلمهم إلى الجيش الروسي، وكان يأخذ مبلغاً كبيراً من المال من الروس عندما يرد أحداً من الشخصيات البارزة المهمة».

ثم سرد عصام الدين قصة حزينة وأليمة، ولم يكن المجاهدون يعلمون بها. كان القائد

(١) **مزار شريف:** مدينة مشهورة في شمال أفغانستان وقريبة من حدود تركستان.



«إبراهيم بك»[1] يقاوم ويقاتل الشيوعيين منذ مدة بعيدة في جبال «دَرْواز»، فحاصره الشيوعيون رويداً رويداً، وظلت الأرض تضيق على إبراهيم بك يوماً بعد يوم. وفي النهاية كسّر هو وأصحابه الذين بلغ عددهم حوالي (٢٠٠٠-٢٥٠٠) مجاهد حصار الشيوعيين، ودخلوا أفغانستان بعد أن عبروا «نهر آمو»، لكن أفغانستان رفضت أن تستقبلهم فسلّمتهم إلى الجيش الروسي بعد أن ألقت القبض عليهم.

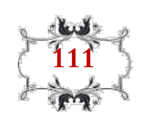
يقيم في أفغانستان مليونان من المهاجرين ما بين تركمان وأوزبيك وطاجيك، ويعمل بعضهم راعياً لغنم «كاراكول»[2]، ومهنة بعضهم حياكة السجاجيد، ويشتغل بعضهم في صناعات أخرى، وأما زعمائهم وقادتهم فيقيمون محتجزين في دار الحكومة بكابل، وأُخذ منهم ضمان ألا يقوموا بأي عمليات ضد الاحتلال الروسي. ثم بين عصام الدين الأوضاع السياسية والدينية في شبه القارة الهندية أيضًا، وفي اليوم التالي طلب شيخ المجاهدين بعد صلاة العشاء انعقاد مجلس الشورى للمجاهدين، وقد كنت من ضمن المشاركين فيه، وكانت العادة في مثل هذه المواقف تأخير أذان العشاء حتى يجتمع الناس جميعاً.

بعد ساعة تقريباً أذن لصلاة العشاء، وكان المكان مزدحماً جداً، فقام الشيخ بعد الصلاة يخطب، وكانت في يده بندقية وفي خاصرته سيف معلق، فتحدث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم إلى الحق وجهودهم في سبيل ذلك، وذكر الصراع الذي

---

(١) **إبراهيم بك** (١٨٨٩-١٩٣٢م): مقاتل أوزبكي مشهور في التاريخ، وأحد قادة المقاومة والكفاح ضد الجيش الأحمر الروسي.

(٢) **كاراكول** : نوع من الغنم ذات شعر طويل في آسيا الوسطى.



وقع بين الحق والباطل في زمن النبي ﷺ، ووضح الأوضاع في تركستان وأحوال المسلمين فيها من ضعفهم وذلهم ويأسهم، وحكى ما مارسه الشيوعيون من ألوان العذاب والتنكيل، كما تحدث عن مقاومة المجاهدين وكفاحهم، وبيّن كذلك خلاصة ما جاء به عصام الدين من الأخبار والأحوال في أفغانستان، ثم قال الشيخ:

«الآن أشيروا إلي ماذا ترون؟ هل تريدون أن تقاوموا الموجة وتقاتلوا الشيوعيين؟ أم تفضلون الهجرة؟ فكروا جيداً وبينوا لي رأيكم، ثم نعمل على وفق رأيكم ذلك».

كان الوقت ليلاً فعمّ الجو صمتا وسكونا، فلما انتهى الشيخ من حديثه و سكت، زاد ذلك صمتاً ووجوماً في الأجواء! ومضت على تلك الحالة عدة دقائق، فإذا بصوت المجاهد شاب قد بدأ يرتفع وجعل يضج في المسجد، وكان يقول:

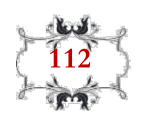
«إننا لما قدمنا هذه الجبال وأوينا إليها، فإنما قدمناها بعد تفكير طويل، وقد بايعناك يداً بيد، وما فعلنا ذلك إلا بعد أن أمعنا النظر في الأوضاع وتابعنا الأحوال جيداً، فإذن لا نزال قائمين على عهدنا ولا ننقض ميثاقنا ما دمنا أحياء، فلا نصالح الأعداء أبداً كما لا نختار الهجرة».

فقام عدد من المجاهدين الشباب وأيدوا رأيه، وأظهروا موافقتهم على إرادته، فقام الأمير مخاطباً الحاضرين، وقال:

«لقد استمعتم إلى آراء بعض أصحابكم، وعلمتم بإرادتهم، فهل توافقون كلكم على هذا الرأي؟».

الحاضرون: «موافقون تماماً.. موافقون.. موافقون!».

ضج المسجد بصيحاتهم، ورأيت وجه الشيخ يتهلل ضياء فرحاً وسروراً في ذلك المساء تحت أضواء المسجد الضعيفة. قام الشيخ مرة ثانية وخطبهم، وقرأ بعض الأدعية



المأثورة واختتم بالدعاء والابتهال، وفي الختام رفع الجميع أصواتهم بالتكبير والتهليل، وجدّدوا عهدهم، ثم انتشروا وانفض المجلس.

عدنا إلى أماكننا، فقال لي الشيخ «توره زاده (يا ابن الشيخ)! لم يبقَ أمامنا إلا طريقان: إما أن نرضى بالكفر والإلحاد ونعيش هنا مقهورين أذلاء، وإما أن ندافع عن ديننا الحق ونقاوم لأجله، ونبذل أنفسنا في سبيل ذلك. نعم! توجد لدينا طريقة ثالثة. وهي الهجرة. لكن السؤال: إذا هاجرنا فإلى أين نذهب؟ فقد سمعت عن الأوضاع في أفغانستان وعلمت بأحوال شبه القارة الهندية، وإن أرض الله واسعة رحبة، لم تضِق في زمن على أهل الإيمان كما ضاقت عليهم الآن!» ثم سكت الشيخ عن الكلام، فشعرت كأن سكون الليل وظلامه قد ازداد وتعمق بسكوته.

بعد صلاة التهجد، كان دور الحراسة على الشيخ نفسه، فقام بدوره طوال ساعتين، وكنت أصحبه في تلك المدة، فظل الشيخ يتحدث عن أمور وقضايا، فقال مرة:

«إن هذه الحركة للمجاهدين لا تضم الرجال فقط، بل تضم إليها النساء أيضًا، فقد أخذن التدريب العسكري ومن ذلك إذا أغار علينا الأعداء لا تصير النساء كلاً وثقلاً على كاهلنا».

وفي اليوم الرابع ارتحلت من عند الشيخ، فجعل لي عشرة فرسان يرافقونني في السفر، فما زلنا نسير ونختفي عن أعين الكتائب الجوالة للجيش الروسي، حتى صعدنا على رؤوس الجبال الشامخات، ثم نزلنا منها إلى أسفلها. ونمر على العقبات ونقطع الغابات الكثيفة، حتى دخلنا في اليوم السابع حدود قرية «قاينار قِشلاق»، من هنا يبدأ جبل «تاربوز» الشهيرة، وتقع في طرفه الآخر مدينة «سمرقند»، وكذلك مدينة شهر سبز كانت على مسافة قريبة من هذا المكان.

رجع رفاقي الفرسان أدراجهم، وغيّرت لباسي ومظهري، وحصلت على وظيفة لدى مالك الحَمير، وكان يذهب بقرابة مئة حمار إلى سمرقند، فمضى يوم في صعود الجبال، ويوم آخر في النزول منها، فلما وصلت إلى «سمرقند» ذهبت إلى «أوزْبِكتر» (مدير محل التموينات)، وطلبت منه أن يعطيني قماشاً عوضاً عن البطّيخ، فوافق لكنه قال: «تعال غداً في الساعة الثامنة لتأخذ ثوبك، سينعقد في مساء اليوم في «أفرا سياب»[1] اجتماع مهم جداً، ولا بد لكل فرد من الحضور فيه.

شدّ صاحب الحمير حمره في دار كبيرة مفتوحة، فطلبت من السيد إجازة ليلة كاملة، ووصلت إلى «ميمن قشلاق» مباشرة، ولقد تبدلت أوضاعها وتغيرت بيئتها خلال هذه الأشهر الثلاثة تغيراً بالغاً، كانت أحوالها أسوأ وأضعف، فقد نظرت في صلاة الظهر عدداً بسيطاً. وكانوا مرعــوبين وأثر الدهشة والحزن ظاهر على وجوههم. فسألت أحدهم همساً عن «دامْلا بخاري»، فعرفت بأنه قد قبض عليه الشيوعيون، ولا يعلم أحد إلى أين ذهبوا به.

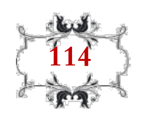
لقد قام الشيوعيون بعد أيام من غيابه بالإعلان، وضرب الطبول بأنه أُرسل «دامْلا بخاري» إلى فرغانة حسب إرادته، إلا أن هذا الإعلان لم يتمكن من إقناع العامة، فلم يطمئنوا بهذا الخبر، فالظن الراجح في أوساط الناس أن الشيوعيين نفوه إلى « سيبيريا» أو أوردوه مورد الموت والهلاك.

وصلتُ منطقة «شاه زِنْدَه»[2] قادماً من قرية « ميمن قشلاق»، كان يقيم في إحدى

---

(١) منطقة تاريخية قديمة تقع في شمال مدينة سمرقند.

(٢) **شاه زِنْدَه:** منطقة جنائزية قريبة من مدينة سمرقند.



دورها الخربة المهجورة «القارئ غفور جان» (عبد الغفور)، و كان غفور جان من نفس بلدتي «أنديجان»، وكان صاحب صوت أخاذ، ساحر، وكان قد تعلم القراءات السبع، فإذا كان يتلو القرآن الكريم يطرأ على المستمعين حالة و شعور غير اعتيادي، و لما قدمت هنا قبل ثلاثة أشهر، كان هو الذي أراني وزار بي «شهر سبز» القديمة، واصطحبني إلى «داملا بخاري».

اطلعت على أمور جديدة، و هي أن الشيوعيين قد استولوا على الأوقاف والآثار القديمة في منطقة «شاه زِنْدَه»، وأبعدوا القائمين على شؤونها والعاملين فيها، ثم عينوا مكانهم رجالاً مخلصين أوفياء -على زعمهم- يعود ولاؤهم للمكتب الشيوعي. و كان «غفور جان» يقيم تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الدائمة من قِبل هؤلاء القائمين على تلك الأوقاف والآثار منذ شهرين.

كان الناس يهرعون إلى منطقة «أفرا سياب» مهرولين [حيث نودي بهم للتجمّع]، وكان الظاهر في وجوههم الاضطراب، فسرتُ معهم حتى وصلنا مكان التجمع الكبير، وقد احتشد فيها عدد هائل من الجيش الأحمر وكمسومل والشيوعيين، فظل الناس يأتونها رافدين، والجمع يكبر ويعظم، وخلال نصف ساعة تجاوز عدد الحاضرين الآلاف.

ابتدأ الاجتماع بخطاب من أحد الشيوعيين، ماذا كان خطابه؟ لم يأت بشيء جديد! فلم يتجاوز تلك الافتراءات والأباطيل ضد الإسلام، ولم يزد على تلك الأكاذيب والهذيان عن الشريعة وأحكامها التي ظلت عادة راسخة للشيوعيين وسمة مميزة لهم، ثم أتي بتماثيل ثلاثة أحدهم كان عارياً إلا من إزار قصير على خاصرته، فلما أتوا به إلى المنصة أمطروا عليه الأزهار، ثم وضعوه في مكان مرتفع، ثم أحرقوا التمثالين الآخرين! فقام رجل وخاطب الحاضرين باللغة الروسية، وقال في التمثالين:

«هذان الرجلان من عملاء الاستعمار الإنكليزي في شبه القارة الهندية، وإن المكتب السياسي للاستعمار البريطاني أقام هذين الرجلين ضد حركة الاستقلال فيها، ويستفيد منهما في هذا الشأن أيما فائدة، وهما ينتسبان إلى المسلمين الذين ما زالوا يتجسسون لصالح الاستعمار، ويقال لهم: «علي بَرادَرَان» (أي: علي الشقيقان)»[1]. ثم عرّف بالتمثال العاري بهذه الكلمات:

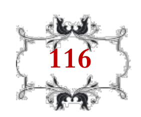
«هذا رجل عظيم، وهو القائد العام لحركة الاستقلال في هندُوستان (الهند)، ونظريته أنه يسكن في الهند شعب وحيد وهم: الهندوس، وغايته الوحيدة في حياته الاستقلال من احتلال الإنكليز، ويقال له «غاندي»[2]. وهو عادة ما يكون متجرداً من الثياب لأن قومه عبيد، فيقول: مادام شعبي جياعاً وعراة، وتحت سيطرة الاستعمار الإنكليزي، لا أزال أجوع وأتجرد عن الثياب. فهذا الزعيم العظيم عدو لدود للمستعمرين الإنكليز، وعملائهم وجواسيسهم الذين هم أصحاب الأملاك والإقطاعيين والرأسماليين المسلمين».

وبما أن المسلمين اعتادوا على افتراءات الشيوعية وأكاذيبهم وخرافاتهم الفارغة، فلم يقوموا بأي ردة فعل، وعلى هذا انتهت الجلسة بين ترديد الهتافات وتعالي الشعارات والغضب العارم نحو الرأسماليين وعملائهم. (بعد سنة وربع تقريباً، لما وصلت إلى مدينة

---

(١) المراد بهما «محمد علي جَوهَر» (ت: ١٩٣١م) وشقيقه «شَوكتْ علي» (ت: ١٩٣٨م): من أشهر الزعماء السياسيين المسلمين في حركة استقلال الهند ضد الإنكليز، ومن رواد النهضة الأدبية والصحافة الإسلامية في شبه القارة الهندية.

(٢) **موهنداس غاندي** (١٨٦٩-١٩٤٨م): زعيم سياسي، وكاتب هندوسي شهير، وهو الأب الروحي لدولة الهند.



لاهور عن طريق أفغانستان، وتشرفت بزيارة شاعر الشرق الكبير «محمد إقبال»[1]، ثم بينت له هذه الواقعة بالفارسية، فدعا العلامة إقبال الأستاذ ظَفَر علي خان[2]، والسيد حبيب[3] مدير جريدة «سياست» الأردية، وزعيما مسلما آخراً -لا أتذكر اسمه الآن- فأمرني قائلاً: «بيّن تلك القصة لهؤلاء مرة أخرى!»).

ذهبت من أفرا سياب إلى مكان إقامتي، فحكيت للسيد صاحب الحمير ما حل بالقارئ غفور جان من الشدائد، وما جرى لـ«داملا بخاري» من إلقاء القبض عليه وتغييبه، وظل السيد يستمع إلي منصتاً مصغياً، ثم ارتحلنا بعد يومين إلى شهرِ سبز. وفي الطريق أثناء السير سألت السيد: «يا عمّ! ومن هؤلاء الذين يقال لهم الشيوعيون؟ والاشتراكيون؟ وماذا يقصدون؟ وما هي أغراضهم وأهدافهم؟

«يا ولد! يا بدوي! إنك من سكان فرغانة، وبالذات من أبناء هؤلاء الرجال الذين صنعوا التاريخ المجيد الذين أشاد بهم «أنور باشا» بنفسه، ونالوا منه تقدير جهودهم الجبارة، وتضحياتهم العظيمة، والذين ما زالوا يقاتلون ويجاهدون ويدافعون عن دينهم ووطنهم منذ عشر سنوات! وأنت لا تعلم هذا الشيء البسيط. الشيوعيون هم الذين ينكرون وجود الله عز وجل ويسعون لإبادة من يؤمن بالله ويؤمن بقوته وقدرته، ويريدون قلعه من صفحة الأرض. وأما الاشتراكيون فهم الذين يدعون إلى إشراك

(١) **الدكتور محمد إقبال** (١٨٧٧-١٩٣٨م): شاعر إسلامي ومفكر وزعيم سياسي شهير. وهو الأب الروحي لبلاد باكستان.

(٢) **ظفر علي خان** (ت: ١٩٥٦م): صحفي وشاعر، ومن أشهر الزعماء السياسيين المسلمين في حركة استقلال الهند ضد الإنكليز.

(٣) **سيّد حبيب** (ت: ١٩٥١م): صحفي شهير، ومن زعماء السياسيين المسلمين في شبه القارة الهندية.

جميع الناس في الأموال، والأملاك والعقـــارات والنساء! فهل فهمت شيئاً؟.

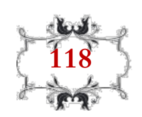
«لكن يا عم! إنكم تعيشون في الجبال والغابات، فكيف اطلعتم على هذه الأمور؟» وجهت إليه سؤالاً آخراً.

فجعل السيد ينظر إلي بإمعان وبدلاً من الإجابة بقي صامتاً، فلعل هذا السؤال رابه وأوقع في نفسه الشكوك! فقد كان يحسبني من أعضاء كمسمول! فندمت في نفسي على حماقتي هذه، وشعرت بالاضطراب الشديد في قلبي، فلو أن السيد أراد أن يسقطني من الجبال في حين غفلة مني أو يجعلني تحت حجر.. لفعل!

مضت نصف ساعة على هذه الحالة، لم يتكلم فيها ولا بكلمة واحدة، فظللت أفكر في نفسي: «يا للأسف لقد أتى علينا زمان يخاف الرجل من صاحبه ويشك كل واحد في غيره!» ولقد قطعنا الممرات الجبلية وأمامنا عين وجعلت الشمس تغرب، فلما بلغنا العين توقفنا، وأسقينا الحمر الماء، وملأنا القِرب، وتوضأنا، ثم أقمنا صلاة المغرب، كان السيد صاحب صوت عذب وشجي، فلما بدأ يتلو القرآن الكريم شعرت كأن الأرض والسماء والجبال والفضاء الأخضر والماء الفياض من العين كل ذلك طرأت عليه حالة السرور والفرح!

تناولنا طعام العشاء بعد المغرب، ثم أدينا صلاة العشاء، وبدأت القافلة تسير إلى الأمام، وفي اليوم الثاني بلغنا مشارف مدينة «شهرِ سبز» والأماكن القريبة منها، فالآن حان وقت الانفصال عن القافلة، فقدمت إلى رئيس القافلة وودعته واستأذنته، وسرت إلى شهرسبز عن طريق منطقة «سَري آسيا».

دخلت مدينة «سَري آسيا» وقت غروب الشمس مرورا بمدفن جدي لأمي الشيخ غياث الدين إيشان. وكان قبره خارج المدينة على مسافة قليلة، وكان المكان المحيط به



يحتوي على نصف فدّان[1]، والقبر كان غير مجصص. وكانت أطرافه الثلاثة من الجهة الغربية مفتوحة، وفي المكان قاعة تتسع في وقت واحد ألفين أو ألفاً وخمسمائة رجل، فأمضيت الليلة في القاعة في تلاوة القرآن الكريم والذكر والاستغفار والدعاء والابتهال، واتجهت إلى المدينة وقت السحر قبيل طلوع الفجر، وأديت صلاة الفجر في مسجد هناك.

كان في «سَري آسيا» بساتين لحضرة الخال العزيز، وفيها أشجار كثيرة لأنواع مختلفة من العنب والرمان والتين واللوز والجوز والخوخ والتفاح وغير ذلك. فولجت بستاناً لعلّي أجد فيه من أعرفه من معارفي، فأطلع منه على الأوضاع في شهرسبز، ثم أذهب إلى خالي الكريم.

وعند الظهيرة جاء أحد خدام خالي، والتقى بي في انبساط وحرارة، لكن كان فيه اضطراب وتحير، فسألته:

«هل أنت بخير؟ يبدو أنك مشتت الذهن؟» فألقى الخادم نظراته يمنة ويسرة، وكأنه يشك في أن يسمعه أحد غريب ثم بدأ يقول:

«لقد حاصرت كتيبة من الجيش الأحمر قلعة الشيخ الخوقندي عند الساعة الثانية من الليلة الماضية، وجعلوه تحت الإقامة الجبرية والمراقبة، وهذه المحاصرة الثانية كان عليه بعد ٣٧ يوماً».

أنا: «كيف حال عَظّام خان (ابن خالي)؟».

الخادم: «هو بخير وسلامة».

أنا: «هل يمكنك أن تخبره بقدومي؟».

---

(١) واحد فدّان = ٤٠٤٦ متر مربع.



الخادم: «إذا سنحت لي الفرصة أخبره بالضرورة». قال ذلك ثم انصرف الخادم. وقد رحل من عندي وقت العصر، فعاد في المساء، ثم انقضت الليلة. ومر نهار اليوم التالي كذلك، وصارت ساعات الانتظار تطول وتمتد. كنت أنتظر وأقضي وقتي بذكر الله تعالى، حتى جاء «عَظّام خان» في الساعة الواحدة ليلا، وجاء معه «تيمير بك» أيضًا.

جرت الأحاديث بيننا طويلاً، وحكيت لهما قصة سياحتي بالتفصيل، وأخبرني «عَظّام خان» أنه لا يمكن لأحد أن يلتقي بالشيخ الخوقندي لأن الحراسة شديدة جداً. ثم حكى لي حادثة مفجعة ومؤلمة، وإذا تذكرتها حتى في يومي هذا يقشعر منها جلدي ويتحرك قلبي ويقف شعر بدني، فمضى «عَظّام خان» يحكي:

«في الأسبوع الماضي قدم إلى الشيخ الخوقندي رجل موثوق به من سمرقند، فقال للشيخ الخوقندي:

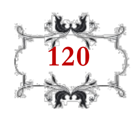
لقد طلبت الشرطة السرية للاتحاد السوفيتي حسب أوامر ستالين[1] من جميع أطراف روسيا علماء المسلمين من التتار والترك والقفقاس، ووضع بين أيديهم محضراً وكتب فيه:

"نحن حملة الدين وممثلو الإسلام ونؤمن بأن محمداً ﷺ كان ولد قبل قرون طويلة في بلاد العرب، وكان قد أصلح شؤون قومه، والآن جاء لينين في هذه الدنيا الفاسدة المختلة، وأنقذ البشر من الظلم والهلاك، وإننا نعلن بأن ما كتبه (كارل ماركس)[2] ولينين، وما قالا هو الإسلام الآن، وجدير بأن يعمل به المسلمون جميعاً."

---

(١) **جوزف ستالين** (١٨٧٨-١٩٥٣م): الرئيس الثاني للاتحاد السوفيتي من عام ١٩٢٩م حتى وفاته. اشتهر فترة حكمه بالقسوة والجبروت.

(٢) **كارْل ماركس** (١٨١٨-١٨٨٣م): عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني، ويعتبر من أبرز منظري الشيوعية

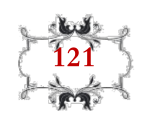


وأمر هؤلاء العلماء بأن يوقعوا على المحضر، لكن رجال الحق واليقين ردوا هذا الأمر، ورفضوا استلامه، وقالوا بكل جرأة وصراحة: "أين الثرى من الثريا؟! وأين التربة القذرة من العالم النظيف الطاهر!؟ وماركس ولينين لم يكونا سوى شخصين عاديين، كانا يعبدان المادة، فأين فلسفتهما ونظرياتهما -وهي مخالفة لفطرة الناس وطبائع البشر- من تلك التعاليم السامية والأحكام الرصينة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، والتي تنسجم مع فطرة الإنسان انسجاما كاملا."

وحينئذ جنّ جنون الشيوعيين من هذا الإنكار الجريء من علماء المسلمين، فلم يكتفوا بإلقاء القبض عليهم، بل بدأوا بالقبض على مئات العلماء الذين يدينون ويعتقدون نفس الاعتقاد، وفعلوا ذلك كله في ليلة واحدة. فنفوا الكثير إلى «سيبيريا»، وأرسلوا ٩٣ رجلاً من العلماء البارزين الأجلاء على الشاحنة إلى جبال مدينة «أوش» تحت حراسة الجيش المسلحين. ثم أعطي كل عالم كيساً مملوءا بالكلس وأعطي معه مجرفة، ثم أمر عالم أولاً بحفر حفرة، عرضها قدم[1]، وعمقها قدمان، وطولها خمسة أقدام، فلما انتهى من حفرها، أمروه بالنزول فيها، وما إن نزل فيها حتى أطلقوا عليه رصاصات فسقط العالم جريحاً في الحفرة، فأمروا العالم التالي الذي يحمل الكلس أن يلقيه على الجريح.

ولم تكن لديه أي حيلة إلا أن يمتثل بما يصدر من الأوامر، وكان الجريح يصرخ ويصيح من الألم، ثم صدر الحكم بتغطية الحفرة بالتراب، وهكذا تم دفن ذلك العالم حياً. وبهذه الطريقة الوحشية أزهقوا أرواح ٩٢ عالماً، حيث كلفوهم بحفر قبورهم

(١) القدم الواحد يساوي ١٢ بوصة.



بأيديهم، إنهم قضوا عليهم جميعاً، وبقي واحد منهم، لم يجرحوه ولم يطلقوا عليه الرصاص، بل دفنوه حياً. ولما انصرف الجيش الأحمر استطاع هذا العالم الخروج من الحفرة، وسار خفية حتى بلغ مدينة «كاشغر»[1]، ومن هناك هاجر إلى بلاد الهند. وفي سنة ١٩٣٥م وقع اللقاء بيني وبين هذا العالم الجليل في مدينة «دهلي» الهندية، وحكى لي نفس الواقعة تماماً التي حكاها الرجل القادم من سمرقند بحضرة الشيخ الخوقندي.

والجنود الذين ذهبوا بهؤلاء العلماء، كان كلهم من الروس أو من الأرمن، وكان قائدهم أرمنياً اسمه «داداش»، وكان في الكتيبة كلها شاب تَتَري، فتأثر هذا الشاب من هذه الحادثة الأليمة، ولما سنحت له فرصة الانفصال من الجيش هرب، فوصل من مدينة «أوش» إلى «سمرقند» ومنها إلى «شهرِسبز»، وحدّث بها الشيخ الخوقندي، ثم هاجر إلى أفغانستان.

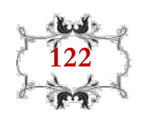
ثم زاد تيمير بك وفصّل في وصف الأحوال، وقال: «لقد تحولت الأوضاع في «شهرسبز» و«كتاب» و«غزار» من سيء إلى أسوأ، فقد غيّب مئات من الناس، وأغلبهم من العلماء البارزين، وأعيان القادة والزعماء، وقد بسطوا شبكات الشرطة السرية في شهرسبز وفي كل قرية مجاورة لها، وصنعوا لها نظاماً محكماً. وفي الأمس تمركز رجال الشرطة السرية في محطة شهرسبز.

«توره زاده! (يا ابن الشيخ) بماذا تفكر؟» سألني تيمير بك.

أنا: «لقد وددت أن أزور شهرسبز ولو لمرة واحدة».

---

(١) **كاشغر:** مدينة مسلمة تاريخية، ومن أهم مدن بلاد تركستان الشرقية التي تسيطر عليها حاليا دولة الصين الشعبية.



تشاور «تيمير بك» و «عظام خان» فيما بينهما، ثم استقر الأمر على أن أذهب إلى شهرِسبز في زيّ البستاني، فأُعطيتُ ثلاثة حمر ووُضعت عليها سِلالاً مملوءة بالعنب، ثم رحلتُ، وكان قد رافقني بستاني يكبرني في السن قليلاً. وكان علي أن أوصل هذه السلال إلى أصحاب المحلات المجاورة للبوابات الأربع من جملة اثنتي عشرة بوابة حول مدينة - «شهر سبز».

هكذا وجدت فرصة لزيارة جزء كبير من شهرسبز، فكانت المدينة تبدو وكأنها تحت قبضة الجيش وسيطرتهم الكاملة، وكان الجيش يتجولون في كل أنحاء المدينة وكانوا كلهم روسيون.

كنت أسوق الحُمر إلى بوابة قرشي، وفجأة سمعت أوزبَكْتر (مدير المحل) يناديني باسمي، فأظهرت تجاهلي، فناداني صائحاً: «خوقندي توره!» (أيها الشيخ الخوقندي).

«مَن هذا؟» قلت في نفسي! فتوقفت بعد أن مشيت قليلاً ونظرت، فإذا رجل يخرج من حانوته إلى الطريق. كان الرجل واحداً من أولئك القازاق المُنَوّرين الذين سرتُ معهم من محطة «قرشي» إلى الفندق للتخلص من اللصوص الروسيين في القطار. ضمّني الأخ بحرارة وحنان، وقال: «ارجع إلي لزاما بعد أن تترك هذه الحُمر!».

رجعت إليه في الساعة الرابعة فوجدته ينتظرني، فعرفت بأن الرجل مسؤول في المحل ومحاسب فيه، وكان الموظف الآخر يهودياً. فحكى لي أحواله وما جرى عليه خلال هذه الأشهر الأربعة، وأين ذهبوا بعد «قرشي» وأين تجولوا، ثم كيف وصل هو إلى شهر سبز، فعاد قائلاً:

«أين تقصد هذه الأيام؟».

أنا: «أفكر أن أزور كركي».



الرجل: «ومنها تريد الذهاب إلى أفغانستان؟» قال لي.

أنا: «نعم، إذا اضطررت إلى الذهاب إليها، ولم يبق لي سبيل آخر».

الرجل: «أين ستذهب الآن؟»

أنا: «عند تيمير بك أو قلعة حضرة الخال».

الرجل: «لا .. لا .. لا تذهب إلى القلعة، نعم إذا كان منزل تيمير بك فارغاً فامكث في منزله، وإلا يحسن بك أن تذهب إلى سَري آسيا، وأما إذا اتجهت إلى القلعة فإنهم سيقبضون عليك فوراً. أين تركت الحمر؟».

أنا: «كان معي عامل آخر وأخذها مني».

الرجل: «أحسنت».

كانت البضائع مبعثرة في المستودع، فقال أوزبكتر: «تعال هنا، وقم بترتيب هذه البضائع، وسأعطيك أجر عملك. فرتبت البضائع في مواضعها خلال نصف ساعة، فأعطاني الأوزبكتر ورقة بخمس روبلات، فحصلتها من اليهودي القيّم على المستودع، فقال أوزبكتر: «تعال غداً أيضًا؛ فإني أرجو أن يتوفر عمل لك».

وعندما استلمت الروبلات من يد اليهودي وقّعت على السجل بالأحرف اللاتينية، فظل اليهودي يراقب كتابتي ويمعن النظر فيها!

وصلت إلى مدرسة «مالك أشتر» قبيل غروب الشمس، وكانت المدرسة قد تحولت إلى بيت للمآسي، فقد انتشر الهدوء في أرجائها بين جميع المدرسين والطلبة، والحزن والألم خيم على وجوههم، فتبين أن الشرطة السرية قبضت على عالمين بارزين، وكانا من الأساتذة المتميزين البارعين في المدرسة، وقد مضى لهما فيها عشرون يوماً، ولا يدري أحد أين هما؟ وهل هما حيان أم قُتلا؟

وفي هذا الجو الحزين أدينا صلاة المغرب، وكان عدد الحاضرين في صلاة الجماعة بسيطاً جداً. وأكثر الناس صلوا في غرفهم منفردين، وكان الليل قد أرخى سدوله. كنت متحيراً من أمري، أين أذهب وأين أقضي ليلتي؟ فقد مُنع الغريب والأجنبي من الإقامة في المدارس والمساجد!

ظللت أفكر مضطرباً حتى ظهر تيمير بك وهو قادم إلي. وكان عليه زيّ البستانيين، فمرّ بي صامتاً، ومضى يمشي ساكتاً، ولم يلتفت إلي مطلقاً، فأدركت أن الأمور ليست على ما يرام، وأنه جاء ليذهب بي، فاقتفيت أثره بحيث لا يشعر بي أحد أني ذاهب برفقته.

كان دكّانه على مسافة ٤٥٠ قدماً تقريباً، فولج داخل المحل، وتقدمت أنا إلى الأمام. ولما مشيت قليلاً رجعت إلى الخلف فرأيت رجلين يقدمان تجاهي ويتحدثان، فخففت مشيتي حتى يتقدم الرجلان فمرّا بجانبي ودخلا في منزل يبعد ٢٠٠ قدم، فرجعت مسرعاً وبلغت دكان تيمير بك. وكان ينتظرني ويراقبني من نافذة غرفته العلوية، فنزل منها وفتح لي الباب، ورافقني إلى الدور العلوي من دكانه، ثم سمع مني ما جرى لي اليوم بتفاصيله، وعرفت منه أن اسم ذلك أوزبكتر: «تُنْكُري قُل»، ثم سألني:

«هل حدثك «تُنْكَري قل» عن أي شيء جديد؟».

أنا: «لا».

تيمير بك: «الأمر الجديد هو أنه صدر قرار بنفي الشيخ الخوقندي إلى سيبيريا! فقامت المدينة بأسرها بالاستنكار ضد هذا القرار، وقد أرسلنا ما لا يحصى من الرسائل إلى زعماء الشيوعيين البارزين الأربعة في المدينة، وكان مفادها كلها واحداً: " لو مس الشيخ

الخوقندي أي ضرر، أو تجرأ عليه أي أحد بالتعدي عليه، سنأخذ بثأر كل مفصل من مفاصل الشيخ الخوقندي من الشيوعيين!". فعقد الشيوعيون المدنيون جلسة، وفكروا في الحالات المحتملة التي ربما يتعرضون لها، ثم أصدروا القرار التالي:

"لا شك أن الشيخ الخوقندي روحاني لكنه رغم ذلك إنسان يعيش بين العوام، وإنه لا يزال يبذل حياته في خدمة الشعب، فلذلك يُترك مع أحواله وأعماله ولا يتعرض إليه".

ثم نشر هذا القرار في أرجاء المدينة، وأعلن به بالضرب على الطبول. وهكذا سكن الغضب ورفع الاضطراب المنتشر بين الجماهير، لكنه شيء طارئ؛ فقد أضيف عدد كبير إلى الشرطة السرية في المدينة، وبدأت الشرطة تتجول بالزي الأبيض، وتحرس الجهات الأربعة لقلعة الشيخ الخوقندي، وقد بلغ المدينة في هذه الليلة الجيش الأحمر، وعُينت كتيبة منهم داخل القلعة».

في الساعة الحادية عشرة مساءً، قدم «**تُنْگري قُل**» فبدأ يقول: «لماذا وقعت بالأحرف اللاتينية عندما أخذت الأجرة؟ لا تفعل ذلك مطلقاً». فعلمت منه أنه لما رجعتُ بعد الحصول على الخمس روبلات سأله الموظف اليهودي: «من أي بلد هذا الفتى؟ يبدو أنه ليس من سكان هذه المدينة؟ وأين يقيم هنا؟».

ثم جرى بيننا الحديث حول أوضاع الوطن وأحواله إلى نصف الليل، وظلت سيطرة الشيوعيين المستبدة تشتد وتزداد، وصار الناس في «قرشي» و«غزار» و«كتاب» و«سري آسيا» و«شهرِسبز» وغيرها من المدن يغيبون في كل ليلة إلى جهة مجهولة! لعل الشيوعيين كانوا بصدد الإغارة وشن الحرب للمرة الأخيرة على المسلمين وعلى دينهم وعقائدهم وتعاليمهم. ثم جاءت قضيتي فجرى النقاش حولها، وفي النهاية استقر الأمر بأن الأفضل لي أن أذهب إلى «أفغانستان» فالحالة هناك مازالت عادية نوعاً ما، فإن وجدت مثوى

وملجأً فيها فبها، وإلا أرتحل إلى هندوستان (الهند)!

✿✿✿

في النهاية جهّزت أمتعتي للسفر وسرت نحو أفغانستان عن طريق «كركي»، والحسرة من عدم تمكني بلقاء خالي الكريم باقية في قلبي بمرارتها، وأعاد إلى تيمير بك الأغراض التي أعطتنيها أمي. فوصلت إلى محطة السكة الحديدية، وركبت -مستعينا بالله- القطار المتجه إلى «تِرمِذ»، وقبل محطة «كركي» الكبيرة، تقع المحطة في مكان اسمه «إمام جعفر» في منطقة نائية عن المساكن والعمران، ويقع على مسافة منها مدفن فسمي المكان على اسم صاحبه.

فلما وصل القطار إلى هذا المكان توقف فيه، فهل توقف فيه حسب النظام المعتاد المعمول به أم على اتفاق مسبق، فالله أعلم بحقيقة الأمر. نزل كثير من الركاب من العربة التي كنت فيها، وفي الأخير نزل شابان قويان من «فرغانة» مع أمتعتهما القليلة فنزلت بعدهما، فجعل الناس يمشون قريبا من السكة الحديدية. ظللت أنظر حولي متحيراً متردداً، وكان القطار قد غاب عن الأنظار، والناس تسير في صف طويل، وهذان الشابان كانا في آخر الصف. الجو كان مخيفاً ومرعباً جداً، ولم أكن أعرف في أي مكان أسير أنا؟ وأين يذهب هؤلاء الناس؟ (ثم تبين لي مؤخرا أن اسم المكان: إمام جعفر).

وظللت أمشي خلف هذين الشابين لا إراديا، وكان الناس يسرعون في المشي حتى غاب بعضهم عن الأنظار، ظللنا نسير لنصف ساعة، حتى بلغنا شاطئ «نهر آمو» في الساعة الثانية عشرة تقريباً. ولما وصلنا شاطئ النهر غسل الشابان وجوههما وأيديهما وجلسا في مكان، فجلست على بعد مسافة قليلة منهما، ولم أكن أكلت منذ الصباح، وكان زاد السفر قليلاً، فأخرجت من كيسي الهدية الخاصة من شهر سبز «كوماج» -خبز

خاص يصنع بوضعه على رماد الجمر-، وبعضاً من عناقيد العنب وذهبت بهما إلى الشابين فسلمت عليهما ووضعته أمامهما ودعوتهما للطعام حسب التقاليد الأوزبكية: «يول بولسون هارمنگ لر»، أي: سهل الله سفركم بغير تعب ولا نصب. فردّا علي السلام والتحية، وقاما فصافحاني ثم جلسنا جميعاً. فأخرجا من كيسهما «تالقان» ووضعوه أمامي «التالقان» وهو سويق تركستاني يطهى الدقيق والأرز أولاً ثم يمزج مع السكر، ويضرب جيداً ثم يلف. وعند الضرورة يتناول قطعة من التالقان ويشرب معه الشاي الأخضر أو الماء. وله أهمية كبيرة خاصة في أيام الحرب والمجاعة، حيث يمكن الاكتفاء به. فسألني أحدهما:

«هل تزور المقبرة؟».

أنا: «نعم».

«هل ستلتقي بالقارئ مسعود؟». سألني أحدهما.

أنا: «أي مسعود تقصد؟».

«القارئ مسعود من سكان الپايتوق ؟» بيّن لي أحدهما.

وقعت في حيرة، فقبل سنتين تقريباً كنت ذهبت إلى «أنديجان» لا ستخراج جواز السفر، وكنت نزلت في داره في «پايتوق»، ففضّلت ألا أجيب على هذا السؤال.

وبعد الفراغ من الطعام والشراب سرنا نحو قرية «إمام جعفر»، وكانت هذه القرية عامرة على جانب من النهر حتى وصلنا إلى مسجد رائع جميل. وكان مبنياً من الحجر بجانب شط النهر، وكان جزء كبير منه ممتد داخل النهر، كان منظر المسجد ساحراً، وكان نهر آمو يجري من «تبريز» ويواصل جريانه تحت المسجد فيرتطم بأعمدته. وكان «القارئ مسعود» يتجول ويمشي أمام المسجد في صحنه، فالتفتُ إلى الخلف فلم أر أصحابي!

كان عدد المصلين الحاضرين في صلاة الظهر قرابة ثمانية رجال، وكان «القارئ مسعود» أمامنا. وبعد الانتهاء من الصلاة جلس المصلون في حلقة الدرس، وكان ذلك عادة رائجة في تركستان كلها. كان الناس يجلسون بعد الفراغ من الصلاة، ويتلو أحد الحاضرين ما تيسر من القرآن الكريم، ثم يترجمها الإمام ويفسرها. فطلب مني الإمام أن أتلو شيئاً من القرآن الكريم، فجرت على لساني سورة الإنسان، فتلوتُ السورة كاملة مرتلاً بصوت حسن، فطرأت على القلوب حالة خشوع عميقة، وبكى الجميع وذرفت دموعهم فصرتُ أبكي معهم!

جرت حلقة الدرس لمدة ساعة تقريباً، ثم خرج المصلون إلى بيوتهم، وانطلق الإمام إلى غرفته، وظللت جالساً في مكاني مغمضاً عيني. وفجأة تذكرت الاستخارة التي كنت عملتها في «مسجد مغاك» في «بخارى»، وتلك الرؤيا التي رأيتها في تلك الليلة.

فقد رأيت كأني اقتنيت تذكرة قطار لمدينة «تِرْمِذ»، وركبتُ القطار فتوقف في بيداء بعيدة عن العمران، وأن الناس يسمون هذا المكان بإمام جعفر، وبدأ بعضهم ينزل، فسألت أحدهم هل أنزل أنا أيضًا؟ فيجيب الرجل: لا، محطتك بعيدة من هنا، وتصلها في الليل. وفي أثناء ذلك ينزل شابان من القطار، ويبدو من مظهرهما أنهما من وادي «فرغانة»، فتبعتهم ومشيت على بعد مسافة قليلة منهما، ثم دخلت مسجداً بُني قريبا من مدفن وقامت بعد مدة قليلة صلاة الظهر، وجلس الناس بعد الصلاة في حلقة الدرس، ثم أخذت بتلاوة سورة الإنسان: ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً** ﴾ [الإنسان: ١] فبكى الإمام بكاء شديداً. ثم سرتُ إلى أفغانستان ودخلت في حدودها، فأخذني ١٢-١٣ شاباً أفغانياً، واختلفوا في شأني فيما بينهم، إلا أنهم عاملوني معاملة طيبة، وأطعموني وواسوني، فشعرت بالراحة، ولم أحس في قلبي شيء

من الحزن والخوف والأسى. ثم انفتحت عيناي واستيقظت.

هكذا فقد تحقق الجزء الأول من هذه الرؤيا أمامي واقعياً بالفعل، فازداد إيماني ويقيني بما قاله رسول الله ﷺ: «إذا همّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة...»[1] فطرأت علي حالة غريبة، سرى في دمي حماس واندفاع وشعور عاطفي قوي، وفجأة خرجتْ من فمي كلمات باللغة التركستانية، وصحتُ بها:

«يا الله! إنني أومن بك، لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء، أنت الحافظ القادر، أنت الرزاق والسميع والبصير، والموت والحياة بيدك، والشيوعيون جهلاء وغافلون وظالمون، إني أفوض أمري إليك وأستعين بك».

وعندما سمع القاري مسعود هذا الثناء والحمد، خرج من غرفته، فقال:

«أيها الشاب المسافر! أين تقصد؟».

أنا: «كركي».

القارئ مسعود: «هل لديك تصريح؟».

أنا: «وما ذلك؟».

القارئ مسعود: «التصريح هو رخصة للسفر والانتقال، يجريها القائد في الجيش الشيوعي».

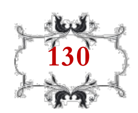
أنا: «إذن أعدها لي من فضلك».

القارئ مسعود: «هل لديك نقود؟».

فأخرجت له خمس روبلات من حوزتي، وقدمتها له. فسأل:

---

(١) رواه الإمام البخاري (رقم: ٦٣٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.



القارئ مسعود: «هل أبقيت لنفسك شيئاً؟».

أنا: «نعم، الكثير من فضل الله عز وجل».

كنت قد اشتريت من «قرشي» عدداً من الأقمشة والثياب، و لما ذهبت إلى شهر سبز باعها لي تيمير بك بربحٍ وفير، وعند الرحيل سلّمني النقود، فأخرجت منها نصفها وقدمتها للقارئ مسعود، وقلت: «اصرف هذه في نفقتك وحاجاتك، فمن يدري لعلها تضيع مني».

فأصابت القاري حيرة، فقال:

«يا شاب أنت مجنون! إنك في حاجة إلى هذه النقود، فإن أهل كركي ليسوا أصحاب جود وكرم مثل أهل نمنگان، كما أن الرحمة والشفقة في قلوبهم قليلة جداً. ثم سألني:

«هل أنت أعظم خان النمنكاني؟».

أنا: «نعم». فبدأ القارئ مسعود يعرّف بنفسه.

بدت البسمة في وجهي وقلتُ:

«إنني عرفتك عندما رأيتك! ولقد أخبرني الشابان الفرغانيان بأنك تقيم في إمام جعفر». ثم بدأ يذكر لي ذكرياته في الأيام الماضية، فعندما توفي العلامة «ثابت خان داملا»، قدِم العلماء البارزون الكبار إلى «نمنگان»، وأقاموا في بستاننا. و كان القارئ مسعود ممن حضر تلك المجالس، ثم بدأ يحكي لي بعض الذكريات والمواقف التي شاهدها هناك. وكان يبكي أثناء حديثه بكاء مريرا بالتأثر.

ثم غيّر القارئ مسعود الموضوع وقال:

«أنا أقيم هنا في قرية إمام جعفر منذ سنة ونصف. لقد تأثرت بقراءتك جدا بعد صلاة الظهر، وخاصة عندما قرأت الآية ورددتها مرارا ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ**



﴿آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[الإنسان: ٢٤] فتذكرت وجوه هؤلاء العلماء الأفذاذ والمشايخ الكبار وأبطال بلاد التركستان الذين تمثلوا بهذا الحكم الرباني. لقد حاول الشيوعيون إغراءهم بشتى الوسائل ليسيروا معهم في دربهم، ولكن لم يفلحوا! فماذا فعلوا؟ لقد اختاروا طريق الظلم والجبروت فعذبوهم أشد تعذيب، ومع ذلك لم تتزلزل أقدامهم، ولم يفزع مقدامهم حتى استُشهدوا على تلك الحال.

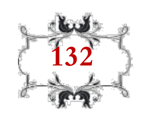
هؤلاء الظلمة أخذوا الشيخ «القاضي عبد المجيد خان» من بيته في الليل المظلم وذهبوا به إلى الغابة وضربوه ضربا شديدا حتى انجرح وسالت جروحه دما غزيرا ثم دلّكوا جسمه بالكِلس، وأهالوا عليه الرماد الحار بعد أن طرحوه في الحفرة!

وهكذا أُخذ الشـــيخ «محيي الدين» ثم قيل له: "لو اعترفت بأن لينين مساوٍ لمحمد ﷺ –والعياذ بالله– وأعلنته بين عامة الناس، لأصدرنا قراراً بأنك وأولادك وأقاربك وأصدقائك والمحبين لك كلهم فوق القانون، ولا يؤاخذ أحد منهم وإن صدر منهم أشنع الجرائم وأكبرها. فقال الشيخ مخدوم –نوّر الله مرقده– وهو في غاية التحمل والصبر على حاله:

«چه نسبت خاك را با عالم پاك»[1] أي: أين التراب القذر من عالم النقاوة والطهارة؟! فشتّان بين الثرى والثريا! فإن لينين لا يساوي ذلك التراب الذي بال فيه رسول الله ﷺ وقضى فيه حاجته. إنه الظالم الطاغية الفاجر العابث عبيد المادة، وينكر جميع الأمور الغيبية، وليس ذلك فحسب، بل إنه يسلب حق الحياة كل مَن يعتقد ويؤمن بهذه الحقائق، ولو كان متميزا بين الناس في عقله وعلمه وقدراته ومؤهلاته الفائقة!

---

(١) مَثل فارسي.



وبالعكس تماماً، فقد كان سيدنا محمد ﷺ إنساناً كاملاً، ومحسناً عظيماً إلى الإنسانية، وقد رأى بعينيه تلك الحقائق التي تغيب عن أعين الناس، ثم دعا إليها الناس، ولقد أخرجَ الناس من الظلمات إلى النور.

فلما سمع الشيوعيون هذا الرد المفحم من الشيخ تميزوا من الغيظ، وجنّ جنونهم فجعلوه في مكان مرتفع، ووضعوا أمامه خمس فرق مسلحة. فرقة استهدفت رأس الشيخ والثانية كتفيه، والثالثة صدره، والرابعة فخذيه، والخامسة ركبتيه. ثم أطلقوا عليه الرصاص في وقت واحد، فتقطع جسده وتجزأ في لمح البصر، ولم يبق منه إلا الدم، وبعض الأشلاء من اللحم. ولقد بذلوا غاية جهدهم في إخفاء هذه الحادثة الدامية الهمجية، وسعوا في ألا يطلع عليها الناس، لكنهم فشلوا في ذلك. ولم يمض أسبوع عليها حتى انتشر الخبر على ألسن الناس في كل مكان، وحتى بين الصبيان! وهذا الثبات والرسوخ والبسالة قد زادت في إيمان الناس وتمسكهم بالدين، وأثرت في أنفسهم تأثيراً عميقاً، ورسخت في إيمانهم عظمة الإسلام وصدقه. وعندما كررت تلاوة هذه الآية الكريمة من سورة الإنسان أشرقت في ذهني ذكريات الشيخ مخدوم والعلماء الكبار والمشايخ الأفاضل الآخرون، وتذكرت مشيهم وذهابهم وإيابهم ومجالسهم ومحادثاتهم في بستانكم، كما تذكرت مواقف استشهادهم في سبيل الله. ثم استنشق القارئ الهواء البارد عميقاً، وعاد يقول بعد توقف قليل:

«توره زادَه (يا ابن الشيخ) كيف جئت هنا؟ وأين تقصد؟».

أنا: «جئت أزور كركي، ولعلك تعرف أناسا هناك فعرفني بهم من فضلك».

القارئ مسعود: «نعم، يقيم رجلان أو ثلاثة ممن أعرفهم».

ثم أفهمني جيداً كيف أعثر على بيوتهم، ودلني على الطريق بشكل تام، وقال:

«يتجه من هنا مَركبا إلى الطريق الآخر في الساعة الرابعة يومياً، وعلى العبور يطلبون منك جواز السفر والتصريح، فعليك أن تقول: أنا أخ القارئ مسعود، أريد مشاهدة المدفن وسأرجع، وادعى بعض زملائي أن طوله سبعة أذرع، فحصل الخلاف بيننا، وأريد أن أتأكد من الأمر بنفسي[1]. فإن تركوك تذهب، فحسن. وإلا فقد تكون الحالة محرجة والقضية صعبة، ففكر الآن جيداً».

فأخذت كتاب «دلائل الخيرات» و«المصحف الشريف» الذي أعطتنيه أمي، وربطتهما على كتفي، وأعطيت بقية المتاع بما فيه من الساعة الجيبية النفيسة، وألفيْ روبل إلى الأستاذ القارئ مع الحقيبة، وقلت له: «ضع كرماً هذه الأشياء عندك، وإن تمكنتُ من التخلص من أيدي الجيش الروسي وعبرت النهر أبلغك عن حالي بواسطة هؤلاء الذين ذكرتَهم لي، فإن سمحت الأوضاع بإرسال هذه الأشياء فافعل. لكن إن قُبض علي، سأنكر أي علاقة لي بك، وكذا تُنكر أنت معرفتي».

---

(١) بما أنه جاء في بداية الكتاب وسيأتي مجددا أيضًا بعض إشارات المؤلف حول مسألة تشييد القبور والسفر بقصد زيارتها، وبناء الأضرحة وتعظيمها في مجتمعه، يجدر بنا نقل ما قاله الأستاذ أبو الحسن الندوي حول هذا الأمر حيث حلله تحليلا جيدا، فيقول رحمه الله: "وكانت النتيجة الحتمية لهذا الإجلال والتعظيم أن تتزايد أهمية المشاهد بإزاء المساجد . . . فقد انتشرت هذه المشاهد والمزارات في كل ركن من أركان العالم الإسلامي، ووجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة، وتصدى الأمراء والسلاطين لوقف الممتلكات والأراضي الواسعة عليها، وأقيمت عمارات ضخمة وقباب فخمة في أمكنة هذه القبور ومشاهد المشايخ، كما وجدت أمة بأسرها من العاكفين والكناسين والخدم لهذه القبور. ونالت الرحلة إليها كل إعجاب، حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات بعيدة ... وفي القرنين السابع والثامن دخلت هذه المشاهد والضرائح في حياة المسلمين الدينية، ونالت عندهم من القبول والمركزية ما جعلها تنافس بيت الله وتتحداه". ينظر: رجال الفكر والدعوة (٢/١٧٩-١٨٠).

تسلّم القاري المتعلقات الشخصية، فسِرت بعد أن سلمت عليه، ولم أتجاوز بعد حتى قدم إلي فأخذ قدمي وهو يبكي، ويقول: «يا ابن السيد الشريف! إنني شقي كبير، أشهدك أني أتوب الآن، وادع الله لي أن يغفر لي ذنوبي، فإني عاص ومجرم كبير!».

اختنق صوته بالبكاء وأُرْتج عليه، وكنت أفكر قائماً متحيراً «يا إلهي! ما الذي جرى؟» وظل القارئ يردد: «أتوب إلى الله.. أنا تائب.. أنا مجرم كبير...! ». ثم هونت عليه قليلاً، وقلت له: «إن الله تواب غفور ... إنه يقبل التوبة عن عباده». فسلمت عليه وخرجت من المسجد.

ثم انكشف لي فيما بعد أمر القارئ مسعود، فقد كان قد ركب موكب الشيوعيين، والتحق بالشرطة السرية وقاية لنفسه من ضرر محدق!

۞۞۞

لم يكن المرفأ بعيداً، وكان المركب مستعدا للإبحار، فجلست على ناحية من المركب. تقابل شاطئ النهر الذي صعدت منه. تعد «كركي» من المدن الكبيرة العريقة في بلاد «تركمانستان»، وفيها مدفن منسوب إلى رجل صالح يقال له «معروف الكرخي»، وإليه تنسب هذه المدينة[١]، وهي مدينة عظيمة.

لما قطع المركب نصف المسافة بدأ عسكري بجولة تفقدية، وجعل يفتش التصاريح وجوازات السفر (لغير المواطنين)، وفي النهاية قدم نحوي وطلب مني جواز السفر، فقلت: «أنا مواطن».

---

(١) لعل اسم «كَرخي» تحول إلى «كَركي» بعد مرور الزمن، فهي إحدى مدن تركمانستان الآن، ومعروفة إلى يومنا بهذا الاسم.

الجندي: «حسناً.. أرني التصريح!» قالها بتهكم.

أنا: «أريد أن أرى المدفن هناك، وسأرجع بعد ذلك».

فاشتعل الجندي غضباً، وصفعني الظالم العابث على وجهي بجميع ما أوتي من قوة، فزلت قدماي وتزلزلت الأرض من تحتي، وشعرت كأن الأرض تدور من حولي وتتحرك، ووقعت في النهر!

من حسن حظي أنا أجيد السباحة، وأستطيع المكوث تحت الماء بنفس واحد عميق مدة طويلة، وعلى الفور تمكنت من السيطرة على نفسي، ودفعت ببدني بقوة كاملة إلى الأعلى، وفي نفس الوقت سمعت أصواتاً متتالية من أعلى سطح الماء. كان الجندي يطلق الرصاص نحوي من مسدسه بشكل متتابع، إلا أنني كنت قد انحرفت بعيداً إلى الجهة الجنوبية منه. وهكذا ظللت أسبح في النهر قرابة ٢٠-٢٥ دقيقة متتابعة بشعور كامل وإحساس تام، وإذا انقطع نفسي أخرجت رأسي إلى سطح الماء وتنفست وعدت أكمل السباحة. ورأيت مرة إلى المركب وقد ابتعد عني كثيراً. وكنت قد اقتربت من الوصول إلى الشاطئ الآخر. كانت مياه النهر شديدة البرودة، وصار جسدي متجمداً من طول المكث في المياه، وظلت قوتي تضعف وتنتهي. وفي النهاية صرت أفقد الوعي والشعور، حتى وجدت نفسي بين نبات القيصوب، وكان «المصحف الشريف» و«دلائل الخيرات» في الكيس كما كانا، وكنت منهكاً، فما زلت في مكاني ساكناً لا أتحرك لمدة طويلة. ثم خرجت رويدا رويدا، ممسكاً بالقيصوب. لقد تجرحت يدي ورجلي، ووصلت إلى الشاطئ قبيل الغروب، فأردت أن أقف لكن ساقي لم تساعداني، فزحفت إلى مكان منبسطا على بطني، وبدأت الدماء تجري في بدني، والدفء يسري فيه، وصارت الأقدام صالحة للقيام والمشي.

خررت ساجداً لله على ما رزقني الله الحياة مرة ثانية وأعاد إلي قواي، فأكثرت من الشكر والحمد والثناء لمولاي وخالقي لمدة طويلة. ولما رفعت رأسي بعد حوالي ١٥-٢٠ دقيقة شعرت أن القوة رجعت إلي كاملة، وكأن شيئاً لم يحدث لي.

كانت الليلة مقمرة وكانت الغابات الهادئة الساكنة ممتدة إلى بعد شاسع، ولعل «كرخي» تقع على مسافة أميال من هنا إلى جهة الشمال! وكانت على ساحل النهر نبات القيصوب، وهي تمتد إلى مسافة بعيدة، وكانت قائمة ترفع رؤوسها، والريح تهب عليها. وثيابي كانت مبللة، فبدأت أشعر بالبرودة وجسمي عاد للاضطراب، فلجأت إلى أشجار القيصوب الكثيفة وجلست خلالها، فكأن القدرة الإلهية قد فرشت لي مهداً وثيراً، فنمت عليها طوال الليل في راحة وسكون كامل. ولما طلع الفجر استيقظت وأذنت وصليت الفجر، وعند طلوع الشمس خرجت من بين القيصوب، وبدأت أمشي، وأستمتع بمنظر النهر وأمواجه.

بعد أن مشيت قرابة فرلنغين اثنين[1]، واجهت غابة كثيفة فولجتها، فإذا القدرة الإلهية تجلت أمامي. وكان من بين الأشجار المختلفة أشجار التوت، وكانت مثمرة بألوان التوت اليانعة الناضجة من الأبيض والأحمر والأصفر والأسود، فجرى على لساني الحمد والثناء لله جل وعلا، وازداد إيماني ويقيني بأن الله هو «الرزاق»، وهو «الكريم الودود». أكلت من التوت حتى شبعت ثم خرجت من الغابة، وبدت لي مشارف مدينة تظهر أمامي من بعيد، فسرت باتجاهها، وبلغت فناء المدينة قبل زوال الشمس. وكان قد اضمحل جسدي من التعب الشديد، فافترشت تحت ظل شجرة أستريح قليلاً لكن النوم

(١) حوالي ٤٠٠ متر.



غلبني، ونمت مدة طويلة. استيقظت فجأة مذعورا على جلبة عالية وأصوات غير اعتيادية سبحان الله! خمسة رجال متماسكين أقوياء يتكلمون بأصوات مرتفعة جداً، وجوههم توحي بالخوف والرعب، وشواربهم طويلة غليظة، فزاد ذلك في رعباً. يبدو من مظاهرهم أنهم ليسوا من الأتراك. كانوا يتحدثون في أمري، فاستقر رأيهم أن يحملوني معهم، فتقدم نحوي أحدهم وسألني بالفارسية: (توكيستي؟ ازكجا آمدي؟ چه اراده داری؟ (من أنت؟ من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟).

فأشرت إليه بيدي أني لا أفهم ما يقول! فذهبوا بي إلى مكانهم، وهي دار عظيمة. فدخلنا قاعة كبيرة، وكان فيها سبعة رجال آخرين مثلهم في الرعب والهيبة. وكان يطبخ في ناحية من القاعة مرق الديك، وريحه قد ملأ القاعة. فأقعدوني على سرير، وانشغلوا في التحدث وكان حديثهم عني. والرجل الذي أحضرني إليهم قدم لهم تقريراً عني، وكان الرجال السبعة ينظرون إلي خلال ذلك الوقت مرة بعد أخرى! وبعد مدة قليلة أُحضر الطعام فجلسوا يأكلون، وأشركوني معهم في الطعام أيضًا. ولما انتهينا عادوا إلى الحديث في قضيتي، وفتح رجل منهم الكيس الذي كان معي. فلما رأى فيه كتابين بقي متحيراً!

«ما هذا الشيء؟» سألني بواسطة رجل منهم.

أنا: «دلائل الخيرات، والمصحف الشريف».

الرجل: «لماذا هما مبتلان؟».

أنا: «وقعت في النهر، ثم نجوت بعد صعوبات».

الرجل: «حسناً.. جفف المصحف في الشمس أولاً ثم نتحدث». قاله رجل آخر وكان ألين وأشفق منهم. فخرجت إلى ناحية من تلك الدار التي فيها أشعة الشمس، وجلست أجفف من المصحف الشريف ورقة ورقة، فارتفعت أصوات الرجال واشتد غوغاؤهم.

وبعد مدة يسيرة قدم إلي ذلك الرجل اللين، وقال لي بالفارسية مع الإشارة: «يا فتى! يمكنك أن تذهب لكن بسرعة، ولا تمكث هنا لحظة واحدة، فاهرب بسرعة. إنك محظوظ، لقد نجوت»! ثم قال بالفارسية وهو يحرك يده ويشير بأصابعه: «إن المكان الذي كنت تستريح فيه يقع على مسافة قريبة منه جامع الشيخ الكرخي فانزل فيه». فقمت فورا، وسرت نحو الغابة هاربا من تلك الدار.

ثم لما تيسر لي أن أقيم في «كركي» لمدة شهرين ونصف، علمت أن هؤلاء الرجال كانوا من الأفغان، ومن رجال الحاكم في مدينة «مزار شريف»[1]، وهم يعملون للمحكمة السرية الروسية. وكان واجبهم أن يقبضوا على المهاجرين إلى أفغانستان، وكان القارئ مسعود الذي تاب أمامي من عملاء هذه المحكمة السرية. ولقد ألقى الله عز وجل في قلوب هؤلاء الجواسيس رأفة ورحمة، فتخلصت من أيديهم وإلا من يدري كم من مهاجر قبضوا عليه وسلّموه إلى الحكومة السوفيتية!

وصلت إلى حدود الجامع وقت غروب الشمس، فرأيت أمامي مسجداً كأنها قلعة عظيمة، فدخلت فيه فإذا صحنه واسع، ومبانيه عظيمة، وفيه حجرات كبيرة، ومدرسة، وبالجملة كان المسجد مثالا رائقا للمرافق والمزايا التي تتوفر في مساجد تركستان. ويقع في الجهة الشرقية من خارج المسجد قبر كبير (يقال إنه) مدفن الرجل الصالح معروف الكرخي[2].

---

(١) مدينة أفغانية مشهورة.

(٢) سبق التعليق حول الأمر قبل صفحات فليراجع مشكورا. وزيارة القبور مستحبة في الشرع، وجاء النهي في قصد السفر لمجرد الزيارة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد".
=/=

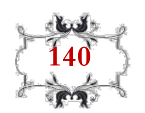
وفي أثناء ذلك ارتفع صوت الأذان، وكان المؤذن أسود اللون، ولم أر في بلاد تركستان كلها رجلاً زنجيا مثله، فصلى بنا هذا المؤذن، وكان المأمومون رجلين اثنين، أنا وشخص آخر! وهذا الرجل غادر المسجد بدون أن يصلي السنة الراتبة. وأما الإمام فصلى السنة الراتبة ثم خرج. وصليتُ السنة الراتبة والنوافل، وقمت أذهب إلى جهة المقبرة، وكان الإمام قائماً على الباب ينتظرني، فلما رآني أذهب إلى هناك، صاح بلهجته التركمانية: «الطريق من هنا!» وأشار إلي أن أخرج من المسجد، ولم أكد أخرج من الباب حتى أغلق الإمام باب المسجد من الداخل.

لقد جنّ الليل وغشيت ظلماته الدنيا، ووقعتُ في حيرة شديدة، فظللت أفكر قائماً: «أين أقصد في هذه الليلة السوداء المظلمة؟» فدرت حول المسجد دورة كاملة، كانت جدرانه ضخمة شامخة جداً، وكانت في الجهة الشرقية حوالي ٢٠-٢٥ فداناً من الأراضي الزراعية، وقد حرثت وأعدت. وكانت تقع على مسافة قليلة بئر عظيمة، وفي القرب منه شجرة التوت ضخمة، وأغصانها ممتدة متماسكة ومتشابكة، وكانت ممتدة إلى أكثر من ١٠٠ مئة قدم مربع، وهذه الأراضي والبساتين المتلاصقة كانت وقفاً على المسجد وملحقاته، لكنها سُلّمت حالياً إلى مزرعة زراعية.

صعدت على شجرة التوت، واتخذت من أغصانها المتشابكة القوية مسكنا لي، وكانت سرج الإبل والفرش والسرر البالية مبثوثة حول البئر، فأخذتها واستخدمتها فراشاً وثيراً، وصليت العشاء ونمت في مسكني على الشجرة.

استيقظت من النوم قبل الفجر بمدة، ونزلت من الشجرة وتوضأت من حوض

رواه مسلم (٢/٩٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري.



الدواب والأنعام، ثم صليت ركعتين وناجيت ربي ودعوته لمدة طويلة، وأثناء ذلك غفوت قليلاً، وعندما استيقظت كان قد دخل وقت الفجر، فذهبت إلى المسجد ورأيت الباب مغلقاً، فطرقته مرة تلو الأخرى، لكنها لم تعد إلي بنتيجة، وفي آخر الأمر أديت الصلاة عند الباب.

ثم تذكرت المسلمين في تركستان وما حل بهم من الشدائد والعذاب، وتذكرت الهجوم الشرس على عقائدهم وإيمانهم والاعتداء المستمر على الإسلام وتعاليمه، فصرت أبكي عليها وعليهم، وأدعو الله الكريم أن ينقذهم ويحفظ إيمانهم ودينهم من هذه المحن الشديدة.. ثم قمت وسرت نحو الغابة بعين مبتلة بالدموع، وصعدت على تلة مرتفعة، وظللت أتلو القرآن الكريم وأكلت من التوت حتى شبعت جيداً. وكان هذا المكان ملجأ لي في الأيام القادمة، أقضي الليل في المسكن على الشجرة، وأسد جوعي بأكل ثمار التوت.

ارتفعت الشمس فخرجت من غابة التوت، ورأيت عدداً من الشباب يعملون في تلك الأرض الزراعية المحروثة، ويصنعون المنابت لنثر البذور فيها، فدنوت منهم وألقيت عليهم تحية الإسلام بدون تردد، ودعوت لهم وفق عادات الأتراك: «هارْمِنْگْ لَرْ» أي: طابت أعمالكم بغير تعب ونصب.

فردوا علي التحية برغبة واهتمام، وغالب الظن أن هؤلاء الشباب فلاحون جدد، فلم يكن في عملهم إتقان أو أي مهارة تذكر!

«ماذا تزرعون في هذه المَنابت؟» سألتهم.

«الطماطم» أجابوني.

«الطماطم؟!!» أظهرت حيرتي ودهشتي.



قلت لهم: «إن هذه المنابت لا تناسب زراعة الطماطم؛ لأن الماء لا يتم سريانه فيها بشكل جيد، فيبقى التراب طيناً مبتلاً، وقبل أن يجف الطين ينقضي موسم الطماطم، فيذهب جهدكم سُدى!»

فرح الفلاحون وأخذوا يقولون: «بارك الله فيك أيها الفتى! فأخبرنا كيف نجعل المزهرية مهيئة لزراعة الطماطم؟».

إن زراعة الخضروات في فرغانة لا تنحصر على أهل القرى فقط، بل يزرع أهل المدن أيضًا في حدائقهم وبيوتهم أصنافاً من الخضروات والطماطم والفجل، واللفت، والجزر، وغيرها. ومن ذلك حصلت لدي مهارة وخبرة في هذا المجال، فعملت معهم طوال ثمانية أيام. فلما تم العمل وانتهينا منه، أعطوني الأجرة المعينة، وأظهروا فرحهم بطريقة أخرى حيث طلبوا من الشركة بإعطائي ٤٠ روبلاً مزيدا تقديرا لجهودي.

ذات يوم كنت منشغلاً في الزراعة فأتى رجل أبيض مشرب إلى مزرعتنا، راكباً على فرس، وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة أو الواحدة. فأدى له رئيس المزرعة تحية عظيمة فائقة فنزل عن فرسه وظل يشاهد ويراقب الحقل الزراعي، وفي يده عصا، وفجأة تعثر وسقط على الأرض وهو يتجول، وجرح منه قدمه فذهب به الفلاح إلى المستشفى. وهكذا انجلت عني هذه المصيبة!

كان هذا الرجل عضوا في الحزب الشيوعي، ومفتشاً عاماً، وكان يهودياً، فلو أتى الرجل نحوي وسألني عن وجودي في الحقل لنشأت مصيبة وبلية جديدة. وهكذا أنقذني الله العظيم من فتنته ونجاني من شره.

وخلال أيام معدودة اختلطت بالفلاحين التركمان فاتخذت لباسا مثل لباسهم وجعلت من نفسي واحداً منهم بالمظهر والهيئة. وكنت أذهب إلى بيوتهم بدون تردد، ولا أبخل في



مساعدتهم في الزراعة، بل أقوم بما يحتاجون إليه في المدينة، وهكذا بدأت أروح وأجيء إلى «كركي». التقيت بالرجال الذين ذكرهم لي القارئ مسعود، وحصلت على الأمانة التي تركتها عنده.

ثم بدأت أيام الخريف وبدأت أوراق الأشجار تتساقط. وصار مسكني فوق شجرة التوت غير آمن. وقد حصلت على أجرتي من اليهودي مدير المزرعة، وأهل تركستان يسمون اليهود «جُهود». فأعطيت الجزء الكبير من أجرتي للفلا حين الذين يعملون عند البئر، فصاروا أكثر شفقة ورأفة بي وازدادت محبتهم لي. فجهزوا لي حجرة من الحجرات الوقفية حول المسجد، وكذلك أعطوني شهادة مكتوب فيها: «إن هذا الرجل خبير الزراعة، والقيم على طماطم أوزبكتر (مدير الحقل)».

فكانت هذه الشهادة مفيدة للغاية، وبها صرت أجول في المدينة حراً بدون عوائق، أقضي وقت الظهيرة في المدينة غالب الأحيان.

ذات يوم اشتريت من المدينة ثمانية أقراص خبز تركماني، والخبز التركماني يكون عادة كبيراً جداً، والواحد منه يكون وزنه أكثر من كيلو ونصف. فرفعتها على رأسي وانطلقت إلى طريق منطقة جامع الكرخي، وكنت قد سلكت على غفلة مني طريقاً غير المعتاد، ولما بعدت عن المدينة كثيراً، شعرت بأنني أسير في طريق مخيفة غير آمنة، فمرت بي شاحنة عسكرية بعد عدة دقائق، وبدا لي أن أرجع لكن قوة مجهولة ما زالت تجذبني إليها، فصرت بعيداً عن المدينة، وظهرت لي قلعة على الجانب الشمالي من الطريق، وكان الجنود يحرسون مواضع منه، وتبين لي فيما بعد أن هذه القلعة مقر رئيس المنطقة،

فنزلت في الخلاء الواقع في جنوب الشارع لأختفي من أعين الجنود.

فلما سرت أكثر من فرلنغين اثنين ونصف[1] رأيت الغبار قد انتشر في الهواء، وتقدمت نحوي قافلة، فبقيت واقفاً متضايقاً مختنقاً. ولم تكن هذه قافلة للتجار، بل كانت للفتيات الأسيرات، وكان فيها أكثر من ألف أسيرة، أعمارهن ما بين ١٢-٢٥ عاماً، أبدانهن ضعيفة مضمحلة، ووجوههن مغبرة، وثيابهن ممزقة، وكان يظهر جلياً من وجوههن وثيابهن أنهن من بيوت كريمة شريفة، قرة عيون الآباء الأثرياء، وأفئدة الأمهات المتنعمات وبنات الأغنياء والوجهاء. وكان في يد كل فتاة مجرفة وفي قدميها «چاروق» (نوع من الحذاء يصنع من جلد غير مدبوغ يلبسه الرعاة والعمال). وكان يسوقهن قرابة خمسين جندياً كما تساق الشياه والغنم. فرآني أول فريق من الفتيات، فتقدمن نحوي وأحطن بي، ولما رأين على رأسي الخبز، قلن بلهجة أوزبكية:

«آكا (أي: الأخ)! هل أنت خباز؟».

قلتُ: «لا، إلا إذا كنتن في حاجة للخبز يمكنكن أن تأخذوه مني». فقطعت الخبز خمسين قطعة تقريبا وقسمتها بين الفتيات. وكانت الفتيات كلهن من أهل «بخارى» و«سمرقند» و«طاشكند» و«خوقند» و«أنديجان» و «نمنگان» و«خوقند» و «كاگان» و«قرشي» وغيرها من المدن.

فلما سألتهن أجهشن بالبكاء وجعلن يقلن: «نحن قرة عيون العلماء والتجار وزعماء الوطن والقادة وغيرهم من الوجهاء والنبلاء. لقد سُلبت منا حقوقنا الأساسية كما سُلبت من آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا فنفونا من بلادنا. وأما آباؤنا وأمهاتنا فإما قتلوا وإما نفوا إلى

(١) أي: حوالي نصف كيلو متر.



بلاد نائية أخرى، وهنا نكلف بالعمل ست ساعات في النهار، وأربع ساعات في الليل، أعمالاً مختلفة.

«من أي مكان ترجعن الآن؟» سألتهن.

«من الحقول الزراعية».

فما انتهتْ من الإجابة حتى قدم الجنود المراقبون، فقال واحد منهم باللغة الروسية بطريقة فظّة غليظة: «من أنت؟». كانت عيناه جاحظة غضباً وغلظاً!

فقلت في نفسي: لا خير اليوم! وصرت أفكر فيم أجيب، حتى بدأت الفتيات يقلن: «هذا الرجل خبّاز، ولقد أكلنا خبزه، فهو يطلب الآن ثمن خبزه». حزن قلبي من حكايات الفتيات المظلومات المبكية، وتألم فؤادي من عجزهن وضعفهن، وضاقت نفسي حين رأيتهن مقهورات في مخالب الشيوعيين، فاشتعل الجندي الثاني صارخاً كالثور: «هل صحيح ما قلن؟».

لم أقدر على أن أتمالك نفسي حين سمعت صراخه ففاضت عيناي بالدموع وصرت أبكي بشدة. ظنّ الجندي أنني خباز مسكين وأبكي على خبزي، فنظر إلي بلطف وحنان. وأثناء ذلك وصلن الفتيات الباقيات. وفي النهاية كتب لي المراقب الكبير رقعة، لأحصل بها على ثمن خبزي، وقال: احضر غداً هنا واستلم ثمن خبزك.

نسيت أن أذكر أن المكان الذي حدث اللقاء المفاجئ فيه بيني وبين الفتيات كان سجناً، فجرى استعراضهن عند الدخول إلى السجن، ففعلن شيئاً حسناً فطناً وبديعاً، فأخذن يجهرن بأسمائهن وأسماء آبائهن ثم يدخلن من الباب كي أطّلع على أسمائهن وعناوينهن، لكنني لم أستطع سماع إلا أسماء معدودة، قالت إحداهن:

«باطور باي قزي خديجـــه مِن اندجان ليك» (أي: خديجة بنت باطور باي، من سكان

أنديجان).

وقالت الثانية: «اندجان ليك توردى داملا قزي تورسـن اى»، (أي: أنا تورسون بنت توردي داملا من أنديجان).

وقالت الثالثة: «نمنكان ليك اسماعيل جان قارى داملا قزي زبيده ديدور لار» (أي: أنا المدعوة زبيدة بنت إسماعيل جان قاري داملا من نمنكان).

وأرادت الرابعة أن تجهر باسمها مفصلاً لكن المراقب صاح قائلا: «اذكري الاسم فقط». ثم توجه إلي وهو يضغط على أسنانه مغتاظاً ويرميني بنظرات غاضبة: «لماذا ما زلت قائماً هنا؟ اذهب وإلا ...» قاله وهو يصرخ. فرجعت من ذلك المكان متألماً متضايقاً.

رجعت أدراجي إلى جهة المدينة ولم أتقدم إلى الأمام كي لا أتهم بالتجسس فيقبض علي. وكان قلبي ينزف دماً مما رأيت من الذل والخذلان والوهن الذي لحق ببنات المسلمين، وكانت أصواتهن ترن في أذني ودخلت صور أعينهن الحزينة الكثيبة في أعماق قلبي، وبدأ صوت داخلي يقول لي: يا مسلمي تركستان الغيارى! ما الذي حدث لغيرتكم!؟ فهذه بناتكم مقهورات مخذولات بين مخالب الأعداء الأجانب..

لقد كاد صدري ينفجر من الغيرة والحمية، لكن استولى علي الهوان والضعف بعد قليل، وظللت أبكي بشدة بالغة. فلما دنوت من المدينة انحرفت عن الطريق الرئيسي، وصعدت على تل من الرمال، وسرحت نظري إلى المدينة، فرأيت مسجداً في جهة الغرب فسرت نحوه، ولما بلغته كان وقت الظهر قارب الخروج. كان المسجد تابعا لنزل القوافل والمسافرين. بني المسجد أيام العهد الإسلامي، وكانت تنزل فيه القوافل الأفغانية، وغالب المصلون في المسجد من الأفغان.

توضأت لأداء الصلاة، ولما قمت إلى الصلاة لم يرجع ذهني إلى الهدوء والسكينة



فكانت صور تلك الفتيات المسكينات تستولي على ذهني، وصارت أفكارهن وآلامهن تشغل بالي. ولما انتهيت من الصلاة ظللت جالساً باتجاه القبلة في مكاني وصرت أبكي، وخلال ذلك غلبني النعاس وسقطت على الأرض نائماً، حتى قدم إلي رجل كان جالساً في ناحية من المسجد وسألني قائلاً: «هل تريد أن تذهب إلى أفغانستان؟» فأجبته متسرعاً: «نعم!» لكن سرعان جرى في بدني سيل من الخوف والتأسف والحسرة! إن كان هذا عميل للشيوعيين. وقد شعر الرجل وأحس بمخاوفي بالنظر إلى وجهي، فهدّأني وطمأنني وأشار لي أن أتبعه.

ولما انتهينا من صلاة العصر خرجنا من المسجد وبدأنا ننطلق حتى صار وقت غروب الشمس، ودخلنا في دار كانت نزلاً أيضًا، وكان يقيم فيها جماعة من الأفغان، فعرفني الرجل عليهم، وهو كان طالب علم من الأفغان، وقام خلال السنوات الأخيرة بإيصال كثير من التركستانيين إلى أفغانستان. ثم قال: «إن شاء الله عز وجل، سأذهب بك إلى دار الإسلام، ولدي اثنان من أهل وطنك أيضًا. وسنرحل في ليلة الغد على بركة الله، فاحضر هنا قبل المغرب من يوم غد.

وفي صباح اليوم التالي خرجت بأمتعتي ووصلت مسجد النزل، وفي المساء وصل دليلي الطالب الأفغاني وقدم معه الشابان الفرغانيان وكان على ظهرهما قربتان صغيرتان للملء، وفي أقدامهما چارُوق (الحذاء التقليدي التركي) وعلى رأسهما عمامة أفغانية، فمضت ساعة أو ساعتان للإعداد والتأهب. وكان المكان قد امتلأ بالمسافرين وكلهم من الأفغان، وكان يظهر علينا من الملبس والمظهر أننا من التركمان، وبما أن التركمان يقيمون في أفغانستان أيضًا؛ لم ينظر إلينا أحد بريبة أو شك. ورغم ذلك كان قلبي مضطرباً وذهني شارداً.

أدينا صلاة المغرب ثم خرجنا واحداً تلو الآخر، وخلال الساعة العاشرة مشينا مسافة طويلة، وبعدنا من المدينة كثيراً، ونظرت خلفي فإذا المدينة كأنها نقطة سوداء غشيتها أنوار البدر، وكان أمام أعيننا بيداء واسعة ممتدة إلى الأفق. فلما صرنا وسط الصحراء أرشدنا الدليل فقال: «نسير كلنا على مستقلين، ويكون بين كل منا مسافة ١٠٠ قدم. وهذا مهم جداً للغاية، فإنه لو صادفنا عملاء الشيوعيين، لا يقدرون القبض على جميعنا. وكان طريق المسافرين والقوافل على يميننا، ونحن نسير موازياً بعيداً عنه، لكن كان لا بد لنا ألا نغفل عن الطريق، كي لا نضل في الصحراء فنهلك. راعينا توجيهات الدليل وعملنا وفْقها، فتركنا الطريق وانحرفنا بعيداً، وبدأنا بالسير في الجهة اليسرى منه، كان الدليل يتقدمنا ونحن الثلاثة نسير خلفه، وبين كل واحد منا مسافة ٢٠٠-٣٠٠ قدم، حتى وصلنا ساحل النهر، وكان عليه جسر من خشب، وكان على مسافة ٣٠٠ قدم منا، وطريق المسافرين والقوافل يجري على هذا الجسر، وكان عرضه ١٠٠ قدم تقريباً.

وكان دليلنا قد عرفنا من قبل ببعض الأصوات التي نستخدمها للمشورة والتنبيه على وجود الخطر والمصائب، ولاستعلام أحوال بعضنا من فترة لأخرى. وكان قد عيّن للطلب والاجتماع صوتاً للحيوان الوحشي، فلما وصلنا قريباً من النهر، رفع صوته بذلك الصوت فمشينا مسرعين إليه، وكانت الحالة أن جنديين مسلحين ينامان في كلا طرفي الجسر، وفي الجهة التي نحن فيه يوجد كلب حراسة أيضًا، إلا أنه من حسن حظنا كان نائماً مع الجندي.

فاستقر الأمر بأن على اثنين منا يراقبان الجنديين والكلب، ويعبر الاثنان الباقيان الجسر فيقفان على رأس الجندي، فلو لم تحدث أي حركة منهما يعبران الآخران، لكن لو حدثت حركة منهما -لا قدّر الله- الكلب أو الجندي يقبض الجميع على أسلحة الجنديين،

ثم يتعاملون معهما بما هو مناسب.

وعلى هذا عبر الجسر كل أربعة أشخاص، ولكن لما مرّ الرابع بالقرب من الجندي وقرب من الأشجار ذات الأشواك التفت قدمه بشيء فسقط على الأرض، ونشأ منه صوت شديد في ظلمات الليل العميقة، فصار الكلب ينبح، واستيقظ الجندي وقال الواحد للآخر: ماذا جرى؟ ماذا حدث؟

فمشينا بخطوات سريعة إلى الغابة واختفينا فيها، وصرنا نتقدم إلى الأمام بسرعة وحذر، وكان الجنديان يتحدثان بأصوات مرتفعة. ثم سكت الكلب وسكت الجنديان بعد قليل، فساد الغابة صمت عميق وسكوت مخيف.

بعد أن مشينا ساعتين أو ساعة ونصف رفع الدليل عقيرته فأسرعنا إليه فتبين أن الدليل قد ضل الطريق، فبحثنا عن الطريق الصحيح طول الليل. ولما بدا الصبح، ظهر أمامنا تل، فأوقفنا السير، وصلينا الفجر، وحفرنا حفراً في ظل شجرة ذات أشواك ورقدنا تحتها، وأقمنا هناك طول النهار. لم يصل إلى جوفنا شيء منذ أن ارتحلنا من «كركي»، إلا ما شربنا قدراً يسيراً من الماء في بعض الأحيان، ولما جن الليل قال الدليل بأنه لا بد من معرفة الطريق الصحيح، وإلا سنهلك جميعاً في هذه الصحراء. فانطلقنا طيلة الليل في أنوار البدر نبحث ونحاول، وهكذا مضى اليوم التالي كالأمس، ثم سرنا الليلة كلها. ولما طلع الصبح كان أحد أصحابنا قد عجز عن الحركة من شدة التعب والجوع، وكان الماء قد انتهى، فكان لساننا لا ينطلق من شدة العطش. وفي الأخير مكثنا في مكان لقضاء النهار، فخرج دليلنا تاركاً إيانا إلى جهة ثم رجع بعد ساعتين، وقال: «تبدو أشجار في مكان يبعد من هنا مسافة ساعتين أو ثلاث، ويرجى أن يوجد فيه ماء، وأن نجد الطريق كذلك. لكن السؤال: كيف نصل إلى ذلك المكان؟ فإن صاحبنا المريض لا يقدر على المشي خطوة

واحدة، فوقع الدليل في غم وأصابه الهم، فقال الصاحب المريض: «إخواني اتركوني هنا ولا تثريب عليكم، فإنما أنا ضيف ساعة أو ساعتين، فلا تلقوا أنفسكم إلى الهلاك والخطر لأجلي!».

لكنا أنكرنا أن نتركه في هذه الحالة ليموت هنا، فارتفعت أيدينا إلى السماء، ودعونا الله تعالى لمدة طويلة، وطلبنا منه السلامة والنجاة من هذه المصيبة. انتهينا من الدعاء فشعرت بسكون غير عادي! واستعان الدليل بالله وتوكل عليه ورفع المريض على كتفه. وإذا أتصور ذلك الموقف أتعجب حتى اليوم من همته وإرادته وقوته. كان الدليل جائعاً أيضًا منذ أيام، وقد أصابه الظمأ الشديد، لكن رغم ذلك كله رفع على كتفه شاباً مثله وظل يمشي به، وكنت قد أخذت في يدي القرب والأمتعة الأخرى، فصرت أنا وصاحبي نمشي وراءه مسرعين بصعوبة وتعب شديد.

ظن دليلنا أن المسافة إلى تلك الأشجار قدر ساعتين أو ثلاث، إلا أننا بلغناها في ساعة أو ساعة وربع، لكنها لم تكن أشجاراً. إنها تل، كنا على مسافة ٢٠٠ متر من التل، فإذا صاحبنا الثاني قد أعيا وكلّ، ثم سقط على الأرض. فأردت أن أرفعه لكن الضعف والوهن كان قد غلبني، فبقيت عاجزاً، فتركه الدليل في ذلك المكان وأمرني أن أمشي معه. ولما وصل إلى التل أنزل المريض من ظهره فأرقده، ثم رجع إلى الصاحب الآخر فرفعه وأتى به إلى التل.

كانت حالة المريضين سيئة جداً للغاية، وكانا يلتويان من شدة العطش، وظل الدليل يروح لهما الهواء بيديه، وصعدت على التل بعد جهد جهيد، فرأيت تلاً آخراً ملاصقاً له وبينهما وادٍ. نزلت إلى الوادي وبدأت أحفر بخنجري على بركة الله في الأرض الرملية، وهكذا حفرت أربعة أقدام، فإذا برمال مبتلة بدأت تظهر، فكأن نوراً لمع في ظلمات اليأس

والقنوط. فحفرت قدر قدم آخر حتى نبع الماء، وأثناء مدة قصيرة تجمعت المياه، فشربت منه وكان عذباً بارداً، وتحرك بدني من فرط السرور، وعادت إليه الطاقة، فأسرعت إلى أصحابي وصحت من بعيد قائلاً: الماء.. الماء!

فأخذت القرب والوعاء وانطلقت إلى العين، فلما انتهيت إلى الوادي رأيت الحفرة قد امتلأت بالماء، فشربت قدراً وفيراً. ابتل حلقي بعد عدة أيام من العطش، فسرت الحياة والروح في بدني كله، ثم ملأت القربة وذهبت بها إلى أصحابي وجعلت أسقيهم قطرة قطرة، ورشحت الماء على وجوههم وأجسادهم. وبعد الجد والكد لمدة ساعتين تقريباً أفاق صاحبانا المريضان، فخررت أنا والدليل ساجدين لله عز وجل شكراً على رحمته وكرمه.

أنقذنا الماء من الهلاك وأقمنا هناك نهاراً كاملاً وليلة، وكان في كيسي بعض التالقان، فمزجته بالماء وناولته للمريضين وتناولنا جميعاً منه، فعادت إلينا قوتنا رويداً رويداً حتى تمكن المريضان من الجلوس. فلما صلحا للمشي والسفر ملأنا القرب وارتحلنا، ثم بلغنا ميداناً واسعاً طويلاً بعد المرور على التلال المتعددة، فتوقفنا فيه نستريح لمدة ساعتين ثم مضينا نكمل السير.

وبعد المشي لمسـافة قصيرة طلع الصبح فأوقفنا السير ونزلنا مكاناً على أرض شبه رملية مختلفة المستويات جهة منخفضة وأخرى مرتفعة كالأودية، وكانت مليئة بالشجيرات، والطيـور تغني وتغرد في غصونها. خرج دليلنا يبحث عن الطريق فرجع قبيل الظهيرة، وقـال: «لقد اطلعت على الجهة الصحيحة للطريق، ونحن الآن ما زلنا ندور ونتجـول في الصحراء، وتركنا طريق المسافرين والقوافل بعيداً عنا. وتقع مدينة كركي من هنا على مسـافة يومين، ويوجد الماء والأشجار المثمرة ذات الثمار على

قرب منا، فامكثــوا أنتم هنا، وأنا أذهب إلى كركي وأرجع بالزاد والراحلة. لكن الصاحبان المريضان كانا يريــدان أن يرجعا إلى «كركي»، فارتحلنا في اليوم السابع إلى كركي.

بعد السياحة في الصحراء لمدة سبعة أيام وثمان ليالٍ عدنا إلى كركي، وا ستأذنت أصحابي وانفصلت عنهم في مسافة ميلين من كركي وبدأت أسير حراً طليقاً لوحدي، فقضيت الليلة والظهيرة من اليوم الثاني في غابة التوت. ورغم أني رجعت خائباً غير ناجح إلا أن قلبي كان مطمئناً، فاستخرت الله عز وجل فزادني ذلك سكوناً وطمأنينة في قلبي.

وصلت إلى مسجد النزل وقد انتهت صلاة الظهر، فتوضأت وصليت لوحدي، ولما فرغت من أداء الرواتب والسنن، رأيت رجلاً يشد أمتعته وينظر إلي، فشككت أن يكون جاسوساً! أكملت صلاتي ثم رفعت يدي أدعو الله عز وجل، ومضيت أدعو لمدة طويلة، وأثناء هذه المدة كانت نظراته مركزة علي! فدَنا الرجل مني شيئاً فشيئاً، فلما أردت أن أقوم بعد أن انتهــيت من الدعاء، أمسك الرجل بيدي وأقعدني، فسألني: «كيف وصلت هنا؟».

أنا: «أحضر هنا دائما».

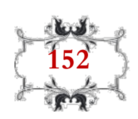
الرجل: «أنت راعي إبل؟».

أنا: «لا، أنا فلّاح».

الرجل: «يبدو أنك لست من أهل هذه البلاد!».

أنا: «ظنك صحيح».

الرجل: «هذا المسجد خاص بالقوافل الأفغانية، وهذا النزل كذلك للأفغان، ويمنع أن يدخل فيه غيرهم!».



قال الرجل هذه الكلمات بشدة وقوة، فتيقنت أن هذا الرجل من جواسيس الشيوعيين، وأن لا مفر منه اليوم إلا أنني أمسكت على نفسي، وبدلاً من الحيرة والتردد قلت له باطمئنان كامل وثقة تامة: «إذا أردت أن تفتش وتبحث عن أمري، فاذهب بي إلى مكتبك أو إلى أي مكان تريد، ليس في هذا الموضع المبارك». فجعل الرجل يضحك، وقال: «هل تريد أن تذهب إلى أفغانستان؟».

أنا: «بالطبع نعم».

الرجل: «هل لديك نقود؟».

أنا: «كم تريد؟».

الرجل: «ما يكفي لشراء حمار».

أنا: «يمكنني أن أشتري لك حمارين».

الرجل: «يكفي.. يكفي.. ضع النقود في جيبك، وامش خلفي». قال ذلك وهو يقوم فاتبعته. فاصطحبني إلى حجرة من حجرات النزل، وكان فيها ثلاثة رجال جالسين فيها، فظهر أن هذا الرجل رئيس القافلة واسمه «دَولَت قُل». وكان رجلاً مثقفاً يتكلم اللغة العربية والفارسية بطلاقة مثل لغته الأم التركمانية، فلما رآه الثلاثة يقدم إليهم قاموا تكريماً له وخاطبوه بـ«دولت آغا»[1]. أمرهم دولت آغا أن يحضروا لهذا الشاب «چپان»، وهي بردة طويلة ثقيلة خاصة برعاة الإبل التركمان. فقام أحدهم وأتى به، فلبسته فأصبح مظهري كواحد من رعاة الإبل التركمان. فابتسم «دولت آغا» حين رآني. واشتُري حمارين.

(١) **آغا:** لقب مثل «باشا» ومعناه: السيد أو الزعيم، ويستخدم مع الاسم تكريما للشخص. وهو لقب عائلي أيضًا في كثير من البلدان العربية.

وصلت اليوم الثاني خمسون إبلاً لـ«دولت آغا»، فارتحلتُ كسائق إبل بين سائقي الإبل التركمان الآخرين. لم يكن دولت آغا معنا في القافلة، وبعد أن سافرنا ومشينا نحو ساعتين وصلنا إلى بوابة شامخة كالقلعة العظيمة، ولما دخلنا رأينا أشجاراً كثيفة للتوت، وكان دولت آغا جالساً تحت ظل شجرة، وكان معه رجلان آخران، أحدهما عالم تركستاني كبير في السن والآخر شاب تركماني، لعله كان من أقرباء دولت آغا. ولقيني الشيخ الكبير بشفقة وحنان.

ولما انتهى دولت آغا من تناول الطعام، قال يخاطبني: «هذا الشيخ الأستاذ البخاري يهاجر أيضًا معكم، ويصحبكم رجلان من التركمان. يركب الشيخ على حمار وأنت على الآخر، ويكون أحد التركمانيين أميراً عليكم، ويلزمكم أن تسافروا تحت إشرافه وحسب إرشاداته. وسترتحل القافلة في آخر الليلة. فإذا وصلتم إلى دار الإسلام فلا تنسوا أن تدعوا لهذا النزل.

وبدأت القافلة تسير في الوقت المحدد، وقد أصدر الشاب أمير القافلة الإرشادات أثناء السفر. وكان الشابان التركمانيان مسلحين، فكان أحدهما أمامنا يسير والآخر من خلفنا، وكنا ننطلق وبين كل منا مسافة قليلة، وصرنا نمضي بعيدين قليلاً من طريق المسافرين والقوافل، وكنا نقطع الطريق في الليل ونختفي ونستريح في النهار بين الأشجار.

وفي أثناء السير انتبه إلينا جيش الروس مرتين، إلا أن الله عز وجل أنقذنا من أيديهم. وقربنا من حدود أفغانستان فأصدر أميرنا التوجيهات مرة ثانية، وكان علينا أن نعبر الحدود من مكان معين امتدت فيه أشجار صغيرة كثيفة، وأرضه صعبة وعرة ذات رمل، وفيها أنواع من الحشرات المختلفة المتنوعة.

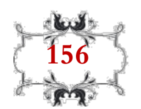
عندما مررنا الحدود ووضعنا أقدامنا في دار الإسلام كان الفجر الصادق يطلع، فقد كدت أن أجن من شدة الفرح والسرور، وخررت بين تلك الأشجار الكثيفة ساجداً لله، وجرى على لساني الحمد والشكر والامتنان لله عز وجل، فلما قمت من سجدة الشكر، صحت صيحة «يا دار الإسلام! إن تربتك تربة شفاء لي، وكحل صفاء لعيني، يا أيها الأفغان! إنكم محظوظون! إنكم سعداء! لقد رزقكم الله نعمة عظمى: نعمة الحرية والإسلام، ربما لا تعلمون ولا تدركون قيمة هذه النعم، لكنا نحن نعلم قيمتها و قدرها جيداً. أدام الله عز وجل عليكم هذه النعمة العظيمة!».

إلى هنا تنتهي يوميات سمرقند و بخارى الدامية، ثم تبدأ قصة حياتي. ولقد أراد مفوض «أَنْدْخُوي»[1] تسليمي إلى الحكومة الشيوعية الروسية، لكن المواطنين في المدينة قاموا يحمونني ويدافعون عني، فأجبروا المفوض على إبطال قراره. ثم وصلت إلى مدينة «هِراة» الأفغانية بعد صعوبات ومشاكل واجهتها في «اندخوي»، ووصلت إلى منطقة مقبرة الجامي[2]. أردت أن أمزق جلد المصحف حسب نصيحة والدتي الكريمة، لكن التجليد كان قاسياً، فأخذت من طالب علم فأساً صغيراً، ولما مزقته بقيت مندهشاً متحيراً، فقد ملأت أمي هذا الجلد بالنقود الذهبية! وهذه النقود نفعتني كثيراً في أيام الغربة، وبها أكملت دراستي الشرعية في شبه القارة الهندية.



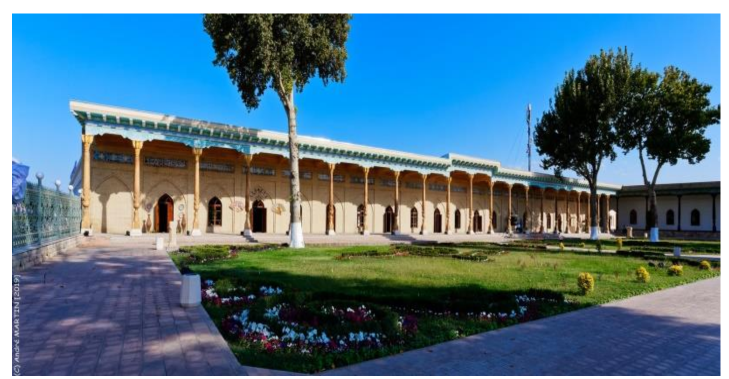
(١) مدينة في شمال أفغانستان، وتقع قرب حدود تركمانستان.

(٢) **عبد الرحمن الجامي** (٨١٩-٨٩٨هـ) من مشاهير شعراء وكتّاب الفُرس.



ملحـق الصـور

جامع خوقند







جبال تختة قراجه الشامخة







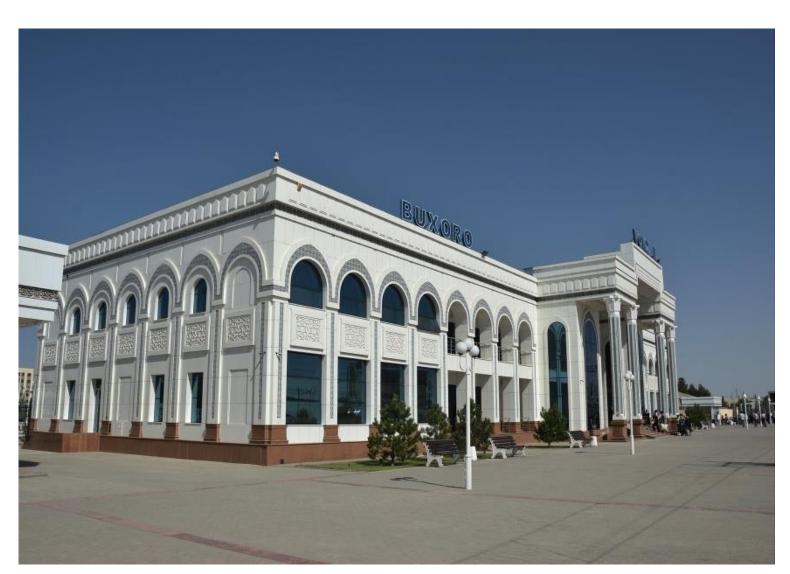
حوض ديوان بيكي – بخارى



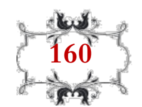
جامع بني حديثاً في قرية/قايقي



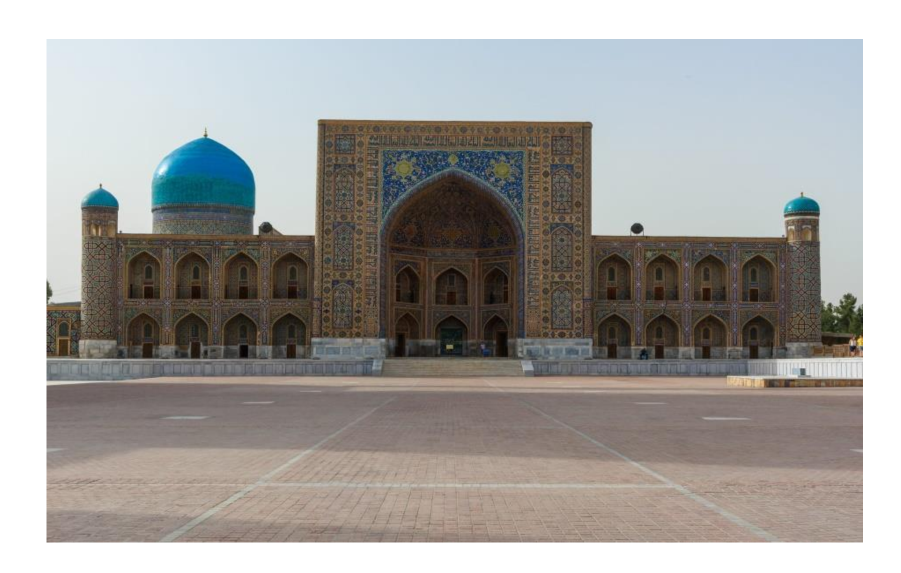
محطة كاكان







مدرسة تلا كاري – سمرقند



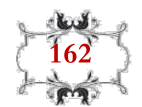
جامع قديم في مدينة/ آنديجان



مسجد مغاك عطار – بخارى



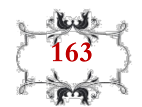




مسجد ومدرسة مالك اشتر – شهرسبز







نهر آمو (نهر جيحون)

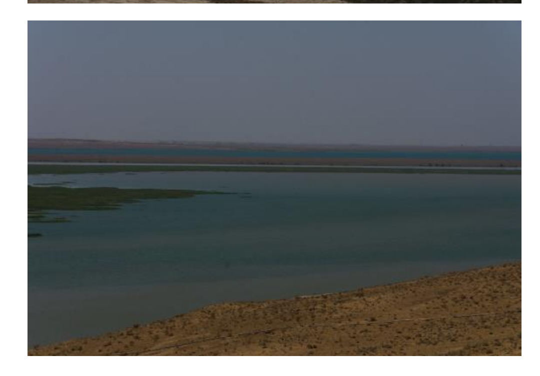


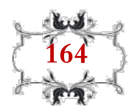












وادي فرغانة

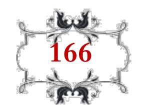




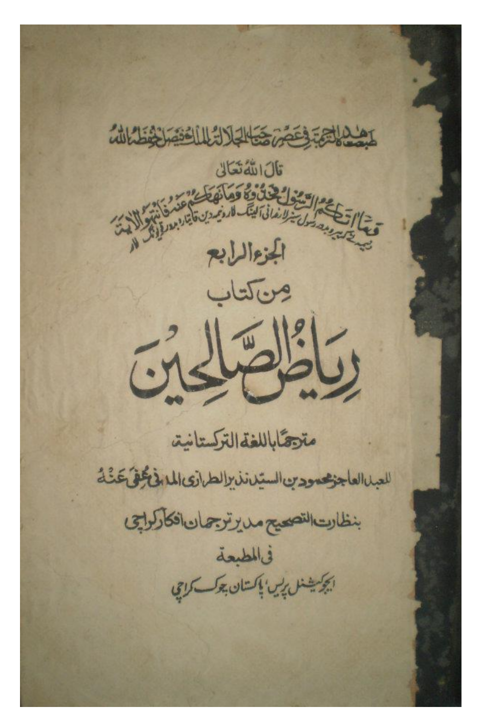




خريطة تركستان من كتاب تركستان مساهمات



بعض إصدارات مكتبة: أعظم هاشمي


طبعت هذه الترجمة في عصر صاحب الجلالة الملك فيصل حفظه الله

قال الله تعالى

وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا الآية

الجزء الرابع

من كتاب

رياض الصالحين

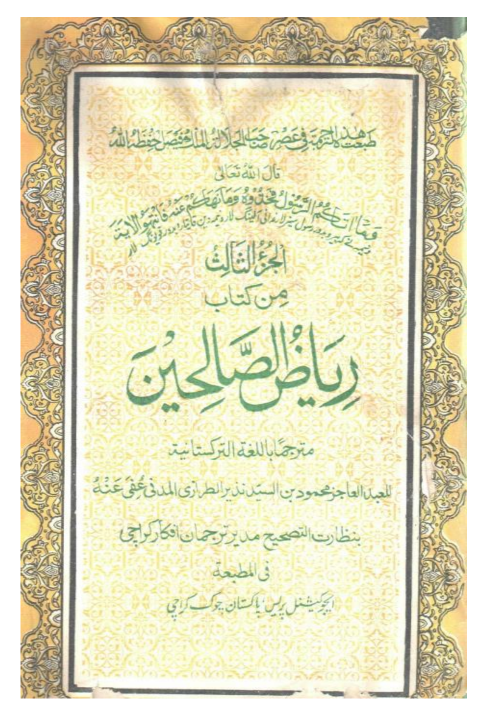
مترجما باللغة التركستانية

للعبد العاجز محمود بن السيد نذير الطرازي المدني عفي عنه

بنظارت التصحيح مدير ترجمان افكار كراچي

في المطبعة

ايجوكيشنل پريس پاكستان چوک کراچي


طبعت هذه الترجمة في عصر صاحب الجلالة الملك فيصل حفظه الله

قال الله تعالى

وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا الآية

الجزء الثالث

من كتاب

رياض الصالحين

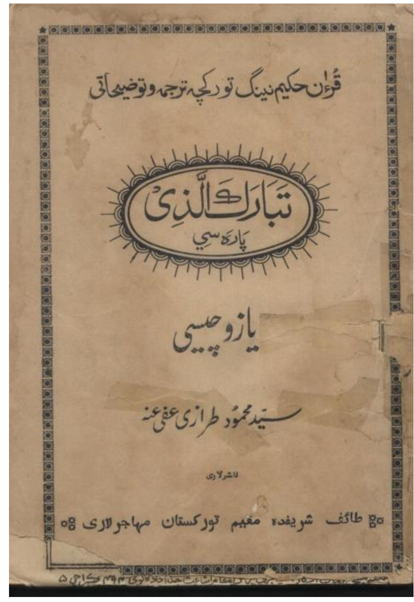
مترجما باللغة التركستانية

للعبد العاجز محمود بن السيد نذير الطرازي المدني عفي عنه

بنظارت التصحيح مدير ترجمان افكار كراچي

في المطبعة

ايجوكيشنل پريس پاكستان چوک کراچي


قرآن حكيم نينگ توركچه ترجمه و توضيحاتى

تبارك الذى

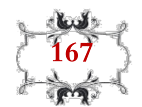
پاره سي

يازوچيسي

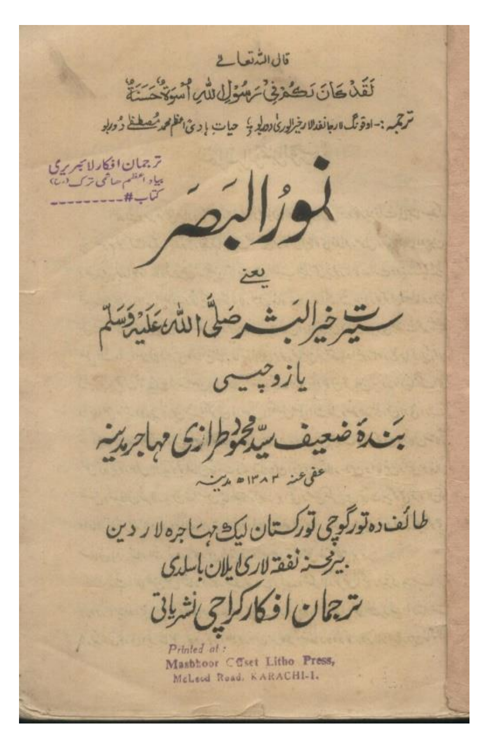
سيد محمود طرازى عفي عنه

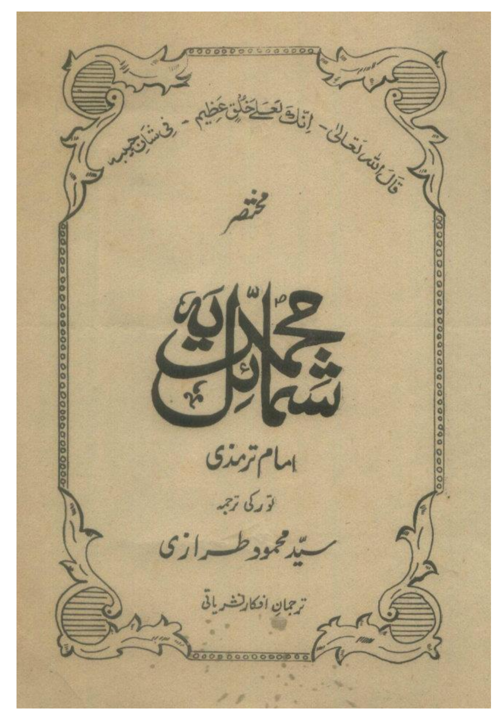
ناشرلارى

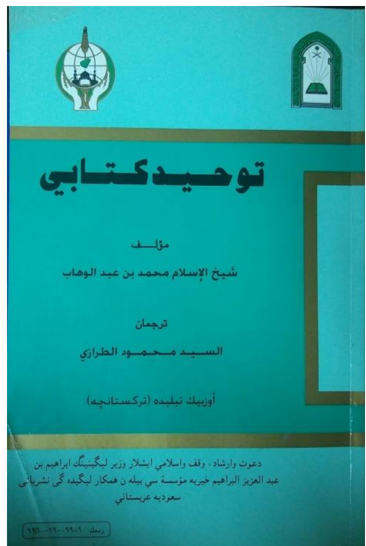
طائف شريفده مقيم توركستان مهاجرلارى



تابع بعض إصدارات مكتبة: أعظم هاشمي

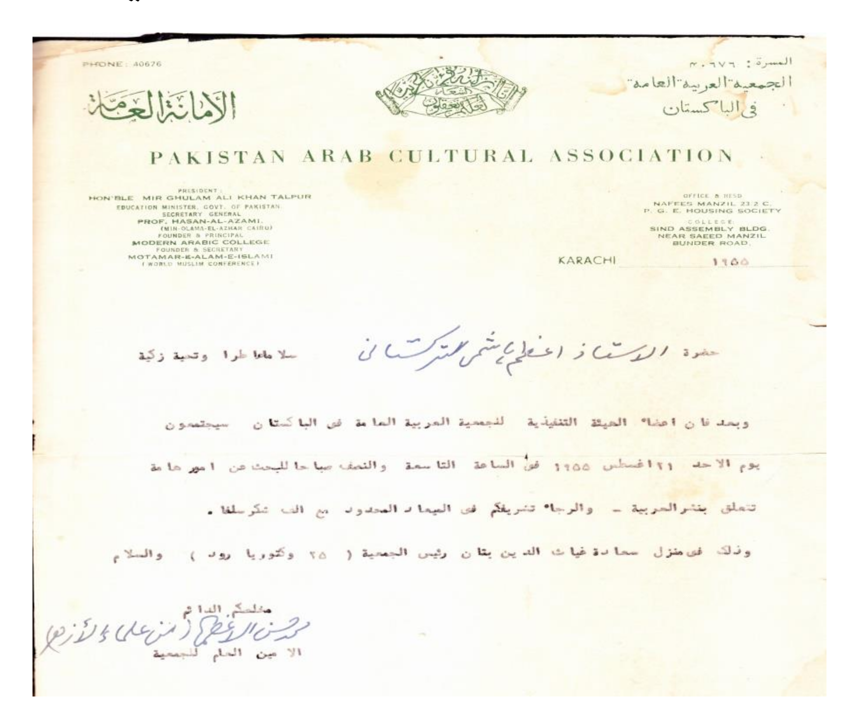








بعض الرسائل المبعوثة إلى: أعظم هاشمي



PHONE: 40676

المسرة: ٣٠٦٧٦

الجمعية "العربية" العامة

في الباكستان

الأمانة العامة

PAKISTAN ARAB CULTURAL ASSOCIATION

PRESIDENT:
HON'BLE MIR GHULAM ALI KHAN TALPUR
EDUCATION MINISTER, GOVT. OF PAKISTAN.
SECRETARY GENERAL
PROF. HASAN-AL-AZAMI.
(MIN-OLAMA-EL-AZHAR CAIRO)
FOUNDER & PRINCIPAL
MODERN ARABIC COLLEGE
FOUNDER & SECRETARY
MOTAMAR-E-ALAM-E-ISLAMI
(WORLD MUSLIM CONFERENCE)

OFFICE & RESD.
NAFEES MANZIL 23/2 C.
P. G. E. HOUSING SOCIETY
COLLEGE:
SIND ASSEMBLY BLDG.
NEAR SAEED MANZIL
BUNDER ROAD.

KARACHI ١٩٥٥

حضرة الاستاذ اعظم هاشمي التركستاني سلاما عاطرا وتحية زكية

وبعد فان اعضاء الهيئة التنفيذية للجمعية العربية العامة في الباكستان سيجتمعون

يوم الاحد ٢١ اغسطس ١٩٥٥ في الساعة التاسعة والنصف صباحا للبحث عن امور هامة

تتعلق بنشر العربية – والرجاء تشريفكم في الميعاد المحدود مع الف شكر سلفا.

وذلك في منزل سعادة غياث الدين بتان رئيس الجمعية (٢٥ وكتوريا رود) والسلام

مخلصكم الدائم

حسن الأعظمي (من علماء الأزهر)

الامين العام للجمعية

12.5.54

Qimmatli Haşimi afandi

Qalbi salam! Bundan bir ikki kun ilgari sizga bir maktub yazgan edim va Dr. Hayit tamanindan "Millat " gazitasiga berilacak cavabni ham yubarişni bildirgan edim.Bugun sizga Dr. Hayit tarafindan 'Millat" gazitasiga yazilgan maqalaga qarşi cavabni uşbu maktub ila yularmaqdamen.Lutfan bunin Ordu tilinda tarcuma qilib, Pakistan gazitalariga yubaruvinizni soraymen.Agarda birar nuqtalar ustinda savallar bolsa, lutfan bildiruvinizni otunamen.

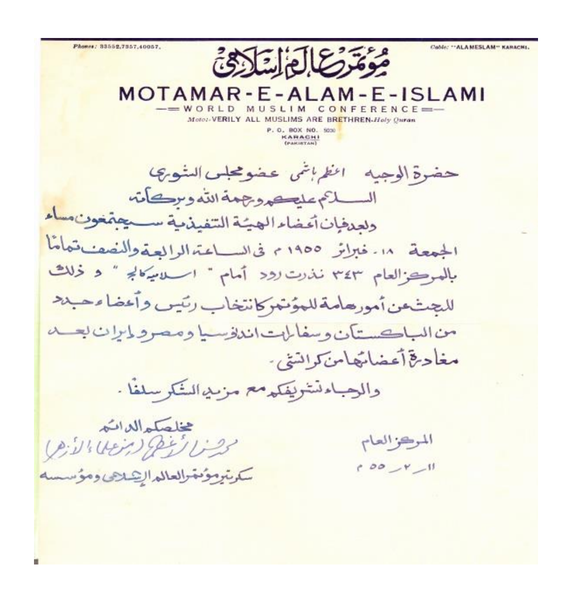
Bu tamanda işlar eskisi kabi öz halinda va ciddiyat la davam etmakdadir."Milli Türkistan" 88 D sanini algan bolsaniz kerak.Hazirda 89 D sani basilmaqdadir.

Öz işlariniz va sihatiniz qanday? "Tarcuman Afkar" nin songi numirasini aldim va bunin üçün taşakkurimni qabul qilgaysiz.

Dr. Hayitdan va başqa milli hadimlardan sizga va u yerdagi butun vatandaşlarga qalbi salam bar.

Büyük ehtiram ila siznin esdaguçi:

تابع بعض الرسائل المبعوثة إلى: أعظم هاشمي



Phones: 33552,7357,40057. Cable: "ALAMESLAM" KARACHI.

مؤتمر عالم إسلامي

MOTAMAR-E-ALAM-E-ISLAMI

WORLD MUSLIM CONFERENCE

Moto:-VERILY ALL MUSLIMS ARE BRETHREN.-Holy Quran

P. O. BOX NO. 5030
KARACHI
(PAKISTAN)

حضرة الوجيه اعظم هاشمى عضو مجلس الشورى

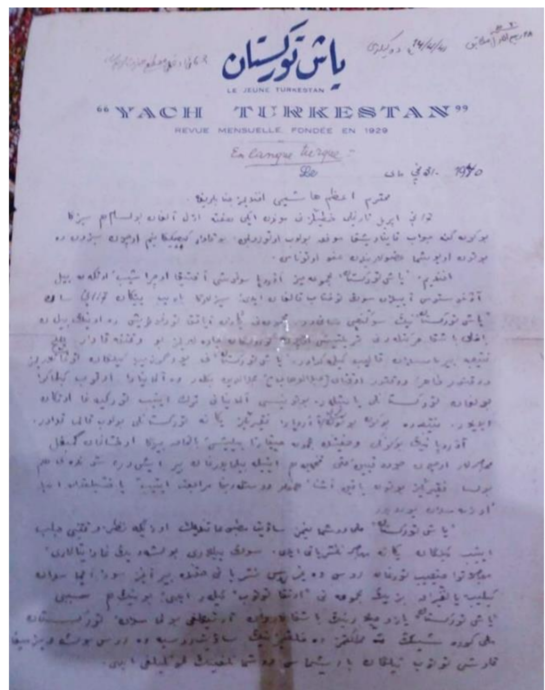
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فإن أعضاء الهيئة التنفيذية سيجتمعون مساء الجمعة ١٨ - فبراير ١٩٥٥ م فى الساعة الرابعة والنصف تماما بالمركز العام ٣٤٣ نذرت رود أمام " اسلاميه كالج " و ذلك للبحث عن أمور هامة للمؤتمر كانتخاب رئيس وأعضاء جدد من الباكستان وسفارات اندونيسيا ومصر وايران بعد مغادرة أعضائها من كراتشى.

والرجاء تشريفكم مع مزيد الشكر سلفا.

مخلصكم الدائم
محمد شفيع أعظم (ابن علماء الأزهر)
سكرتير مؤتمر العالم الإسلامى ومؤسسه

المركز العام
١١ - ٢ - ٥٥ م



ياش توركستان

LE JEUNE TURKESTAN

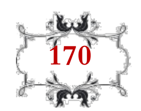
"YACH TURKESTAN"

REVUE MENSUELLE FONDÉE EN 1929

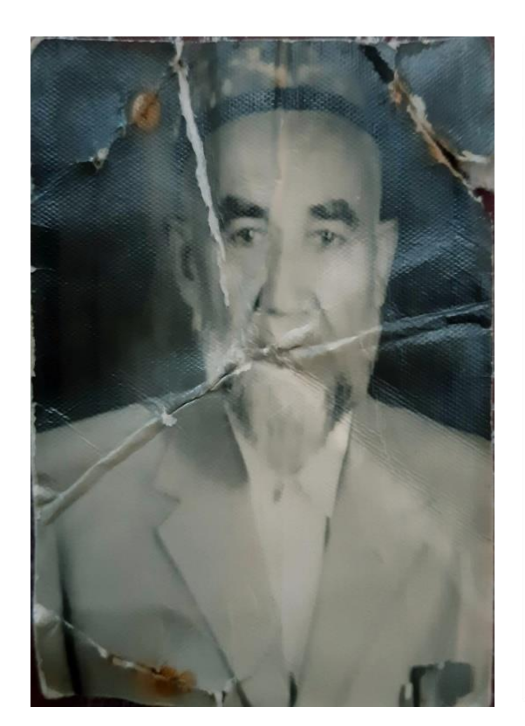
En langue turque

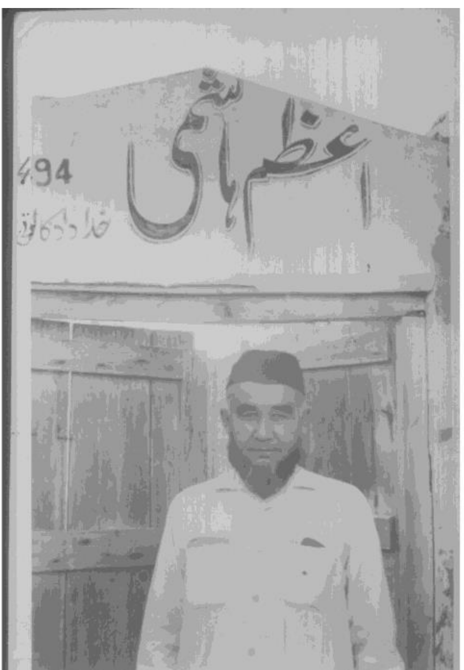
Le ... 1940

محترم اعظم هاشمى افندى ...



الصور الشخصية لأعظم هاشمي

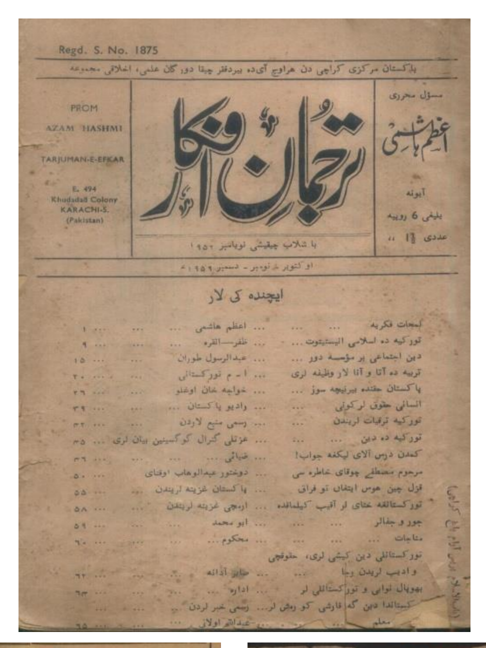








المجلات العلمية لأعظم هاشمي



Regd. S. No. 1875

پاکستان مرکزی کراچی دن هراویچ آی‌ده بیردفتر چیقا دورگان علمی، اخلاقی مجموعه

مسؤل محرری
اعظم هاشمی

ترجمانِ افکار

PROM
AZAM HASHMI
TARJUMAN-E-EFKAR
E. 494
Khudadad Colony
KARACHI-5.
(Pakistan)

آبونه
یلیغی 6 روپیه
عددی 1½ „

یا شلاب چیقیشی لویانبر ۱۹۵۰

اوکتوبر – نوبر – دسمبر ۱۹۵۶ ع

ایچنده کی لار

آبونه شرائط لاری

۱ اردو تورکی ییلیغی ۵۰۰-۰۰
۲ صرف تورکچه ۳۰۰-۰۰
۳ صرف اردو حصه ۳-۸-۰
۴ بردانه سی آلتی‌آنه ۰-۶-۰

توغرو لوقغه ایندلوچی آی‌لق

مجموعه ترجمان کراچی

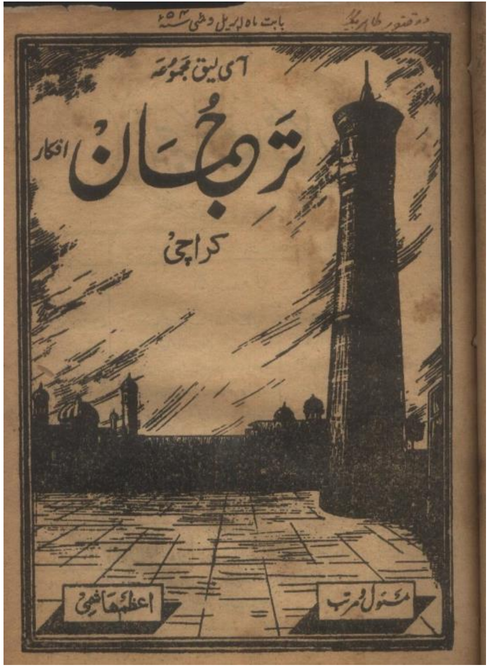
راجسٹرڈ – ایس نمبر ۱۵۱۷

مراسله لار اوچون

ترجمان مجله سیغه عائد تمام‌مراسله وآبونه‌لار اعظم هاشمی‌نامیغه‌یولوب ینگی ادرس گه کوندورولمالیدور: پاک تورک محله‌نمره E 494 خدا داد کالونی کراچی نمبر ۵

۱۹۵۱ء جولائی – آگست – مطابق شوال و ذوالقعد ۱۳۷۰ سان ۷-۸

ایچنده گی لار





تابع المجلات العلمية لأعظم هاشمي


شرح چندہ
ریاستوں اور سرپرستوں سے ۲۵ روپیہ
امراء اور رؤسا سے ۱۰ روپیہ
عام چندہ ۳ روپیہ
طلباء و لائبریریوں سے ۲ روپیہ
خارج از ہند ۵ روپیہ
منیجر

رجسٹرڈ ایل نمبر ۲۵۹۴
ماہوار رسالہ
ترجمان
دہلی

اطلاع
رسالہ نہ پہنچنے کی اطلاع اسی مہینہ کی ۲۰ تاریخ تک آنی چاہیے۔
کسی قسم کے جوابی امور کے لیے ٹکٹ آنا چاہیے
رسالہ کا نمونہ طلب کرنے والے حضرات ۴ کا ٹکٹ روانہ کریں ہر قسم کی خط و کتابت و ترسیل زر بنام اعظم ہاشمی ہونا چاہیے۔

جاری شدہ ماہ مئی ۹۳ء — ماہوار علمی اجتماعی مذہبی تمدنی سیاسی رسالہ — سلسلہ نمبر ۱۹

بابت ماہ نومبر ۱۹۳۹ء مطابق رمضان ۱۳۵۸ھ

نمبر شمار	عنوان مضامین	صاحب مضمون	صفحہ	نمبر شمار	عنوان مضامین	صاحب مضمون	صفحہ
۱	رمضان کا موضوع	ادارہ	۲	۱۰	مہاجرین کی نئی خبریں	ادارہ	۲۳
۲	صحبت علمیہ	〃	۳	۱۱	ساتواں سالانہ اجلاس	محمد قاسم نائب ناظم	۲۴
۳	شاہان مغلیہ کی داد و دہش	مغلیہ گزٹ	۷	۱۲	روس کا الفار عہد دار الوقوع	〃	۲۷
				۱۳	یوم الشہداء	ادارہ	۳۱
۴	تمدن اسلامی	عبد الباسط صاحب بی۔اے	۹		حصہ فارسی		
۵	آل تیمور سے	درد مند	۱۱	۱۴	سیاحت ہند	ادارہ	۳۱
۶	تاریخ و جغرافیہ توران	ادارہ	۱۲		حصہ توری		
۷	اشتراکیت اور اسلام	ایک عالم دین کے قلم سے	۱۴	۱۵	بیش مسئلہ	ابو المسعود افندی	۳۳
۸	انقلاب	مرزا محمد اختر بیگ چغتائی	۱۸	۱۶	استدعا	----------	
۹	واقعات مہمہ عالم کا ماہنامہ	ادارہ	۱۹	۱۷	ایگ سیو نچلی کون لار	ادارہ	

پاکستان مرکزی کراچیدن ترقی ایلادیان تغان علمی اخلاقی آیلیق مجموعہ

آبونہ
پاکستان، ہندوستان و افغانستان
اوچون

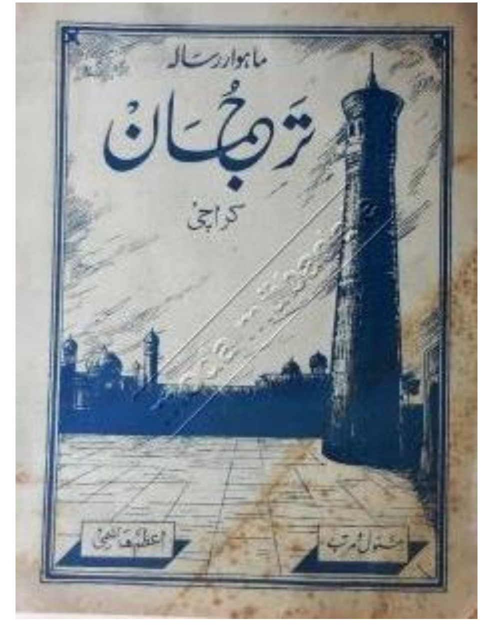
ترجمان افکار
مسئول محرر
اعظم ہاشمی

مراسلت و آبونہ ادرس
اعظم ہاشمی ۴۹۴
خداداد کالونی - کراچی ۵
AZM HASHMI
TARJUMAN-E-EFKAR
E/494
KHUDADAD COLONY
KARACHI
5

بابت نومبر دسمبر مطابق ربیع الاول، ربیع الثانی

عنوان	یازوچی لار	صحیفہ
سعودیہ عربیہ دہ اطاعت الاولی الامر مثالی	ادارہ	۲
اتفاق بیق و ایلیک اساسی لری	باش مقالہ	۳
مقالات		
تعلیم و تربیہ	محمد موسیٰ تورکستانی	۱۰
تاریخدن بر صحیفہ		
نورجہان	ملا وچہ	۱۱
اوزبیگہ باتقہ سوزبیگہ ہاق	درد مند	۱۳
ام المتقی	خواجہ مسعود	۱۴
کتاب		۱۵

پرنٹر و پبلشر اعظم ہاشمی



مقالة بالعربية لأعظم هاشمي

٣٥

٤٠ مليونا من المسلمين

أين هم الآن ..؟

بقلم الاستاذ أعظم هاشمي رئيس تحرير مجلة ترجمان آفكار . كراتشى

أليس من المؤلم حقا أن ينسى إخواننا العرب فى الشرق الاوسط ٤٠ مليونا من إخوانهم المسلمين فى تركستان ووسط آسيا ومصيرهم السئ الذى آلوا اليه أمام عمليات الارهاب والابادة التى قضت على معالمهم الاسلامية الزاهرة على أيدى البولشفيك ..؟ أليس من المؤلم حقا أن ينسى إخواننا العرب مصير هذا العدد الهائل من المسلمين ويفتح البعض منهم صدره للبلشفية ويتقبل دعايتها ويمد ذراعيه الى موسكو ليتخذها صديقا له آملا منها أن يجد منها البلسم الشافى والعون الكافى لانالته كل ما تهدف اليه نفسه من آمال .. إنى أسأل إخوانى العرب كيف نسوا أو تناسوا معالم بخارا و طشقند وخوجند و يارقند و ايندجان الاسلامية الزاهرة وغيرها من معالم القفقاس ومدن وسط آسيا التى كانت تزخر بمساجد المسلمين ومعاهدهم ومدارسهم ودور القضاء والشريعة والافتاء فيها - هل لى أن أسألهم أين هذه المعالم كلها الآن وأين مسلموها وطلبتها وعلماؤها ومشايخها وأساتذتها ، رجالها الأعلام وأقطابها الدينيون ..؟ إن كانوا لا يعرفون عن ذلك شيئا . ولا عن المصير السئ الذى وصلوا اليه فهل لهم أن يسألوا موسكو عنها ..؟ لم لم يرتفع للمسلمين فى تلك المعالم صوت ..؟ ولم كتم كل خبر عنهم عن هذا العالم ..؟

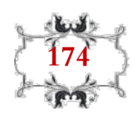
لماذا لم تفصح موسكو عن مصير المسلمين فى تلك البقاع من العالم وتسمع العالم الاسلامى صوتهم أو العالم العربى على الاقل وهى تتودد اليه اليوم فى ثياب المسوح والرهبان ..؟ ان كنتم ايها الاخوان العرب الاعزة لا تعلمون عن ذلك شيئا ولا تدرون عن مصير إخوانكم المسلمين فى تلك البقع فاسئلونا نحن أبناء التركستان وأبناء تلك الديار نأتيكم بالخبر اليقين .. لقد قضت البلشفية على معالمنا الاسلامية الزاهرة وفتكت برجالنا وعلمائنا وزعمائنا وأقطابنا ومحت كل أثر للاسلام فى بلادنا وحرقت جميع كتبنا ومصاحفنا الأثرية القديمة وفرضت نظمها وتعاليمها على مابقى من ذرارينا فسلبتهم أعز شئ لدينا وهو الاسلام .

ان موسكو التى تقول بأن الدين هو أفيون الشعب لم تتورع فى أن تمحوا كل أثر للاسلام فى بلادنا لتخلق جيلا جديدا ملحدا لايعرف له إلها أو رسولا الا أقطاب البلشفية ورجالها .

وهذه هى موسكو صديقة اسرائيل والتى أمدتها بالبترول ولم تقطع علاقتها الدبلوماسية معها . تمديدها للعرب مرتدية لباس المسوح لتكسب ودهم وصداقتهم حتى اذا ظفرت بما أرادت نشبت أظفارها الجهنمية فى أحشاء الجسم العربى فالتهمته بموارده ومصادره الطبيعية كما فعلت فى هنكاريا وبولونيا وفيلندا وتشكوسلوفاكيا وغيرها وغيرها

لقد سبق لكثير من العلماء أن أفتوا بكفر وارتداد كل شيوعي واخراجه من حظيرة الاسلام فما بال هذه الفتاوى قد نامت ووضعت فى سلة المهملات أمام دعاية موسكو الآن .

إن اليوم الذى تطأ فيه موسكو بخيلها فى البلاد العربية سوف يكون آخر يوم للحكم الاسلامى فيها



نعي أعظم هاشمي في مجلة مِلّي تركستان الألمانية ١٩٧٣م



MİLLÎ TÜRKİSTAN

Milli Türkistan Birlik Qomitasının
Türkistan milli istiqlali üçün küreşüçi mecmua
Çıqaruçı ve baş muharriri: V. KAJUM-HAN

20 (31) Ekim (Oktabır) 1973 San 132 A

Bu sanda:

1. Milli devletniŋ qurılış meselesi ve usullari . V. Kajum-Han
2. Türkologiye ve Türkistan . . . . B. Hayit
3. Partiye ve unıŋ halqlar bilen munasabati . A. Zavqiy
4. Ana tili ve Rus tili . . . . Can A. I.
5. Türkistan'da Islamğa qarşı küreşler . . . V. Yurtçı
6. Türkistan'da nufus artışı . . . . B.
7. Türkistan'dağı KP MK'niŋ birinçi katibları A.
8. Pakistan'dan alıngan açınarlı habar . . . Islâmabad
9. International Islamic Youth Conference . Babur
10. Abuna . . . . Başqarma

Biz bu yerde İslam dinige ve İslam an'analariga qarşı kommunist fırqası tamanıdan körilmekde bolğan çaralardan kiçkina bölegini misal olaraq keltirdik. Keleçekde İslâm dininiŋ hâlâ büyük tasiri ve halqnıŋ baqışı, ve dini vakillarniŋ harakati haqqında yena da mufassal izahat beramiz.

PAKISTAN'DAN ALINGAN AÇINARLI HABAR

Bu yıl 30-İyul küni ertalab vatandaşlarımızdan Azam Haşimi vafat etdi. Uzun yıllardan berli tınmay ve çarçamay vatan üçün hizmat qılıb kelmekde bolğan millatçi Türkistan farzandi öz yurtıdan miŋlarça kilometr uzaqda ğurbetde yaşab vatan azadlığı yolıda küraşib, öz muradıgâ erişa almay bizden bâqiyen ayrıldı. Bu, Pakistan'dagı Türkistanlılar üçün ornını toldıra alış imkansız bolğan ağır yoqaltışdır.

Marhum, Pakistan'da iqamet etgen yıllar boyıça „Tarciman" isimlik macmuani neşir qılış arqalı milli dâvamıznı alğa sürgen ve İslam dininin tefsirleri ve fazilatlari haqqında qımmatli maqalalar yazıb ammağa taqdim etib kelgen edi.

Haşimi haqıqatan da millatini ve vatanını sevgen ve bu yolda fedakâr bolğan vatandaşımız edi. Bunın istiqlal yolıdagı harakatini ve fedakârlığını abadiyen unıtmaymız. Yatgan yeri cannatda bolsın. Unın ruhı bizim bilen birge yaşayacaqdır.

Islâmabad, 13. VIII. 1973

Bu açınarlı habardan dolayı „Milli Türkistan Birlik Komitasi „ve" Milli Türkistan" Başqarması çuqur tessur bildiredi. Vatandaşımız Azam Haşimi'niŋ milli yolda alıb barğan hizmatini har vaqıt köz aldıda tutıb taqdırlaydı ve daima yâd etedi. Uluğ taŋrimiz marhumnıŋ yatgan yerini yumşaq qılsın. Unın Türkistan azadlığı yolındagı idealini davam ettirişni vatandaşlıq borci deb bilemiz.

Präsident: V. Kajum-Han

33

ترويسة جمعية المهاجرين التركستانيين بباكستان

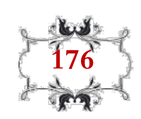
تورکستان مهاجرلار یاردام لاشو برلیغی

(انجمن مهاجرین تورکستان)

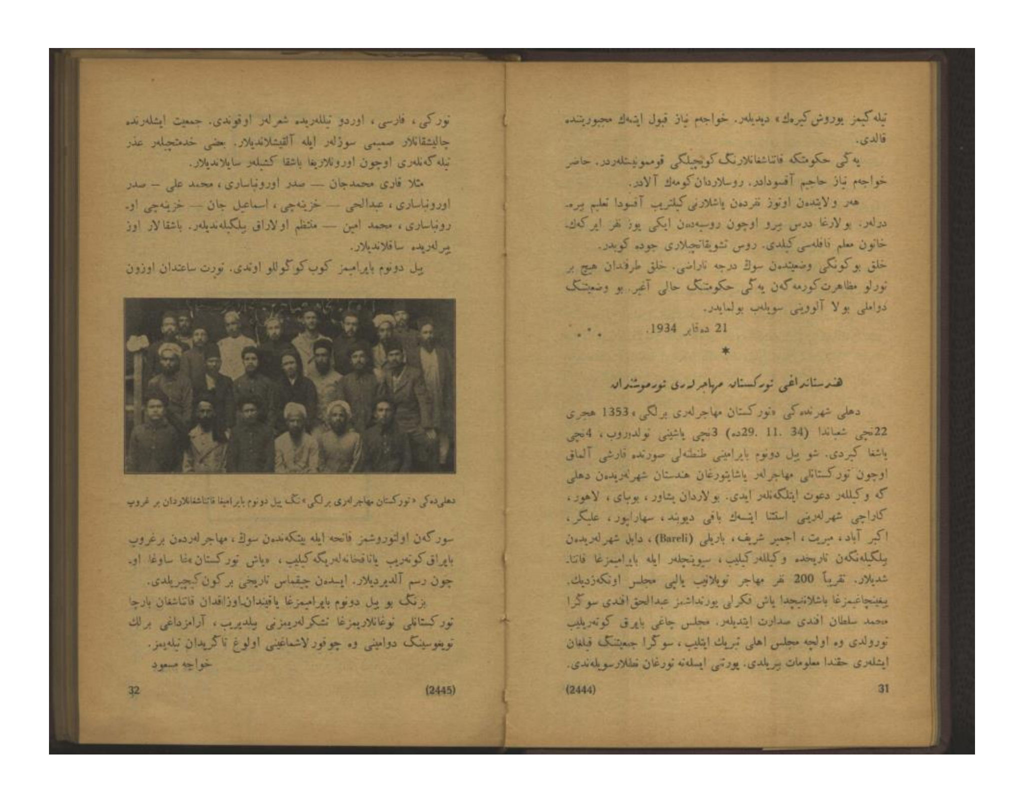
TURKISTAN REFUGEES' ASSOCIATION

نمبر ۳۰ ایمبنک مینٹ روڈ
کراچی ۲ (پاکستان)

NO. 30, EMBANKMENT ROAD,
KARACHI-2 (PAKISTAN)



تقرير عن تأسيس جمعية المهاجرين بالهند – منشور في مجلة ياش تركستان بفرنسا - يناير ١٩٣٥



تیله‌کیمز یوروش کیره‌ك» دیدیله‌ر. خواجه‌م باز قبول ایته‌ك مجبوریتنده قالدی.

یه‌گی حکومتکه قاتناشغانلارنگ کوبچیلکی قوموونیستله‌ردر. حاضر خواجه‌م باز حاجیم آقسودادر. روسلاردان کومه‌ك آلادر.

هه‌ر ولایتده‌ن اوتوز نفرده‌ن یاشلارنی کیلتریب آقسودا تعلیم بیره‌درله‌ر. بولارغا درس بیرو اوچون روسیه‌ده‌ن ایکی یوز نفر ایر که‌ك خاتون معلم قافله‌سی کیلدی. روس تشویقاتچیلاری جوده کوبدر.

خلق بو کونکی وضعیتده‌ن سوك درجه ناراضی. خلق طرفدان هیچ بر تورلو مظاهرت کورمه‌گه‌ن یه‌گی حکومتنگ حالی آغیر. بو وضعیتنگ دواملی بولا آلووینی سویله‌ب بولمایدر.

21 ده‌قابر 1934.

*

هندستانداغی تورکستان مهاجرله‌ری تورموشندان

دهلی شهرنده‌گی «تورکستان مهاجرله‌ری برلگی» 1353 هجری 22نجی شعباندا (34 .11 .29ده) 3نجی یاشینی تولدوروب، 4نجی یاشغا کیردی. شو ییل دونوم بایرامینی طنطنه‌لی صورتده قارشی آلماق اوچون تورکستانلی مهاجرله‌ر یاشایتورغان هندستان شهرله‌ریده‌ن دهلی گه وکیلله‌ر دعوت ایتلگه‌نله‌ر ایدی. بولاردان پشاور، بومبای، لاهور، کاراچی شهرله‌رینی استثنا ایته‌ك باقی دیوبند، سهارنپور، علیگر، اکبر آباد، میرت، اجمیر شریف، باریلی (Bareli)، دابل شهرله‌ریده‌ن بیلگیله‌نگه‌ن تاریخده وکیلله‌ر کیلیب، سوینچله‌ر ایله بایرامیمزغا قاتنا‌شدیلار. تقریباً 200 نفر مهاجر توپلانیب یالپی مجلس اوتکه‌زدیك. بیغینچاغیمزغا باشلانیچدا یاش فکرلی یورتداشمز عبدالحق افندی سوگرا محمد سلطان افندی صدارت ایتدیله‌ر. مجلس چاغی بایرق کوته‌ریلیب توریلدی وه اولچه مجلس اهلی تبریك ایتلیب، سوگرا جمعیتنگ قیلغان ایشله‌ری حقندا معلومات بیریلدی. یورتنی ایسله‌ته تورغان شعرلار سویله‌ندی.

(2444) 31

تورکی، فارسی، اوردو تیلله‌ریده شعرله‌ر اوقولدی. جمعیت ایشله‌رنده چالیشقانلار صمیمی سوزله‌ر ایله آلقیشلاندیلار. بعضی خدمتچیله‌ر عذر تیله‌گه‌نله‌ری اوچون اورونلاریغا باشقا کشیله‌ر سایلاندیلار.

مثلا قاری محمدجان — صدر اورونباساری، محمد علی — صدر اورونباساری، عبدالحی — خزینه‌چی، اسماعیل جان — خزینه‌چی اورونباساری، محمد امین — منتظم اولاراق بیلگیله‌ندیله‌ر. باشقالار اوز یرله‌ریده ساقلاندیلار.

ییل دونوم بایرامیمز کوب کوگوللو اوتدی. تورت ساعتدان اوزون

دهلی‌ده‌گی «تورکستان مهاجرله‌ری برلگی» نگ ییل دونوم بایرامیغا قاتناشغانلاردان بر غروپ

سورگه‌ن اولتوروشمز فاتحه ایله بیتکه‌نده‌ن سوك، مهاجرله‌رده‌ن بر غروپ بایراق کوته‌ریب یاتاقخانه‌له‌ریگه کیلیب، «یاش تورکستان»غا ساوغا اوچون رسم آلدیردیلار. ایسده‌ن چیقماس تاریخی بر کون کیچیریلدی.

بزنگ بو ییل دونوم بایرامیمزغا یاقیندان اوزاقدان قاتناشغان بارچا تورکستانلی توغانلاریمزغا تشکرله‌ریمزنی بیلدیریب، آرامزداغی برلك تویغوسینگ دوامینی وه چوقورلاشماغینی اولوغ تاگریدان تیله‌یمز.

خواجه مسعود

32 (2445)

قصاصة من رسالة المؤلف على ترويسة

جمعية المهاجرين التركستانيين بدهلي - ١٩٤٢م

Society of the Migratory
TURKS FROM TURKISTAN
DELHI (INDIA)

توركستان
تورک مهاجرلەریبرلیگی
دهلی (هند)

Dated 2Wth. Nov. 30/11/42 1942 No. 39 نومیر تاریخ ١٣٠٠

Büyük türkiyya jumhuriya sininhındustane
bilgilenmiş-Ezzatli büyük Alçisi hurmetine türkistanliler
terafindn hayramakdam.



اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلالك وعظيم نعمتك،

وبفضل الله الكريم انتهيت من تنسيق الرسالة الرائعة ثانيا ،

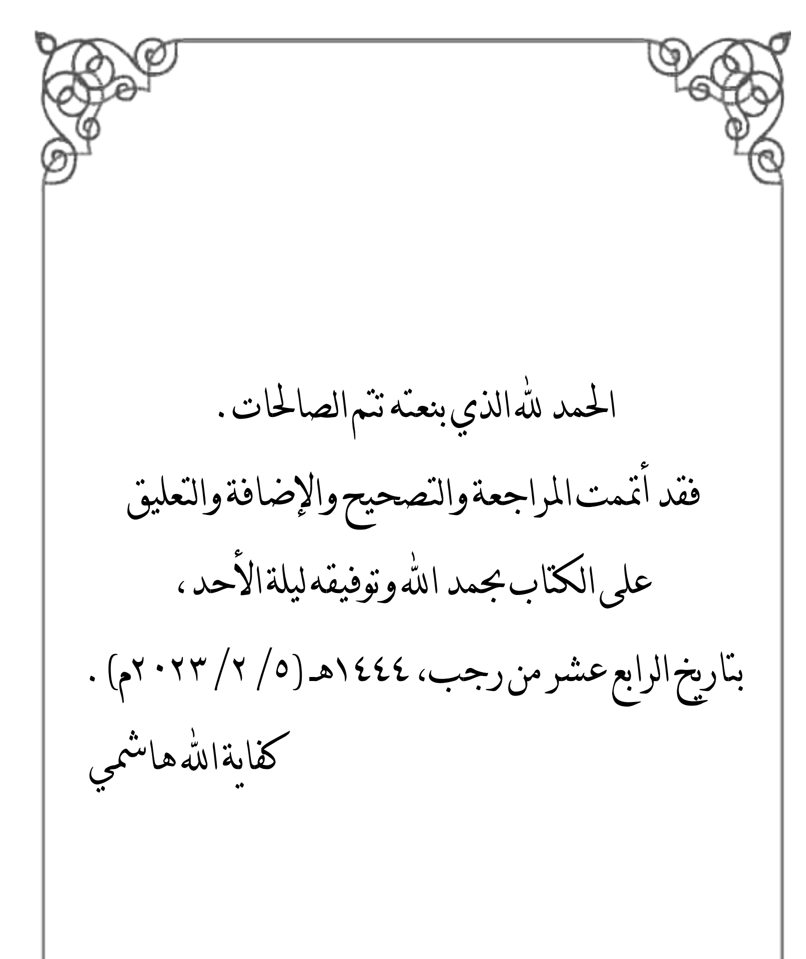
وذلك في ليلة الجمعة، ورحم الله المؤلف،

وأنزل على قبره شآبيب رحمته .

أنس شودهري

«بهولا ، هبيغنج» – بنغلاديش

اليوم التاسع من ديسمبر سنة ٢٠٢٢م



الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

فقد أتممت المراجعة والتصحيح والإضافة والتعليق

على الكتاب بحمد الله وتوفيقه ليلة الأحد ،

بتاريخ الرابع عشر من رجب، ١٤٤٤هـ (٥/ ٢/ ٢٠٢٣م) .

كفاية الله هاشمي

صدر عن المركز:

- العلاقات السعودية الروسية: في ضوء المتغيرات الإقليمية والدولية.
- مقدمة في العقل السياسي الإيراني.
- القيادة السياسية السوفيتية من لينين إلى غارباتشوف.
- العلاقات الروسية الخليجية.
- العلاقات السعودية الروسية من منظور استراتيجي.
- السعودية وروسيا: بواعث العلاقات وتحدياتها.
- تورياكولوف صانع تاريخ تركستان.
- تأثير الصعود الروسي على النظام الدولي.
- المستعربون الروس.
- تاريخ روسيا من روريك إلى بوتين.
- أمن الخليج العربي في ظل بيئة استراتيجية متغيرة.
- خيوط الظلام: عصر الإمامة الزيدية في اليمن.
- ولاية الفقيه والفكر الصهيوني: الأيديولوجيا والأساطير.
- العلاقات السعودية السوفيتية المتعثرة.
- تطور السياسة الخارجية السعودية.
- عهد الملك سعود في الوثائق السوفيتية.
- الإعلام السعودي: سياسته الإعلامية.
- سياسات الإعلام والسياسات الثقافية.
- تاريخ الأدب الإيراني.
- زاويتي الروسية.
- السلك الدبلوماسي السعودي، ومراحل تكوينه.
- النشاط السوفيتي في منطقة الخليج العربي.
- الوهابية في الأدبيات الروسية.
- نور السلطة في كازاخستان: الرئيس نورسلطان نزربايف، (باللغات العربية والروسية والكزخية).
- الأمير سلطان بن عبدالعزيز في روسيا (إصدار علمي وثائقي) 2008م.
- كتاب/ السفير نظير توریاكولف: صانع تاريخ تركستان (1982 ـ 1938م).

مركز الإعلام والدراسات العربية - الروسية
Center of Information and Arabian - Russian Studies
фонд русско-арабских исследований и информации

المقر الرئيسي: موسكو، روسيا الاتحادية ـ الفرع الرئيسي: ص.ب: 230185 الرياض: ـ 11321 المملكة العربية السعودية
Head Office: Moscow, Russia - Main Branch: P.O. Box: 230185 Riyadh: 11321, Saudi Arabia
www.ciars.ru E mail: info.russianstudies@gmail.com


9 786030 482825